خيط سحري

نور الدين، حسام
خيط سحري / حسام نور الدين
روافد للنشر والتوزيع. 2015 ط أولى، القاهرة
295 ص ؛ 21 سم
1-رواية
2-العنوان
أ – المؤلف

رقم التصنيف: 813.008
رقم الإيداع: 22115 /2015
الترقيم الدولي I.S.B.N.: 978-977-751-162-9

روافد للنشر والتوزيع
القاهرة – ج م ع
تليفون 01222235071 2+
rwafead@gmail.com
www.rwafead.com

تصميم الغلاف: نور إسلام

خيط سحري

رواية

حسام نور الدين

إهداء..

إلى أبي..

الذي عَلَّمَني قداسة الحَرف.

وإلى زوجتي..

رفيقة الحكاية، والدَرب.

-1-

هُنـا..

تتثاءب أمواج البحر بعد ليل طويل منهك.. سُكُون هامس يحتوي خيوط الشفق، وتطل من وراء ستار الضباب الخريفي أيادٍ ووجوه، كأنها خرجت لتوها من خفايا البحر، أو كما لو أنها تُعلن.. بداية جديدة من عصور البشرية، قبيل انتهاء القرن العشرين!

بشائر الفجر تجلّت فوق تلك الصخرة العريضة الصماء، فتبدو فوقها فتيات يرتدين ملابس الرهبَنة، تتناثر أصواتهنَّ في رنين لطيف، وتنعكس صورتهن على صفحة البحر المتموجة. ينطلقن بعدها في مرح، فتداعب إحداهن عشبًا أخضرَ، وتَنكُش الأخرى بأناملها سمكة صغيرة لعوبًا، تقفز لاهية خارج الشقوق، في حين تبلل أصغرُهن مسام وجهها بقطرات مياه.

تنعم (الفتيات الراهبات) بطعم البدايات الغامرة بالإنسانية، يتسابقن بأقدامهن العارية، تمسك كل واحدة بيد الأخرى في تكوين دائري أو مايقارب، لارتجال أي لعبة من ألعاب الطفولة تلوح عفْو البال... تتعالَى ضحكاتهن، وصيحاتهن، وتدوم نشوة الغفوة بداخل كل واحدة، لا ينتبهن لكاميرا (محمود) الذي تسلل في حرص بالغ، يشتهي القبض على لحظة سحرية تتعرَّى فيها النفوس دون تجمّل، ويسعى جاهدًا، ليجد بين مستويات الصخرة المتفاوتة، زاوية غير كاشفة لوجوده، ويمكنه بها أن يلتقط صورتَه... ومن على بُعد يأتي

وراءه (إيهاب) الذي يراقب، ويتفرج على نهاية مغامرة صديقِه الفنية، ولكنه لم يتوقع أن تأتي النهاية مبتورة، ومباغتة، إثر صيحة (بُوق) من الطفل (عثمان)، يؤكد بها وصوله حاملًا بضاعته من أكياس (غَزْل البنات) الملونة، فتتوارَى (الراهبات الثلاث) الجميلات وراء الصخرة، ثم تختفي..!

لم يجد (محمود) تنفيسًا لمشاعر الغضب والإحباط إلا بلَكْز كتف (عثمان) لفعلته الحمقاء. لا يدري الطفل، ولا يفهم، سر غضب صديقه الكبير الذي طالما ضحك معه، وأغدق عليه المال، ولكنه يمضي في نفخ البوق، لجذب الزوار الذين بدأوا يتوافدون على الصخرة، مع اكتمال نور النهار...

جوانب الصخرة تمتلئ بالأشياء المهملة، يجوس حولها (محمود)، فيقترب بعدسته نحو قطعة خشب مقوسة، ومتآكلة الأطراف، في حين لم تزل أصداء ضحكات (الراهبات) تلاحق أذنيه، وبجوار قدميه يهتز ظل خط طويل لبوصة الصيد، يُحركها (إيهاب) في أول تأهبه لممارسة طقسه الأسبوعي، يقابله خط الأفق، إذ تستهل المراكب رحلتها في يسر... التبرم يطل بوضوح من وجه (إيهاب) الأسمر بقسماته التي تشابه – على نحو ما– ملامح أهل جزر البحر (الكاريبي)، وكثيرًا ما يُقطب جبينه شاردًا، كما يفعل الآن، وهو يحك بطرف ظُفره خشبَ بوصته قبل بدء الصيد، بعدما أدخل منظر سفر المراكب في جوانحه الشعور الغامض، والمتكرر، لكلمة.. رحيل.

ـ2ـ

ندَى الصباح يتكثف على زجاج ترام (الأنفوشي) الأصفر، تصحو الأبواب من سُباتها الليلي، لتستقبل عددًا محدودًا من الركاب، من بينهم (عم كامل) بقميصه المنسدل خارج البنطلون في إهمال. يخطو بقامته الطويلة المحنية، فيبدو كأنه على وشك السقوط، ثم يأخذ مكانه المفضل بجوار الشباك، الذي يفتحه بصعوبة، فينتصب أمامه (قصر رأس التين) المهيب مفعمًا بحكايا التاريخ. وبعد دعابات الصباح المألوفة بين (محولجي) المحطة وسائق الترام، وتبادل أكواب الشاي، تبدأ مسيرة (الترام) اليومية، فتئن عجلاتها بأزيز حاد، يستشعره (عم كامل) وهو يثبّت سماعة الأذن، ومن أمامه يختفي تدريجيًّا مبنى القصر، فتسود رمال الشط مدى البصر، قبلما يعلو صوت صدره الخشن بالسعال.

وجه (عم كامل) ترفض ملامحه البوح السافر بما يعتمل داخله، وإن بقيت أي لفتة من لفتاته تحمل مذاقًا خاصًا حتى في أثناء دفعه القروش مقابل تذكرة الترام للمحصل (الكمساري)، الذي يلف على الركاب بقلمه الخشبي، يرنُّ بها على أعمدة الترام المعدنية.ومع تزايد صعود الناس عند كل محطة جديدة، يفتح (عم كامل) جريدته، ويغُوص بين العناوين، مثلما يغوص جسد الترام الهزيل في وسط المدينة الصاخب، ثم يلتوي مخترقًا التكتلات البشرية، إلى أن يأخذ مساره اليومي المعتاد، فتقل بعدها حدة الزحام.. لحد ما.

لم يَبرحْ (عم كامل) موضعه.. عيناه الغائرتان تلمح بعض معالم الطريق، وهو يطوي الجريدة، ثم يشعل سيجارة بآخر عود كبريت يتيم، وجده داخل جيب قميصه المهترئ –قليلًا– من الحواف.

-3-

– (صوت بلادي.. بلادي بلادي.. بيدَوِّي عبر الأجيال.. صوت حضارة من يومها جبارة.. ياما صنعت أبطال ورجال).

يكمل أطفال المدرسة نشيدهم الصباحي بحماس، تضرب أقدامهم أرض فناء المدرسة على دقات طبول الفرقة الموسيقية، متجهين نحو الفصول في طوابير متوازية. يبدون بزيهم الموَّحد كالكتاكيت المبهجة، كما يراهم (إبراهيم) من شرفته العليا المطلة على مبنى المدرسة، بوجهه المكتنز، وتكشيرته الطفولية، رغم تجاوزه منتصف الخمسينات. ظل يطيل النظر في حوش المدرسة بعد أن أصبح مسكونًا بوحشة الصمت، ثم تدور عيناه نحو ركن بعيد، حيث تستلقي الآلات الموسيقية على الجدار، فيرحل خياله تجاه آلة (الأَكُورديون) التي لطالما تمنى أن يقتنيها، ليغازل مفاتيحها بأصابعه، ويخلخل هواء صندوقها الطيِّع، فتخرج بعدها أنغامًا شجية، أو راقصة، وإن كانت تحمل نفس الإحساس الآسر.

انفرجت ملامح (إبراهيم) أثناء استرساله في روعة إحساسه بموسيقى (الأَكورديون)، ثم طرق سمعه صوت (أمه) القعيدة، وهي تزوم فوق سريرها المواجه للشرفة بزاوية مائلة. يتثاقل (إبراهيم) بجسده

المنفوخ، وشعر رأسه الأشعث، تثقل حركته تزاحم خواطره، فيترنّح في مشيته كسكير تطوحه بداية سكرته، ثم يقترب من (أمه)، يمد لها كوب الماء الزجاجي بحركة آلية، وهو يفرك عينيه، ويتأفف من طول انتظاره، حتى تنتهي من شرب المياه، فتحاول أن تمسح آثارها من جوانب فمها الدقيق، تنظر لابنها كي يساعدها، لكنه يهيم في مراقبة نقطة مياه تنزلق بنعومة من أعلى الكوب، وتتعلق قبل السقوط في تعريج بأسفله، تظل في حالتها تتشبث بالتماسك بعض الوقت، قبل أن تسقط، وتتفتت.

وبحركة بإصبعها، تقطع الأم دائرة تأملات ابنها ليساعدها، فيغضب صارخًا:

- "يُوووه"... فاهم..!

يتجه بعدها ليسحب فوطة كبيرة، ولكن تصطدم ركبته في بوز طاولته الصغيرة، عليها قلمه وأوراقه، فيتذمر كتلميذ كسول، في حين يلم أوراقه من على الأرض، ثم يلتقط كتابًا وجده تحت الكرسي، وهو يخطف نظرة نحو (أمه) ليرى رد فعلها، فتنشغل عنه بالنظر نحو الشرفة، ويخرج من الغرفة حاملًا فوطته، وكتابه، نحو الحَمّام، وقد تغيرت حالته المزاجية فجأة، واستعاد خواطره مع آلته الموسيقية، كأنها تتناغم بين ذراعيه، فبدأ يرفع صوتَه النشاز:

"صوت بلادي.. بلادي بلادي، بيدوِّي عبر الأجيال.. صوت حضارة..... "..

ـ4ـ

ترتعش أصابع (فادية) الطويلة رعشة خفيفة لا إرادية، حيث تحكم غلق باب غرفتها بآخر حدود البيت، ثم تستدير نحو الممر الطويل المستطيل بسقفه الشاهق، يعلو صوت (نقرات) كعب حذائها على رخام الممر، في حين تفتش في مرآتها الصغيرة عن أي أثر من تجاعيد تغزو بشرتها، بعد وضعها طبقة رقيقة من مسحوق التجميل. يخرج أخوها الأكبر (إبراهيم) من الحمَّام في منتصف ممر الصالة تقريبًا، فلا تأبه لوجوده، وتتعمد أن تشيح وجهها عنه، وتضع المرآة داخل شنطتها مواصلة السير.. يقف (إبراهيم) متسمرًا يراقبها، مثل عسكري المرور، ويلف عنقه ببطء مع تتابع حركتها، نحو بهو الشقة، إلى أن أغلقت الباب، أمام وجهه بعنف.

ـ5ـ

عَلا تصايح الناس وراء الشباك الحديدي للمخبز (الإفرنجي)، يطالبون (محمود) بالإسراع في إعطائهم أرغفة الخبز (الفينو)، فلا يكترث (محمود) بهذه الصيحات المعتادة، ويستمر في تقطيع (الفَايْش) -الشبيه بالبُقسماط- بسكينة طويلة مميزة، فيتودد أحدهم نحوه:

- زهقنا يا حُودَة.. خلَّصني أنا عندي شغل.

فيرد عليه، وهو يرتب قطع (الفايش)، على الرف العلوي:

– انت على ذمتي يا عم خميس؟ (يبتسم ابتسامة تنم عن طيبة قلبه).. اصطبروا يا جماعة!

رغم اقتراب (محمود) من الثالثة والثلاثين، إلا أن وجهه البشوش الأبيض، وخفة حركته بطوله الفارع لا تَشي بعمره الحقيقي، بل يبدو (إيهاب) الذي يصغره بعدة أعوام أكبر عمرًا منه.

سرعان ما تهلّ صاجات (الفينو) يحملها (الطاوْلجَي)، ثم يرميها على طاولة البيع، فتختلط فرقعة أصواتها مع لهيب نداءات الزبائن، ينهمك (محمود) في البيع، وبجوار باب المخبز الخارجي يتحسس (إيهاب) بالمفك الصغير دوائر إليكترونية على شريحة بلاستيكية، ينتشر عليها نقاط اللحام بلونها الفضي، وبينها أسلاك تالفة، فيستبدل دائرة إليكترونية بأخرى جديدة ليجربها... وهكذا، حتى يتوصل إلى سر تعطل (مسجل –كاسيت) سيارة (محمود) الذي يعلو صوته، وهو ينادي على العَجَّان، ليخبز عددًا أكبر من الصاجات:

– يا عَبد القَوي، (زِمّ) لي 4 صاجات... سامعنى يا عبد القَوى؟!..

ويتمتم ساخطًا:

– يخرب بيتك، يا عبد القوي!!

تتداخل أيادٍ فوق أيادٍ تخطف الأرغفة من أصابع (محمود)، الذي تسحب يدُه الأخرى النقود، فتلقيها بسرعة في الدرج المفتوح، ولا يمنع انهماكه في البيع –أحيانا– من أن يمد ذراعه الطويل وراءه، ليلسع قَفا

العامل المبتدئ على إهمال قد ارتكبه، أو يجس بكف يده الخبيرة وزن الرغيف، قبل إخراجه للزبائن، ليطمئن على مطابقته للوزن المطلوب.

تتدافع أرغفة جديدة بعضها فوق بعض، تلهج عجينتها من فوَران الحرارة، ولا تهنأ بالراحة على الطاولة حتى تخطفها كف (محمود)، لتنقض عليها من جديد الأكفُّ الجائعة، فيحملونها من فرط سخونتها، إما على طرف الجلباب، أو ملفوفة في ورقة جريدة، أو غير ذلك..

يأمر (محمود) العامل البليد صائحًا:

– عِدّ لي يا زفت سندوتشات (حَمّو كبدة)، واجرِ على المحل عنده، وارجع لي بالفلوس.

وقبل أن يعود لشباك البيع، يوجه رأسه تجاه الخلف، حيث غرفة العجين الداخلية، ويكرر نداءه بالحاح:

– يا عبد القوي، يا عبد القوي، الدقيق عندك يكفي لآخر النهار؟..

لا يجد ردًا من (عبد القوي) العجَّان، مثل المرَّة السابقة، فينسَى الأمر، ويعود لعمله مرددًا بسخرية مرة أخرى:

– يخرب بيتك يا عبد القوي!

ابتسم (إيهاب)، وهو يتفرج على صديقه في ذروة انشغاله، مغلقًا غطاء مسجل السيارة بعد إصلاحه، ولا يجد ما يفعله إلا النظر في

وجه (فتاة) في أول العشرينيات، تُشعُّ ملامحها فتوة الأنوثة، وتبحلق في (محمود) مبتسمة وراء شباك البيع، وبإشارة من (إيهاب) لصديقه، يلتفت (محمود) تجاهها، ويفتح لها الباب المغلق بجوار الشباك.

تدخل (الفتاة) باستدارة جسدها البارز التقاسيم، يسألها (محمود)، وهو لا ينظر لها، في أثناء قيامه بوضع أكياس مملوءة بـ(خميرة البيرة) فوق كفة الميزان:

- أسبوع لا حِس ولا خَبر؟!! (ينفخ في ذراعه العالق به حفنة من الدقيق).

ترد (الفتاة)، وقد بدت فرحة طافية على وجهها:

- كنت عند أختي في مدينة العرائس، تعرف المنطقة هناك يا حُودة؟

يلوح ذراعه مستهينًا:

- كل رمضان كنا نلعب كُرة في شارع الرحمة جنبها، ساعتها كنتِ لسَّة في بطن أمك..

فتحت (الفتاة) فمها الواسع، وقد تغاضت عن سخريته من صغر عمرها، واقتربت منه لتهمس له، وفي يدها شريط (كاسيت) تشير له به، وتغني بميوعة مطلع أغنية (حُودَة) للمطربة الشعبية السكندرية المعروفة (بدرية السيد):

- "مَوْعُودة بحبك.. موعودة، برموشك وعينيك السودة، والله أنا خايفة تشَمّت فيّ.. كل بنات الحتة يا حُودة.. يا حُوووِدَة" (تمط الفتاة حرف الواو، وترعش كتفيها، كأنها على وشك الرقص).

يتوقف (محمود) عما يفعله، ويلتفت لها بكل جسمه عندما يسمع كلام الأغنية، قائلًا بشوق:

- آه يا بدارة.. كان أول شريط (كاسيت) هدية من أختك، وهي في (الدبلوم)..

ثم نظر لها، بعدما هدأت حدة العمل، وبنبرات هازئة سألها:

- لكن غريب يا "نُونُو" إنك فاكرة أيام أختك وشريط بدارة، لأنك كنتِ وقتها (كوكو واوا)!

بانَ صوتُ (الفتاة) بلونه الحقيقي الشرس، بعدما استفزتها نظرة (محمود) لها كطفلة، فاقتربت منه، وهو يولّي لها ظهره، في أثناء فتحه الدرج لتنظيم الفلوس بداخله، وكما لو أنها ستلقنه درسًا، ثنت ذراعها، ووضعت يدها على خصرها المرن، ولَوَت شفتيها، وهي تقول له:

- سلامة الشُوف يا (عَمو) حُودة! الكُوكُو كبر، وطلع له ريش، وجناحه يلَعب شباب المنطقة.

وَسْوَست شفتاها بصوت يعبر عن الامتعاض، فأحس (محمود) بلوعتها، وهي تستعرض شخصيتها الناضجة، وجسدها البَض،

وبقيت يدها على وضعها، تستعد لأي تعليق منه يمس كبرياء أنوثتها، لكنه وشوشها في خبث:

– يا سلام لو أقدر أدَحْرج الهوَى، جُوه جناحك ياطير، ومن فوقه وتحته، ومن قدامه و...!

رسمت ابتسامة ماكرة، وخفضت صوتها في دلال:

– يا مُفتري.. يا إما تدحرجه، يا.. تقلبه!

يصيح فجأة (محمود) بلهجته السَكَنْدَرِيَّة القُحة:

– "أيّووووه " !!

تعود للفتاة ثقتها، فَتقلّد طريقته الساخرة:

– سلامتك يا عفيفة؟ ولادتك قرّبت يا أختي؟

فيرد ببديهته الفورية، وهو يخبط بكفه على كتفها، كأي امرأة شعبية تمزح مع جارتها:

– "لا يا وليَّة..أنا لسَّة في الخامس.. عقبال أُمك يا مَوْكُوسَة.".

طرقعت (الفتاة) ضحكة طائشة، فحرك (إيهاب) رأسه متعجبًا، يداري ابتسامته لتكوينه الداخلي المهذب، بحكم الفطرة، وتربية أمه المنضبطة، ثم يُكمل الفرجة عليهما، كأنها مسرحية هابطة الذوق يسلي بها وقته، في حين يضم (محمود) أصابع يده الخمسة –دون أن تراه الفتاة– على شكل قرطاس مقلوب، فيرفعها نحو (إيهاب) على

هذا الوضع، ويخفضها أكثر من مرة، ولسان حاله يقول له: (أصبر على رزقك)...

تقضم (الفتاة) قطعة (فَايش)، تطحنها بأسنانها في عصبية مكتومة، وتنظر لمحمود الذي يهديها شنطة مملوءة بأرغفة (الفينو)، فتأخذها، ومازالت جعجعة بقايا (الفايش) تخرج من فتحة فمها، قبل أن تقول له بعيون مثبّته نحوه:

– انت مجرم، لكن ابن لذيذة!

قبل أن تنصرف، يواعدها (محمود) باللقاء، قبل ذهابها لمصنع (أنطونيا) للمكرونة الذي تعمل فيه، ثم تعدل (الفتاة) وضع (الجُونلّة) القصيرة، وتمر بجوار (إيهاب) على رصيف المخبز أثناء خروجها لعبور الشارع، في حين يسحب (محمود) كرسيًا، ليجلس بجواره، وهو يبحلق في قَدها المتراقص، كأنما يهتز على وقع دقات طبلة ماجنة، فيقذفها المارة برصاص نظراتهم، ويصرخ (محمود) بحرقة، وهو يأكل بعينيه تفصيلات جسدها:

– الله يخرب بيتك، يا عبد القوى!!

-6-

تصطف محال الأثاث مع دكاكين الساعات، والتحف، والكتب القديمة، وغيرها، على جانبي شارع العطارين، حيث تجر (فادية) قدميها، تساعدها نحافتها وقوامها الطويل، تتفادى مواضع التشققات

والحفر بالطريق دون أن تراها، كأنما قد حفظت عن ظهر قلب خريطة مشوار اعتادت عليه، لا تحس بانتكاسة رأسها الملازمة لها طوال مشيتها، تزوغ عيناها كأنما تبحث عن نقطة استقرار، ترهقها النتوءات والخدوش المسيطرة على وعاء فكرها.. ثم تستدير يسارًا نحو زقاق ضيق، لا تلتفت فيه لنداءات الباعة على عرباتهم الخشبية (الكَارّو)، ولا تشعر بطرقات شاكوش "المنَجّد" الذي ملأ عرض الزقاق بالكراسي، والقَش اللازم لحشوها، فهي لا ترَى سوى ذاك المحل البعيد لبيع الأثاث المستورد، حين يأخذ شاب صغير مبخرة يدور بها في زوايا المحل، تبركًا في بداية يوم العمل. لا تجد (فادية) شيئًا جديدًا، فتنتظر عند أول الرصيف، ثم تربكها نظرات فضولية لرجل عجوز يراقب وقفتها من (شيش) شباك يرتفع عن مستوى الرصيف نحو شبرين، فتضطر أن تقطع أمل الانتظار، وترجع كما جاءت، وهي تزيح عن طريقها سلة خوص معلقة بحبل متسخ من إحدى الشرفات. وبرغم خروجها من الزقاق، بقيت طرقات الشاكوش المتتالية تُصدّع رأسها، تنتاب يديها نفس الرعشة، ولا تزال مقلتا عينيها تزوغان، تفتشان عن مخرج لهمومها، كأنها تكتم صرخة، ثم تتوقف عن الحركة، وتلف قدميها في حيرة، بعد أن لطشت حواسها رائحة زنخة، فتجد نفسها محاصرة في مربع سوق الملابس المستعملة (الكانتُو)، التي تتكتَّل أمامها على الحوامل الصدئة، تفتش عن منفذ للخروج، لا تدري ما الذي أتى بها إلى ركام البنطلونات، والجلاليب، المعلقة في العراء!! تدور وراءها، لتهرب من كآبة الشعور، لكنها فوجئت بسيارة كبيرة، تسد عليها فتحة الخروج الوحيدة، تلف حول نفسها، وتلف معها تهيؤاتها،

تعجز عن الحركة، كأنها هيكل مثل باقي الهياكل المعلقة. تتخبط تيارات الدم في ما بين حاجبيها، وتتدافع نحو قدميها بإلحاح مياه بالوعة قذرة، فتتجه ثانية تجاه سيارة النقل التي تحركت، فسمحت لها بالهروب. تهرول مسرعة خارج هذا المربع الكريه، يتلقفها الشارع الرئيس، تتأرجح في أحشائه مثل الريشة التائهة، لا تسمح للذاكرة أن تعيد عليها ما شاهدته، لكن هل ما رأته هو أمر حقيقي؟ أم كانت تهلوس؟ تحلف لنفسها أنها رأت ما رأت، وأنها...

تنقطع أوصال التفكير مع غليان الدم في كل جبينها تقريبًا، تتمنى لو تطلق ساقيها للريح، فتستلقي على سريرها، لتصرخ دون أن تفضحها وجوه الشارع اللزجة. ترفع طرف طرحة (حجابها) لتمسح بإصبعها عرقًا ينز من خلف أذنيها. صارت بشرتها البيضاء أقرب للاحمرار، تزدرد ريقها بصعوبة، تضغط بكل ما بقى لها من قوة على رأسها، تعاهد نفسها ألا تعاود نفس المشوار مرة أخرى، بعد ما عذَّبها إصرار الرجاء... ثم تصعد الرصيف، نحو مساحة ظل رقراقة، فتلحظ أنوار الشمس تكسو المباني، حتى اقتربت من ناصية الشارع قرب بيتها، تقابلها في العمق تكوينات بديعة من السحاب المنفوش!

-7-

على نفس الامتداد الموازي لشارع (العطارين) الذي غادرته (فادية) منذ قليل، لم يزل يجلس ابن أخيها الوحيد (إيهاب) عند أقصى الجنوب بحي (كرموز)، يشرب (السَحْلَب) على باب المخبز

مع صديقه (محمود)، الذي ينادي على الحلاق في دكانه، عند آخر الرصيف المقابل، ويتعجله ليرد على مكالمة التليفون:

– يا عنتر، جماعتك منتظرة!

ينط (الحلاق) نطة الضفدعة، وهو يجتاز الطريق الفاصل، بقامته القصيرة، وبدنه الشاحب، فهمس (محمود) لـ (إيهاب) باسمًا:

– عنتر الحلاق! اسمه من اختراعي، من قُصرطوله تحس إنه قاعد وهو واقف!

لم يكن (إيهاب) مشغولًا بدعابة (محمود) أكثر من انشغاله في النظر تجاه محل الحلاقة، ثم أخذ بعدها (محمود) سماعة التليفون من (عنتر) الحَلاق، بعد انتهائه من مكالمته، فمسحها من أثر عَرَقه، وازال بعض الشَعْر اللاصق عليها، وهو يصيح على العامل بداخل الفرن:

– وَاد ياحَنَاطة، اسحب شنطة (الكاميرا) للبيت عندي، واسأل (عبد القوي) عن (الحَوَاوشي)، وان كان اسْتوَى، تُوصَلُه للبيت مرة واحدة.

يتجه (إيهاب) بجذعه، نحو (محمود)، سائلًا بجدية:

– قل لي يا محمود؟

– يا محمود..

– يا أخي.. انت طول الوقت تهرج!!

يعود (إيهاب) للنظر نحو محل الحلاقة، ثم يكمل كلامه باهتمام:

– الواحد إذا عمل مشروع محل حلاقة.. ينجح؟

يرد عليه، بنفس الجدية:

– أحلى مشروع يكسب، وعهد الله، بعيد عن التموين ومشاكله.

يستدرك (إيهاب)، وقد مال أكثر برأسه للأمام نحو صديقه:

– مادمت تجهل أصول الصنعة، سهل جداً يُحكمك "الصنايّعي" ويكون هو صاحب الأمر والنهي.

ينهي (محمود) شرب كوب (السَحلب)، وهو يحرك يده الأخرى الخالية، منوهًا بالتردد في صحة هذا الرأي، فيرتفع صوت (إيهاب):

– ولو غاب في يوم مثلا، ما الحل وقتها يا فالح؟

يجيبه بمنتهى الوقار، وهو يضع الكوب بحسم على الصينية:

– "طُظ"، أشتغل أنا، وأكتب على باب المحل (هذا اليوم مُخصص للإخوة الصُلع)..

ضحك (إيهاب) بعد أن فاجأه رد صديقه، الذي يضحك بدوره، وهو يمد يده ليسلم عليه، كأنه يصالحه أو يسترضيه، بعد أن اضطرته القفشة لقلب الموضوع مزاحًا، ثم يدخل المخبز، ليراقب باهتمام كبير حصته من أجولة الدقيق، التي يتم إنزالها من سيارة التوزيع، في حين يتفرج (إيهاب) على مجريات الشارع، فيلحظ رجلًا في منتصف العمر، يلبس ملابس رثة ويرفع ذراعه اليسرى على شكل

زاوية قائمة، حتى يصل للمخبز، فيقابله (محمود) ويعطيه رغيفًا، وهو يسأله:

– الحكومة حلوة يا صِيصَا؟

لا يرد المجنون (صِيصَا) سوى ببصقة على الأرض، فيلحقه (محمود) بسؤال آخر:

– الحكومة وسخة يا صِيصَا؟

يضحك (صِيصا) ببلاهة موافقاً، ثم يأخذ الرغيف، ويكمل مشيته في وسط الشارع، رافعًا ذراعه الشمال دون أن ينزلها. يشير (محمود) عليه عندما لاحظ استغراب (إيهاب)، فيحكي له:

– كان أعقل منى ومنك، وكان الموظف الشريف الوحيد في مكتب الشهر العقاري، إنما الرشاوي والمرتشين، لفّقوا له وشاية معتبرة، فاشتكى للمدير بحسن نيَّه في جواب رسمي، فحُفظت شكواه، فكتب شكوى لوكيل الوزارة، فحصل نفس الشيء، واعتزم تصعيد الموضوع للوزير. المهم.. الوزير حوّل الشكوى للوكيل، والوكيل نزِّلها للمدير من أول وجديد، فاترفد.. وبعد مدة، عقله تَاه، وضاع!

ينظر (إيهاب) من مكانه على الكرسي، لمحمود الواقف على باب المخبز، ويسأله:

–ممكن عقل الواحد يلاقي نفس مصير (صيصا)، مع أي صدمة؟

– طبيعي..!

يزم (إيهاب) فمه سارحًا، ثم يشعر بتساقط مطر خفيف.

- مطر! والشمس طالعة؟

فيرد عليه بسرعة:

- حكومة وسخة!! (يتركه ضاحكا، ليذهب لمحاسبة تاجر الدقيق بالداخل)..

عاد (إيهاب) وحيدا، تسائله نفسه عن جدوى وجوده هنا لساعات طوال: هل لمجرد قتل وقت ثقيل لا معنى له، ترقبًا لما هو آت؟ وما هو القادم الذي سيأتي؟ عمل جديد!! فكم من الأعمال الوظيفية التحق بها، ثم تركها أو تركته، فعقود الشركات الخاصة لا تعطي العاملين أي حقوق مضمونة، استغلالاً لظروف حاجة الشباب للعمل، ومع أي مناسبة، تقرر على هواها طرد من يحلو لها من العاملين، كما حدث معه. يعود يفتش عن أسباب أخرى لتعطله، فيتعب من التفكير، إلا أن حصوله على عدة شهادات تدريبية في علوم (الكمبيوتر) -رغم دراسته الروتينية بكلية الآداب- تجعل عنده بصيصًا من نور، لإيجاد عمل لائق، وهكذا لا يجد ما يفعله سوى أن يقضي يومه مع صديقه، حتى يعود للبيت.

-"البيت...!!".

انقلبت سحنة وجهه، كأنما يتراءى لعينيه نفس الحدث المستمر سواء يحدث في تلك اللحظة، أم بعد وقت قصير، حيث تقطع عمته (فادية) ممر الصالة جريًا، نحو باب غرفتها، بعد أن هيّجت أعصاب

أبيه (إبراهيم)، بشتائمها وسلاطة لسانها، فيجري وراءها، رغم ترهل جسده.. تتداعى صور الخناقة بالبيت في ذهن (إيهاب)، في أثناء وصول (سيارة نقل) أمامه في جلسته خارج الفُرن، إذ تحمل (سيارة النقل) أثاث شقة زوجية، فوقها يصفق (أهل العروس) ويغنون مع رشات المطر:

- (صَلِّي صَلِّي.. صلِّي، وبَحَرِي بَحِرِي.. بَحري)

تزغرد النساء، وترقص فتاة فوق منضدة السفرة أعلى ظهر السيارة، يرى (إيهاب) مظاهر الفرحة بالشارع بعد توقف السيارة، ويسرح عقلُه ثانيةً فيما يجري في البيت، حيث تغلق عمته (فادية) غرفتها، بعد نجاحها في الفرار من يد أبيه (إبراهيم)، فتزداد خَبطات يد (إبراهيم) المفلطحة على باب (فادية)، يهددها في غضب:

- الباب ينفتح، وإلا أبهدلك!

- ربنا يفتح نافوخك يا منحط.. يا حرامي!

- يا قليلة التربية، أنا أقدر أخنقك في ثانية!

تقطع زَغْرودة طويلة تصورات (إيهاب) الذهنية، حيث تفرقع (أم العروس) زغرودتها، وهي ترفع عصا المقشة، فتهز عليها جسمها برقصة بدائية، وبيدها الأخرى ترفع (أباجورة) حجرة النوم مبللة بقطرات المطر، تتباهى بها أمام الجيران الذين يطلون على الاحتفال من الشبابيك، ويعود الشباب للغناء والتصفيق:

- (عَ الكُورنيش، عَ الكورنيش، عروستنا ماشية ع الكورنيش، وعريسها معاها ع الكورنيش.. ع الكورنيش ع الكورنيش، وكازينو الشاطبي ع الكورنيش، فرَح العروسة ع الكورنيش).

يخرج (محمود)، ويقف متفرجًا بجوار (إيهاب)، تلتقط عيناه جزئية معينة من المشهد الحادث أمامه، فيكَوّر قبضة يده كإطار لصورته المتخيلة، وينظر من فتحتها بعينه اليسرى، فتظهر عليه علامة الحسرة لعدم وجود الكاميرا معه، ويواصل الشباب الصياح بالغناء مع رقص الفتيات، وترد السيدات بالتصفيق، وتشاركهم بالزغاريد.

يقوم (إيهاب) متململًا بعد أن ترك بوصة الصيد بداخل المخبز، وينصرف مودعًا صديقه بإيماءة صامتة...يخترق الزفة في طريقه، بعد ما توقف المطر تماما، يصادفه منظر (أم العروس)، وهي ترفع رأسها تجاه شباك جارتها، فتخرج لها لسانها، ثم تمسك ثدييها الضخمتين فتهزهما، وهي الإيماءة المعروفة بالمناطق الشعبية، لتغيظ أو تكيد جارتها، التي بدورها ترد عليها وسط الزعيق والطبل، بحركة بذيئة.

لم يستطع أن يفهم -من وجهة نظره- كيف ينسجم صديقه (محمود) الفنان، مع هذه البيئة والممارسات الوضيعة، مع أنه ينخرط في حفلات القنصليات الأوروبية، ويقوم بتصوير المناسبات الخاصة بهم، إلى أن أصبح الكثير منهم أصدقاءً له، ثم سأل نفسه: كيف يعود (محمود) بعدها للمخبز كل صباح يوميًا، مندمجا وغير متذمر، مثله مثل أي (فرّان) أدمن النظر في قعر حلة العجين؟!!

-"أيجوز لي أن أنسجم أنا أيضًا مع جو البيت، كما تواءم محمود مع بيئته؟!".

لا يجد إجابات مقنعة لاستفساراته، ولبث يسير في طريق مستقيم يراه من وجهته مشحونًا بالفوضى وروث التخلف، ثم توقفه معركة يتعارك فيها بعض الشباب بالمطاوي، والكراسي الطائرة، وسط كوم زبالة، فنظر لهم، وهو يرى سواد العدوانية في وجوههم البغيضة، ثم سمع تعليق أحد المتفرجين الساخطين:

- شباب عاطل، لا شغل، ولا مشغلة!

فحدثته نفسه:

-"شباب عاطل.. مثلي!!".

هوت الحقيقة على كتفيه، فشعر بالضآلة، ثم انحشر في زحام ميدان (محطة مصر).

-8-

فتح (عم كامل) الراديو (الترانزستور) في غرفة نومه، التي يبلع مساحتها المحدودة سرير نحاسي قديم، مالت أعمدته وتمزقت أنسجة غطائه العلوي، أو ما يعرف قديمًا بـ(الناموسيَّة). يخرج من غرفته ممسكًا بالراديو اللافت للنظر، ويعلقه على مقبض الباب الفاصل بين غرفة النوم وغرفة الجلوس، التي تحتوي على منضدة خشبية متينة وعريضة، بأربع سيقان مخروطة منذ زمن بمزاج نجار بارع، فوق ركنها مفرش أحمر

من القطيفة، مطوي على جانبه، فيظهر باقي سطح المنضدة تملأه التشققات والدهون التي انطبعت على الخشب، بفعل تراكم الوقت، وعدم العناية.

ينصت (عم كامل) بشيء من الاهتمام لنشرة الأخبار، بعدما سند بطرف إبهامه سماعة الأذن حتى لا تفلت، ثم يجلس على الأريكة (الكنبة العربي) ساندًا ذراعه على ركبة ساقه المنتصبة، لا يبالي بالنظر نحو الشباك المفتوح بجواره، على قاعدته أُصُص زرع أصفر ميت، وقفص فارغ يلتصق بأسلاكه بقايا ريش عصافير ممتزج الألوان، تهزه حفنة هواء محمّلة بنفحات شاطئ (الأنفوشي) القريب.. يصوب (عم كامل) بصره متجهمًا في زاوية جانبية من غرفة الجلوس، فبدت نظراته وهيئته النفسية كبحار مخضرم يرتكن على أنقاض مركبه، بعدما أهلكها الغرق! يطوي السكوت محتويات الغرفة، كأنها تشارك صاحبها ومؤنسها الوحيد عُمقَ تفكيره!!

هل تحدق عيناه العميقتان في ماض ولّى، أو في هموم يومه، أم يفلسف احتمالات مستقبل غير مؤكد؟!.. لا معنى محدد تفصح عنه سمات وجهه بعظمتي وجنتيه البارزتين، وجبهته الأمامية المرتفعة، يتوسطها خطوط متوازية، حفرتها حوادث العُمر. يتجاوب حفيف الهواء الساري على أطراف الزرع بالنافذة مع أثير (الراديو)، الذي لا تستقر موجاته الإذاعية، في حين دام الرجل على جلسته ونظرته المتحجرة، لا يحرك ساكنا، إلى أن أراد البحث –كالعادة– عن عود كبريت يشعل به سيجارته، فيفتش عنه فوق المائدة، وتحت المفرش

الأحمر في آخرها، إلى أن عثر بعد عناء على علبة كبريت فوق كومة تعلوها طبقة كثيفة من التراب، من أعداد جريدة (البلاغ) الصادرة في سنوات العشرينيات، وما بعدها. سَحبَ (عم كامل) نَفَسًا من سيجارته المشتعلة، يلازمه (الراديو) في يده، ويتوجه به نحو المطبخ، ليبدأ في إعداد غدائه المتواضع. لا يمنعه قرع قبقابه الخشبي على البلاط من سماع أجراس ترام (رأس التين)، العائد من رحلته الطويلة. ثم يتوقف ليدير مؤشر (الراديو) بين عدة محطات، حتى يستقر به على المحطة التي يأتيه منها صوت المذيعة يزهو:

– (إذاعة.. الإسْكَندَرية)..

-9-

يروح (إبراهيم) ويجيء أمام أمه كبندول الساعة المعلقة على الحائط المواجه للسرير، ترفع الأم سبابتها نحو ابنها، تطلب منه أن يهدئ من صراخه، بشيء من التحذير.

– أقطع لها لسانها القذر؟! (ينظر لأمه التي بدت تعابير عينيها توحي بغضبها المتصاعد). يا ماما أنا تعبت منها.. (تزيد الأم من غضبها، واعتراضها بحركات يديها، ونظراتها الساخطة).. قصدك إنها معذورة ومريضة؟؟

تصب (فادية) سيلًا من اللعنات، من غرفتها المفتوحة:

– يارب، يحرق قلبك يا إبراهيم يا بن زينب، قَد ما حرقتني، وبهدلتني (يضعف صوتها) .. والمصحف لو لمستني، لأجيب لك العسكري، يُجرَّك للقسم، وتترعش قُدَّامه، يا.. جربوع!

هرْوَلَ (إبراهيم) محتدًا نحو غرفتها، التي عادت لتغلق بابها مرة أخرى.

– يا مجنونة.. أنا ماسك نفسي عنك. أنا جربوع يا حقيرة؟!

تحاول (الأم) أن تسترجع ابنها بنداءاتها المتتالية من غرفتها، الذي ما إن يرجع حتى يرى (أمه) تكاد تسقط بجسدها المشلول من على حرف السرير، وقبل أن يقترب منها، يجد ذراع (إيهاب) معه، تعيد (الأم) لوضعها الطبيعي.

تسمَّر (إبراهيم) متفاجئًا بقدوم ابنه، لم ينبس بعدها ببنْت شَفة، وإن انتفخت خدوده الممتلئة من حمية الانفعال. شعر (إيهاب) وهو يومئ برأسه، مهونًا الوضع على أبيه، بأنه يؤدي واجبًا مملا، فقد سئم من لعب دور لم يختره، ويغادر الغرفة تاركًا أباه يرفع بنطلون (البيجامة)، الذي تزحلق في أثناء ثورته، ثم يقترب من (أمه) التي شدت انفعالات الغضب عضلات وجهها المستدير، فيهمس في أذنها رافعًا حاجبيه على هيئة رقم 8 ،من أثر التعجب والقلق:

– فكرك يا ماما يكون (إيهاب) سمعها لما قالت لي.. يا جربوع؟!

شرع (إيهاب) في خلع ملابسه قرفانًا، بغرفته الصغيرة الملاصقة لغرفة (فادية)، ينير غرفته ضوء خافت متقطع أقرب إلى لون البنفسج، من خلال متوالية مصابيح صغيرة جدًا فوق السرير من ابتكاره، لكن ما

إن ألقىَ جسدَه على سريره، حتى وصله صوت صرير باب غرفة (فادية) أثناء فتحه، فنهض، ليمنع نشوب خناقة أخرى، لم يعد يملك لها صبرًا، بَيْد أن (فادية) أغلقت بابها فور أن رأت (إيهاب) يقف أمامها. كان في نظرتها ذعر يماثل ذعرها يوم أن ثارت على (إبراهيم) في إحدى نوباتها العصبية، وعايرته بزوجته، التي تركته، وأخذت ابنها (إيهاب) طفلًا رضيعًا، لتفوز بعدها بزوج مرموق عاشت معه في أحد أحياء القاهرة الراقية.

لم تكن (فادية) تتوقع حينها أن يندفع (إيهاب) نحوها، يوشك أن يخنقها من شدة غضبته، فلاذت بالفرار من أمامه، وقد عزمت في نفسها ألا تذكر اسم أمه، أو سيرتها بعدها على الإطلاق، ولم يعد بينهما سبيل لأي حوار مطول، وما كان غضب (إيهاب) لفعلتها دفاعًا عن أبيه، ولا لأنها ذكرت حادثة هروب (أمه) بعد طلبها الطلاق، ليأسها من الحياة في هذا البيت، بسبب شخصية (أبيه) المهتزة كما تقول، وغير القادرة على تحمل مسئولية تربية طفل، تتمنى أمه له أجمل مناخ.. لم يغضبْ (إيهاب) — وقتذاك- من كل هذا، لكن ثورته قامت، لأن (فادية) نكأت بداخله صورة أمه التي أعادته صبيًا يافعًا لأبيه، قبل أن تسافر للخارج مع زوجها الدبلوماسي وابنتهما الصغيرة، ولم تعد تهتم بالسؤال عنه منذ مدة - إلا في المناسبات- مما أوغل في أعماقه خواءً شديد البرودة..

- شدّي رجلك يا ماما، وامسكي نفسك.

يملأ البيت صوت (إبراهيم)، وهو يحاول عمل بعض تمارين العلاج الطبيعي لأمه، ثم يسكت بعدها، ويهدأ جو البيت، في الوقت نفسه يطوّع (إيهاب) بصعوبة لفة سلك بلاستيكية جديدة حول قبضته، ولكنها لا تلين معه كأنها تعانده، فما كان إلا أن هَبّ من رقدته المسترخية، ليفُك بعزم عُقدتها، ويحاول أن يلفها مرة أخرى على الوضع السليم، تخفق فوقه ذبذبات أضواء المصابيح البنفسجية، لا تعرف غرفته الضيقة نورًا غيره، حيث يتساوى فيها الليل والنهار. بدأ يفك أزرار قميصه، بعد أن رمى لفة السلك المتشابكة على الأرض بجوار لفات أسلاك أخرى، وبعض أدوات مهنته المؤقتة، إذ أن طموحه الداخلي هو العمل بإحدى شركات (الكمبيوتر) الحديثة.

حاول أن يُريح عقلَه من وطأة نهار مزدحم، فاسترجع شكل الفتاة (صديقة محمود) وجسمها الشَبِق. لم يسبق أن رأى فتاة شعبية بهذه الجاذبية الفطرية من قبل، خاصة أنه لم يختلط ويعايش عوالم مختلفة عن بيئته المحدودة، وسُرعان ما تلاعبت بأعصابه صورة شفتيها المبللتين بطرف لسانها، فسرحت راحة يده في شعر صدره الغزير، ولم يطق جسدُه حرارةَ السرير، مما جعله يتقلَّب على جانبيه...

-10-

زجاجة المياه يندلق ثلثها في جوفه اليابس، واقفًا أمام (الثلاجة) المفتوحة بردهة المطبخ الواسعة.

- بُصْ... أبوك وقلة أدبه!

هكذا باغتته (فادية) من وراءه، لتريه بعض الالتهابات على ذراعيها، وقد بدت بجواره من خلال ضوء الثلاجة الداخلي، تحاصرها ظلال وشحوب بجانبي عينيها، وحول أنفها البارز لحد ما.

يرد (إيهاب)، لا مباليًا:

- انت غاوية شتيمة، ومشاكل.

يتركها ويستدير، ليتجه نحو الصالة، فتتبعه (فادية) بعد أن ألقت نظرة ارتياب داخل الثلاجة القديمة، قبل أن تغلق بابها.

- والله العظيم.. أبوك هجم عليّ، وحاول يكسر الباب عندي، تعال، وأحكُم بعينيك، حتى هدومي قطّعها بالمقص!!

يتوقف أمامها في أول مدخل ممر الصالة، بدا مُستفزًا من كلامها.

- أوضتك مقفولة بمفتاحك، كلامك لا يمكن يقنعني.

تفتح وتغمض عينيها الضيقتين، وترفع يدها أمام وجهها، وتحركها بارتباك، لتومئ برفضها لاتهامه.

- لا.. لا.. أبوك سرق المفتاح، وعمل نُسخة، (حَرامي) من يومه.

لا يجد (إيهاب) ما يقوله، فيجيبها:

- لا أشوف ولا أسمع.. دماغي تعبت، من شكوتك وأوهامك.

لَمَّ النهار أنوارَه، وبدأ في التلاشي، كما تراءى لإيهاب من زجاج الشباكين الطويلين بآخر الممر، في حين وقفت (عمته) لا تدري كيف تتصرف، ثم تحركت لغرفتها، بعدما ابتعد (إيهاب) عنها، وشَرَعت ترمي كلماتها في غلّ، عند مرورها بجوار غرفة (إبراهيم، والأم) بمنتصف الممر:

– إلهي يا رب، تنصفني من كل الحرامية!

برَمَت بعضًا من خصلات شعرها القصير المجعد بين إصبعيها، وهي تقترب من حجرتها، ثم أغلقت بسرعة الباب، يغالب ظنها أن (إبراهيم) سيتعقبها بعد أن سمع إهانتها، لكنه في حقيقة الأمر كان يدفن رأسه تحت الوسادة نائمًا في استرخاء، وبجواره تنام أمه، كأنهما في اليقظة والمنام.. لا يفترقان.

-11-

(دُمْ دُمْ دُمْ / تَكْ تَكْ / دُمْ دُمْ دُمْ / تَكْ تَكْ)

يصدح إيقاع أغنية المغني عمرو دياب (حبيبي يا نور العين) – الجديدة آنذاك– بالحرية والانطلاق، ينقر (محمود) على (كلاكس) سيارته بنفس إحساس موسيقى الأغنية، في حين يطأطئ (إيهاب) رأسه عند مسجل السيارة، ليضبط درجات الصوت، ويتأكد من دقة ونقاء السماعات... تغزو السيارة الصغيرة مدخل نفق، ثم تركب كوبري، فتلف تجاه ترعة المحمودية في طريق خال، مما يغري (محمود) ليطير بسيارته كالبرق، يكاد يفرد للسيارة أجنحة، مردداً كلمات

الأغنية بصوت منشرح، مع أنه لا يحب كثيرًا المغني (عمرو دياب)، لكنه عزَم أن ينخلع من أسْر العمل، بإطلاق صوتِه للغناء، ولو بأي كلام. ثم يفرمل السيارة فرملة شديدة، ولا يفهم (إيهاب) سر هذه الوقفة المفاجئة، فيرد (محمود) على سؤاله بإشارة بركن عينه، نحو مرآة السيارة الجانبية، فيجد (صديقة محمود) التي زارته بالمخبز، ترتدي نظارة شمس رخيصة، ويترجرج نهداها من وراء (بلوزة) من الكتان الخفيف، فتفتح الباب بحركة سريعة، لتنزلق في حذر داخل السيارة.

- دُوس بسرعة يا حُودَة.. منطقة أولاد عمتي هنا.

فيشاكسها (محمود) قائلًا:

- أدُوس بعد ما أبُوس!

خلعت نظارتها، بعد ما راح توجسها، ثم داعبت (محمود):

- ظريف يا "تُوتي"!!

ثم تمد ذراعيها، لتسندهما على مسندي الكرسيين الأماميين، فتقترب بوجهها نحو (محمود)، قائلة:

- قشطة عليك يا حُودَة إنك لحقتني قبل ميعاد الشغل.

يسألها ناظرًا لها من المرآة الداخلية:

- أنا أقدر أنسَى ميعادك يا جميل؟ لكن أجازتك يوم الجمعة كل أسبوع؟

– الجمعة أو الأربعاء.. عادي يعني، كله حسب مزاج مدير المصنع .

ينظر (محمود) نحو (بلُوزَتها)، فيستفهم:

– والدخول للمصنع معقول، وسط البشر ب... (يشير لفتحة البلوزة)؟

ترفع (الفتاة) شنطتها العريضة، بعد أن أشعلت سيجارة.

– "الجاكتة" جوه، أحُط نفسي فيها، قبل ما أدخل البوابة.

تُخرج من فمها المزموم دخانًا صاعدًا لأعلى، وتنظر حولها في استمتاع بلحظات فراغها على سجيتها، قبل بَدء معاناتها اليومية من العمل الشاق، وكذلك من تحرشات مدير المصنع داخل مكتبه، وإن اضطرت أن تجاريه أحيانًا حتى لا تخسر الوظيفة، وبعد عدة ثوان تشرَّبت فيها أعصابها بدخان السيجارة، سألت (محمود) بنبرة مشتاقة:

– نروح على (المنتزه) يا حُودَة؟

ينظر (محمود) وراءه، نحو وجهها القريب جدًّا من شفتيه،قائلاً:

– لا.. (المنتزه) يوم الجمعة "مَلطُوطَة"، نطلع على الصحراوي، ونفكر بعدها.

لحظت (الفتاة) هدوء (إيهاب)، الذي يلحظ غمزتها له، من المرآة الجانبية..

- صاحبك سكوته مثير!!

فرقعت ضحكة، فلم يعرف (إيهاب) كيف يرد على تعليقها، ولم يدم تفكيره طويلا، حيث ملأت حواسه رائحة (روج) شفايفها بلونه النبيذي الصارخ، ثم فاجأته بحركة يدها، تلمس شَعْره الناعم، فكر بسرعة فيما سيكون تصرفه في هذه الحالة، ولكن لم يطل توقعه الساذج، بعدما مدّت يدها وراء رأسه، لترمي بقية السيجارة من الشباك، ثم أخرجت من شنطتها شريط (كاسيت).

- نسمع شريط هدى عمار الجديد؟.. فظيع يا حُودة!

تندفع نغمات (الساكسفون، والترومبيت) بنغمات إيقاعية قصيرة، وتصفيق راقص، فتصفّق (الفتاة) مع زَيْطة الأغنية، وتتجه بجذعها المتمايل للأمام، وهي تغني مع المغنية:

- (بَاغِير عَليك.. وأخافْ عليك.. أنا بَس مابَاقُولْشِي)

هاجت عروق (إيهاب) وهو يرى من المرآة أردافها المدملجتين تتلاعب مع ذروة الموسيقى، تملكته رغبة محمومة لو جذبها من شعرها السائب ليجلسها على حجريه، ثم يذيق جسدها كل أنواع القُبلات. تستمر (الفتاة) في الغناء، وتدعو (إيهاب) للتصفيق، فيتجاوب بعد تردد قصير، ويعمل (محمود) حركات بوجهه تثير الضحك، وتندمج (الفتاة)، وتشهق، مواصلة الغناء:

- (آه.. آه.. باغير عليك، وأخاف عليك..)

تدبدب عجلات السيارة فوق مطبات الطريق، في حين تَندَاح من شبابيك السيارة المفتوحة أصوات التصفيق الحامي، والغناء والضحك، تتدافع في أعينهم -مع انطلاق السيارة- أعواد الهيش المغروسة على جانب الطريق المؤدي لنهاية حدود الإسكندرية، وفور مرور سيارة فارهة الطول بجوار سيارة (محمود)، تهب (الفتاة- صديقة محمود) عندما تلمح من بداخلها، وتزعق لمحمود راجية منه ملاحقتها، ثم تخرج رأسها من الشباك، وتهلل لصديقتها بالسيارة الأخرى:

- وحياة ديني، انت على بالي، يا بنت القارحة!

تنتبه (الفتاة الأخرى) فتنُط من كرسيها، وتخرج كل رأسها وصدرها، صائحة:

- أخيرا شُفتك يا نَصَّابة!!

ترفع الفتاتان أذرعتهما، ليسلما بعضهما على بعض.. تحُول بينهما شدة تيارات الهواء مع اندفاع السيارتين، وينتبه (محمود) إلى هيئة سائق السيارة الفارهة الطاعن في السن، ببذلته الخريفية التقليدية، ورأسه الأصلع، ووجهه الخالي من أي ملامح إلا شارب أشبه بطابع الدمغة المشرشر، تحت أرنبة أنفه الأفطس.

- شغّالة، ولَّا عطلانة؟

- أنا سكرتيرة المدير في مصنع (أنطونيا) للمكرونة، لكن انت واضح إنك انحرفتِ (تقولها وهي تشير لوجود هذا الرجل العجوز).

- كُلُّه في (السِيكِي مِيكي)، وانت هارْشَه النظام.

تطير الكلمات بينهما مفلوتة مقهقهة، يراقب (إيهاب) ما يدور، ولا يعرف كيف تورط في قلب هذه الدائرة المشبوهة، فضلاً أنها تتعارض تمامًا مع تعليمات (أمه) البروتوكولية التي تربى عليها بصرامة، خاصة آداب الحديث المهذب، والقواعد الديبلوماسية وقت تناول الأكل بالشوكة والسكين، وفي اختيار نوعية أصدقائه بحي (مصر الجديدة)... بانَت على شفتيه ابتسامة خافتة، عندما تخيل لو شاهدته (أمه) الآن، في حضرة هاتين الفتاتين!!

يُخفف (محمود) سرعة سيارته ليحاذي السيارة الأخرى، في حين تحوط (صديقة محمود) فمها بيديها، كي يصل صوتها واضحاً لصديقتها، فتتهكم على (العجوز) صاحب السيارة :

- بابا جدو شكله مخيف، بتكشيرة أمه.

-واضح إنه قرر يغتصبني!!

تضحك الفتاتان، وهما تهزان رأسيها، ويستغرقان في نوبة من حُمى التهريج العاري، يشترك (محمود) معهما بعد أن لحظ كبرياء الرجل المصطنع، كما لو كان ذاهبًا للتفتيش على وحدة عسكرية، لا ليرتمي بجسده الممصوص في أحضان فتاة مجربة، في عمر حفيدته.

يسأل (محمود) الفتاة في السيارة الأخرى، بلهجة من يريد الدخول في قافية للاستهزاء:

- الخالق الناطق شبه...!!

تنظر له (الفتاة الأخرى) مرحبة، وتُمهد له القافية بميوعة:

- "اشْمعنى"؟!

- البقسماط المحروق!!

ضحكت بشدة، وهي تخبط على صاج سيارة (العجوز) الذي يتعمد ألا ينظر لهم، وإن لم يصل له كل الكلام لثقل تيارات الهواء الحائلة بينه وبين سيارة (محمود)، في أثناء جريهما على الطريق الفاضي، وتحذرها (صديقة محمود) بصوت متهتك من شارب العجوز:

- خَلّ بالك منه لما يبُوسك، "شَنَب" أمه فيه سُم قاتل.

- أنا حذرته يا أختي، قلت له قبل ما تلمسني تشوف لك حل له... يا مقرف..

- ساعتها، يحلقه.

- أو يزَحلقه.

- يا رب، يبْلَعه.

يرد (محمود):

- المهم يُشْطُفه!!

يطير شعر (الفتاة الأخرى) مع خبطات الهواء المتلاحقة، ولا تكترث بمحاولات الرجل العجوز البائسة لإسكاتها، بل اشتد هيجانها، عندما نظرت لمحمود، قائلة:

- لعْلّمَك هو مثقف جدًا، وخريج محلات (عمر أفندي).

- قسم الملابس الوسخة!

تصفق الفتاتان، بعد أن علت هيستريا الحالة المزاجية، وتلوح (الفتاة الأخرى) بذراعها في الهواء، فيطلق (محمود) صرخة طويلة ضاحكة:

- أُوُوُوه!

- صاحبك دمه شربات يا بنت المكبوتة!

ترد (صديقة محمود) عليها، وهي لا تزال تحرك أردافها، مع إيقاعات الأغنية:

- صاحبي، وجارنا، ومجرم على كيفك، وعنده فرن أفرنجي كبير.

تنظر (الفتاة الأخرى) لمحمود..

- ويا ترى رغيفك طَري ولّا ناشف؟

تصرخ (صاحبة محمود) بالصوت الحيَّاني:

- سُخن، ويلسعك يا بنت الباردة!!

تحرك (صديقتها) رأسها في نشوة، كأنها في حَلْقة ذكْر!

- أموت أنا..!!

جذبها (العجوز) لداخل سيارته بغلظة، وابتعد مُسرعاً. ثم رفع (إيهاب) صوت (المسجل- الكاسيت)، بناءً على طلب (صديقة محمود) التي لاتزال تتكسّر بجسدها، حتى انتهت الأغنية...

بعدها بقليل أوقف (محمود) سيارتَه، وعليه أمارات التجهم، وهو يتقدم نحو سيارة محطمة عند (الملاحات)، مدفونة داخل أعواد البوص والهيش، وقد تفتت زجاجها، وتهشم جزؤها الأمامي، تزْنّ حولها جماعات من الهاموش والناموس، فيلتقط عدة صور لجوانب السيارة، ولبقع الدم الكثيرة بداخلها.. في نفس الأثناء رفع (إيهاب) بصره من مكانه، نحو مداخن مصانع الأسمنت وغيرها، المترامية على بعد، تنشر دخانها بغزارة، إلى أن وضع (محمود) (الكاميرا) في شنطته، ليبدأ طريق العودة، وتلم صديقته شعرها، تسحب شريط الأغاني من يده دون تعليق، ثم ترتدي (الجاكت)، وهي تأمل منه أن يسرع بالرجوع إلى مصنعها، في وسط منطقة (كوم الناضورة) الأثرية. ران الصمتُ عليهم بلا افتعال، وبقيت نظرات (إيهاب) السارحة تحوم لأعلى، نحو كتل الدخان التي تبدو كوحش خرافي عُلوي، يتشعب، ويقترب نحو مدخل المدينة.

-12-

– ربنا يكون في عونك يا فادية، لو قرب منك اصرخي، وكلنا نلحقك "يا دودي".

تسعد (فادية) بتدليل (موظفة الشركة) التي تقف أمام المصعد بين شقة (فادية)، ومكتب الشركة الإداري في الشقة المقابلة، التي استولت

عليها الشركة بطريقة ملتوية، من صاحبها المستأجر البلجيكي بعد سفره.

صارت (الشقة المقابلة) مكتبًا قذرًا مكفهرًا، يطفح بكَمْ من البشر، ويستهلك فيه الموظفون وقتهم اليومي في النزول والصعود داخل مصعد العمارة، الذي كانت حركته -في الماضي- بحساب دقيق، ويحرسه (عم جعفر) البوّاب الأمين، والحريص على إراحة (المصعد) وصيانته. فالمصعد هو روح العمارة، يتعرف السكان بداخل العمارة على حركة صعوده أو هبوطه من صوت صَلّصَلة أبوابه الجَرّارة، عندما تُغلق أو تُفتح، وكذلك عندما يتوقف يصدر صوتا نحاسيًا غويطا يرتطم بفراغ دهاليز السلالم الرخامية البيضاء، فيشيع جوًّا من الطمأنينة، حيث كان يستبشر به السكان خاصة في أيام العطلة، لترقب وصول زائر يحمل جديدًا، أو عودة غائب طال انتظاره، وكم لعبت (فادية) مع أخيها (إبراهيم) أطفالا، داخل هذا المصعد الواسع المريح، لما كانا يأتيان مع والدتهما في زيارتها المستديمة لصديقتها الإيطالية المقربة (أُوندا- Onda)، في الشقة الفخمة نفسها، التي سكنوها بعد هجرتها بسنوات غير قليلة، وفي هذا (المصعد) الحَمُول، كان يداخلهما شعور لطيف حانٍ مع حركته المعتدلة المتواصلة، حيث تظهر لهما هيبة السلالم الدائرية الملتفة حول المصعد كالحَلزون، ويبدأ المصعد في الارتفاع بهما كأنهما في أول لعبة سباق، وتقل تدريجيًا سطوة شخصية السلالم الرخامية الناصعة من تحتهما، وتنتابهما مشاعر السُمو، كما لو أنهما على مَحَفّة أتوماتيكية، فتمر عيونهما على أبواب الشقق المغلقة المصلوبة على الجدران، فخُيل (لإبراهيم) -

وقتئذ- تشَوُّف الأبواب بطلائها البراق، كي تنخلع من قيودها، فتهنأ معهما بإحساس الحركة الحرة داخل المصعد (طالع/ نازل)، تكاد تنطق لهما في حرقة بريئة..

-(يا بَخْتكما!!)

تقفز ضحكات الطفلة (فادية)، ويشاكسها أخوها بحب، وهما يتسابقان للضغط على الزر البُنيّ، لينالا دورة أو نزهة جديدة، فلا يخذلهما المصعد، وينبسط لهما في رحلة الصعود الإحساس بسهولة الحياة، لا سيما عندما يخترقان الضياء السابح في أركان العمارة، الذي يتسرب لهما عبر الزجاج الشفاف المحيط بجوانب المصعد الأربعة، تزينه بعض الرسوم الملونة. ويظل (المصعد- الأسانسير) صابرًا على شقاوتهما، حتى يبلغ به التعب مداه، فيتوقف بهما دون إنذار، ويتعلق الولد والبنت داخله بين القمة وتجويف القاع المرعب، ولكنهما تعوَّدا على حدوث ذلك المطب، فما أبسط أن ينادِيا معًا بصوت يكتم الضحك:

- يا عم جعفر.. اتحبسنا يا عم جعفر.. الحقنا لو سمحت.

ويظهر لهما (عم جعفر) بسرعة، فيفرد لهما ساعديه الغليظتين، ليخرجهما مثل قردين صغيرين محبوسين في قفص!

وأمام المصعد نفسه الذي لم يتغير تغيرا كبيرًا، تسحب (فادية) ذراع صديقتها (الموظفة) لداخل المنزل، وهي تزيد، وتعيد في عبارات الترحيب بها، إذ وجدت منها العون النفسي لمجرد أنها جاملتها،

ووعدتها بأنها ستقف معها ضد (أخيها الحرامي) كما تلقبه (فادية) دائمًا، تستغل (الموظفة) كرم (فادية) المجاني بخبث، فتدعو ثلاثة من زملائها في مكتب الشركة المقابل، للدخول لبهو صالة الشقة، والجلوس معها، لا تجد (فادية) غضاضة في استقبالهم، فيجلسون، وهم يتغامزون من ورائها..ثم تفرط (فادية) في كرم الضيافة، فتعد لهم إفطارًا مع الشاي، وتعلو أصواتهم، وهم يشربون ويأكلون، وتفتح (الموظفة) التليفزيون، كأنها قررت تحويل ردهة الشقة الفسيحة إلى (كافيتريا). تسعد (فادية) عندما تمطرها (الموظفة) مدحًا في جمالها وحلاوتها، في حين لا يجد (الموظفون الثلاثة) حرجًا، فتَبْدر منهم عبارات سُوقية، وأسئلة شديدة الخصوصية، يسألونها لفادية، بعدما وجدوا لسانها لا يكف عن الإدلاء بأخص الأسرار.

شعر (إبراهيم) متأخرًا بهذه المهزلة، فيدخل عليهم قادمًا من الممر الداخلي يرفع ذراعه لهم، ويحركها نحو باب الخروج، كأنه يكنسهم لخارج باب الشقة صائحًا:

– إلى مكاتبكم لو سمحتم، شقتنا لا هي قهوة، ولا مأوى لقلة أدبكم!

تتكعبل أقدامهم في عجل تجاه الباب، وتسحب (فادية) نفسها تجاه غرفتها، وقبل أن يلف (إبراهيم) وراءها، لتهديدها، يجد أمام شُراعة باب الشقة المفتوحة وجه (د. منى)، التي تقف في انتظار أن يسمح لها بالدخول.

يرتبك (إبراهيم) من سوء منظره ببنطلون (البيجامة) الواسع وفانلته الداخلية، لا يدري ماذا يفعل بعدما وقع في حيْص بيْص، فتدخل (د. منى) بعد تحية خاطفة، تتحاشى النظر له، وتسلك في جدية طريقها بمفردها بوجهها القمحي الذي ينبئ بأنها في منتصف الأربعين من العمر. وراءها يسير (إبراهيم)، وهو يتأمل ألوان ملابسها الهادئة المنسجمة، ولمسة الذوق التي لا تفارق شخصيتها..

تستقبل (الأم) زيارة (منى) بترحاب، خصوصاً أنها لم تزرهم منذ وقت غير قصير، مع أنها تسكن في الشقة التي تعلوهم مباشرة، وتترك (الأم) عن طواعية لها يديها، لتكشف على حالتها الصحية العامة، فتوصيها (منى) بصوت ودود، بعدم إهمال تدريبات العلاج الطبيعي، لتحسم عودة أطراف جسدها للحركة الطبيعية في أقل وقت ممكن، ثم تصوب نظرة حاسمة، نحو (إبراهيم) قائلة:

- رُبع ساعة على الأقل يا (إبراهيم)، تقضيها (تانت زينب) في المشي بالصالة كل يوم.. ضروري جدًا.

يحرك (إبراهيم) رأسه لجارة الطفولة، مبالغًا في إبداء طاعته لأوامرها الطبية:

- حاضر يا منى، مع إنها -نفسيًا- محتاجة تشوفك، ولو مرة في الأسبوع.

قالها ليعبر بها عن أمنيته هو لرؤيتها، تهمهم (الأم) لتطمئن على حال منى بعد طلاقها الذي تم بعد شد وجذب، فتدنو (منى) نحوها:

– مشاكل الطلاق انتهت أخيرًا والحمد لله، أنا ارتحت ومتفرغة لإنهاء الدكتوراه، بالرغم من التأخير. دَعوَاتك يا تانت.

يعُم الغرفة جو مريح مع وجود (منى) بشخصيتها المتزنة، ومراجعتها الدقيقة لنظام الأدوية، والعلاج الذي تتلقاه الأم، ولا تمر على (إبراهيم) ملاحظة تظاهر (منى) بالابتسام، كي تداري به حزنها، فيؤجج وجدانه رغبته في الاقتراب من عالمها واحتوائه، لكن سرعان ما تُبدد (فادية) بدخولها المفاجئ كل تصوراته، وتُعَبر بشفتيها الملويتين عن عدم استلطافها لمنى، وهي تؤدي لها التحية في فتور. ثم اقتربت لتأخذَ (التليفون) الرمادي، بَيْد أن يد (إبراهيم) قبضت على أصابعها، وشَدّ ذراعها لخارج الغرفة:

– التليفون ممنوع عنك.. إرجعي (يشير بحزم نحو غرفتها).

اضطرت (فادية) للانصياع، فتركت التليفون لقبضة يده، وولت عائده لغرفتها، وهي على وشك الصياح. وفي المقابل أحس (إبراهيم) بشيء من التيه والإعجاب بنفسه، لقدرته النافذة في منعها من نشر أسرار البيت للغير، كما فعلت من قبل مرارًا في مكالماتها، وإن كان ما أسعده أكثر هو مرور الموقف بسلام، فلم تتطاول عليه أمام (منى)، التي يتوجه إليها قائلًا لها، وهو ينفخ صدره بثقة:

– نشم شاي مع بعض يا منى؟

لحَظَ استغراب (أمه)، فانتبه لزلّة لسانه، وقبل أن يصحح مرادَه، قامت (منى) مودعة (الأم) بمحبة، فصحبها (إبراهيم) حتى باب

الشقة، وقد استصرخت ذاكرته بيتًا من الشعر العربي القديم، إذ لم يجدْ أدق منه في التعبير عما يخالجه، ولو ملكَ الأمر بيده، لأطلق لصوته العنان، ويصرخ بكلماته، أو ينقشها على الحيطان.. وما إن قاربت (منى) على الاختفاء، يحملها (المصعد) التليد إلى أعلى، حتى قادته قدماه إلى غرفته، فيَهوِي بجوار أمه على السرير، معبرًا لها ببحة الصوت المفتون:

- ألمتْ فحيَّتْ ثم قامَتْ فوَدَّعت

فلما توَّلتْ كادَتِ النفْسُ تزْهَقُ...

-13-

العزلة دواء لداء بعض النفوس.. هذا هو ما يعتقده ويمارسه (عم كامل)، إذ يخيط أنسجة الوحدة والانطواء حول جلده كل ليلة، جالسًا جلسته المعتادة الثابتة بجوار الشباك ليلا. يَفرُ إلى صفحات جريدة (البلاغ)، ويحاول أن يغوص في القراءة، لكن يغلبه النعاس، مما جعله لا يفطن لدق جرس الباب المتوالي، إلا بعد وقت غير قليل، وما إن فتح الباب حتى لقيَ القلقَ بادياً على وجه (إيهاب)، فتعلل له باستسلامه كثيرًا لسطوة النوم - دون مبرر- هذه الأيام.

يجول (إيهاب) بنظراته في أنحاء غرفة الجلوس بعد اطمئنانه على حالة (عم أبيه)، الذي لم يزره منذ أيام طويلة. يثير فضوله جهاز الراديو (الأَنتيكا)، فيدير زر التشغيل، فتصدر تكَّة خافتة، يغلقه، ثم يفتحه مرة أخرى، كأنما يتفحص مدى سلامته بحكم مهنته... ينتبه

بعدها لطبق البلاستيك الممتلئ بحبات (أم الخلول) الطازجة، يقربه (عم كامل) لمتناول يديه. جلس (إيهاب) على الكرسي الخشبي العادي بعد ما أداره بعكس وضع الجلوس، وعلَّق ذراعيه على مسنده. وداخل غطاء القُلة المقلوب يتقاطر رماد سيجارة (عم كامل) أثناء إنصاته لسؤال (إيهاب):

- سافرت إفريقيا يا عم كامل، واشتريت...؟

(يشير لتمثال غزالة رشيقة من العاج موضوع على دولاب الأواني الفضية في الواجهة).

- من السودان.. أنا قعدت فيها سنتين و4 شهور، كنت في (أم درمان)، مدرس زراعة "قَنْزوح" وكان مديري (أبو لمعه)، وزميلي مدرس الألعاب (أمين الهنيدي) الممثلين...

يتذكر أنه قد حكى لإيهاب عن تفصيلات رحلته إلى السودان في وقت سابق، فيمسك لسانه، ثم يشير له من مكان جلوسه بجوار الشباك، نحو طبق (أم الخُلُول)، قائلًا بنبرات هادئة:

- نفسي راحت عليه، فاشتريت شوية من سوق (الحَقانيَّة)، لكن شبعت، اتفضل.. كُل مَرَّة أعزم عليك؟!

يومئ (إيهاب) برأسه شاكرًا، دون أن يتحرك. وجعل يخلي لأجواء شعوره تمام الحرية في التقلب داخل هذا الكهف كما يسميه، فلا يدري سر السلام والاستقرار النفسي، الذي ينتابه في جلسته مع (عم كامل)، سواء تناقلت بينهما الكلمات أم صام اللسان، أراد أن

تُنسيه زيارته شوشرة المشوار الطائش الذي قادته إليه سيارة (محمود)، بجوار ملّاحَات الطريق الصحراوي، أتىَ ليغسل هوس النهار برصانة الليل، ويتزود من حكمة (عم كامل)، الذي يأتي صوته مباغتًا:

– سمعت عن التليفون الجديد المنتشر في أمريكا وأوروبا؟

– من مدة يا عم كامل، تليفون جوال وحجمه قد الكف تتكلم به في أي مكان، ومحتمل جدًا تستورده مصر في شهور قليلة، أهم حاجة إننا نجَارِي العالم المتطور!!

يمرر (عم كامل) ظهر راحته أسفل ذقنه، قائلًا:

– لَمّا نشوف...

يشرئب (إيهاب) برأسه تجاه الشباك البعيد، بعد أن سمع طرطشة عجلات السيارات، كأنما تمر فوق بحر من المياه، فيجيبه (عم كامل) قبل أن يبادر هو بالسؤال:

– ماسورة انفجرت.. طول الوقت نسمع عن انهيار عمارات قديمة، ومواسير كهرباء أو مجاري طافحة!

– المجاري رمز شوارع (العجمي)!

نظر (عم كامل) أسفل عينيه كأنه يكلم نفسه:

– قربنا على دخول قرن جديد، وإسكندرية أساسها منهار، مع شوية مطر تنزل، تحس أن إسكندرية تحولت لقرية، كل شوارعها طين، وتتعطل الدنيا!!

- لكن فيه عمارات، وأبراج جديدة طالعة، ومعمول حسابها.

يلتفت نحو (إيهاب) بنظرة ثابتة، ويضع قبضة يده على ركبته قائلًا:

- مهما كان، الاستهلاك مع مرور الوقت يهلك أي بنية، والناس عددها كل يوم يزيد عن العادي، ونحْر الموج سارح في الشَط.

زفر في توتر، وهو يرمي نظرة عادية نحو قفص العصافير الفارغ، وبنفس الصوت الخافت يكمل:

- جدّتك حالتها مستقرة؟

- لا تقدم ولا تأخر، التحسن بطيء، وبابا ملازمها، من أول ما ساب الشُغل، وسَوَّى فلوسه على المعاش المبكر، قرر يفرغ وقته لكتابة القصص والشعر، فيشطب، ويقطع، ويزعق، ويتفرج على الكرة، وينام!

لم ينه (إيهاب) رده حتى توجس أن يكون استفسار (عم كامل) التالي عن أحواله هو، التي لم تكن تبتعد عن نفس حالة أبيه في خلوها من أي إنجاز ما، لم يرد (إيهاب) أن يفرغ له -الآن- كل ما في جعبته من مخاوف، رغم أنه طالما ما كشف عما بداخله عنده، لكنه أحب أن يريح عقله بهذه الزيارة من أي موضوع يزعجه.

وبعينيه الثاقبتين يفاجئه (عم كامل) بسؤال آخر:

- وفادية؟!

- لا جديد..

لم يجد (إيهاب) ما يقوله، فانكب في تيار السكوت المتراوح بينهما. ضوء الغرفة شحيح، تشح معه الرغبة في هراء الكلام، يتأمل بعينيه المرهقتين تمثال الغزالة القديم.. لا تزال رشاقتها تثير الإعجاب، ثم يدس رأسه بين ذراعيه، يأخذ قسطًا من الغياب، يلتم كل شيء عنده في صُرة من اللاشيء، كما لو أنه يعود جنينًا في ضيافة الرحم. على جانب مقابل تلمع أعمدة السرير المائلة، والصدئة، في غرفة النوم المظلمة أمام عيني (عم كامل)، فيشيح بوجهه في نفور، يخشى اللقاء المتلامس، يهاب الوقوع في شَرك النهاية، فلم يمس جسده السرير منذ أمد، وداوم الرقاد فوق أريكته بجوار الشباك، تحت الزرع الميت.

يطول ثبات (إيهاب) فوق كرسيه مغمض العينين، يسافر منقادًا إلى متاهات خريطة المستقبل، لا يعرف لها قاموسًا يقدر على فك رموزها، في حين يجلس (عم كامل) مرتفقا ألم الفَهْم، الاثنان يجلسان متقابلين.. رجل عجوز يواجه عجوزًا شابًا، تحتهما صفحات جريدة (البلاغ) القديمة تستلقي على الأرض، تَتطلع العناوين المنسية إلى سراج النور، ثم ترتفع على مهل عندما يحمل (عم كامل) الجريدة فيطويها، ويضعها فوق المفرش الأحمر، ذلك اللون الذي تتفتح عينا (إيهاب) عليه بعد فترة من الغمض، رافعًا رأسه ببطء من بين ذراعيه المضمومتين، فيصفعه كُنه اللون الساخن. وينتبه لحقيقة الوقت، ويستعيد الوعي تمام يقظته، ثم يسأل (عم كامل):

- ممكن.. تغلط وتزورنا مرة واحدة؟

يرد (عم كامل) وهو يدعك ترقوته المجهدة:

- يا مسهل.. عموما لما تحب تلاقيني، كلمني من تليفون الجيران، فتضمن وجودي، أو تعرف مكاني قبلها.

لم يجد (إيهاب) في وقفته قبل الانصراف ما يقوله، ولكن سحب حبة (أُم الخُلُول) من الطبق، وتذوق لذعتها، وقبل أن يفتح الباب للخروج ناداه (عم كامل) من مكان جلسته بصوت محايد:

- إيهاب..؟

- أؤمر يا (عم كامل)؟

ينحني (إيهاب)، ليعيد بلاطة مخلوعة لوضعها الأصلي، على عتبة الباب، ويصله صوت (عم كامل)، بنبرات يعتريها مسحة من الحنو:

- فادية ظروفها صعبة.. اصبروا عليها.

-14-

توقفت أمامه، وهو يفتح باب غرفته للدخول، ثم وضعت يدها على مقبض الباب في إصرار، وهي تقول له بصيغة الرجاء:

- غَيَّر لي اللمبة، قبل ما تنام..

يتردد (إيهاب) قليلا، ولكنه دون أن يقول حرفًا، يأخذ من غرفته لمبة (فلورسنت) جديدة، من دولابه المملوء بالمعدات والأدوات

الكهربائية، تسرع (فادية) لتفتح له باب غرفتها التي احتلها الظلام ، فيقف على سريرها، وما إن بدأ في التركيب حتى تطايرت من لسانها شرارة الكلمات:

- أبوك هو السبب.. إلهي يا رب تحرمه نور عينيه!

لم يسع (إيهاب) وسط استمرار دعواتها المستفزة، وسواد الضغينة البادي في وجهها المعتم من جانبيه، إلا أن يرمي لها اللمبة، ويتحرك خارجا من غرفتها، وهو يقسم لنفسه بأنه لن يلين لأي طلب منها أيًا كان، ولكنها راحت تطارده لتسترضيه، ثم تحلف له بأنها لن تتكلم بما لا يعجبه.. لا يبال بوعودها، فيدخل حجرته، لكنها تظل تتعقبه، ترجوه:

- الكوابيس ممكن تخنقني لو نمت من غير نور. أنا مرعوبة يا إيهاب!

تتباطأ أقدامه عائدًا، يقوم بما أرادت منه، فينبعث النور في غرفتها، ويرى تحت عينيه ورق (كوتشينة)، وفنجان قهوة على طاولة خشبية. ويظل واقفًا على السرير ليعطيها اللمبة القديمة، فتتناولها منه في حذر، ثم تضعها تحت سريرها، وهي تقول له

- والله أنا منشَكحة إنك هنا عندي.. صدق المثل (الوَنس دفَا).

يرد (إيهاب)، وهو لا يزال واقفا فوق سريرها:

- يعني أنفع "نوَّاسة"؟

لم يقصد (إيهاب) أن يتلطف معها، أو هكذا فهمتها (عمته) وقبل أن يستدرج الأمر، ويعود لحديثه، غلبته ضحكة (فادية) قائلة

- " نوَّاسه؟! دمك خفيف يا إيهاب، قل لي يا سيدي تتعشى بيض ببسطرمة، ولا أعمل لك طبق فول بالطماطم، مع فلفل أخضر؟

ينظر (إيهاب) لها من فوق السرير..

- بيض أو فول.. يا سلام على الكرم!!

ينزل من السرير، رافضًا دعوتها لطعام العشاء..

- لا.. لا، نتعشى مع بعض، وكله عندي موجود، المهم إنك تفتح نفسي وبَسْ.

ينظر لها بطرف عينيه محذرًا..

- أفتحها من هنا، وبعدها تمطَّري على دماغي.. شتيمة!!

- والنبي أبدًا، أحلف لك على المصحف، والله والله، من غير شتيمة واحدة.

يجلس على حافة السرير المقابل لسريرها، وقد وافق بعد إلحاحها، بعد أن تذكر طلب (عم كامل)، وأيضًا لأن برودة الجو أشعرته بالجوع.

- أعمل لك الفول مع البيض؟ ولا بيض مع بسطرمة، في طبق لوحده؟

يلتفت (إيهاب) لتحويرات الزخارف النباتية على السجادة التي تفترش الأرض تحته قائلًا:

- بيض وبسطرمة..

يتدفق الدم في وجهها، كأنما صار الضوء في حجرتها ضوأين، فتروح وتجيء، لا تصدق أنها ستأكل الليلة مع شريك لا تجد غضاضة فيه، تأخذ فوطة المطبخ بمربعاتها الخضراء، ثم قبل أن تتركه في غرفتها تسأله:

- وأعمل لك الشاي، لأجل تهضم الأكل، ويحلوّ الكلام..؟

تتذكر أن تسحب من تحت السرير برطمان الشاي والسكر، ثم تنسى فوطة المطبخ، فترجع مرة ثانية، لتأخذها وتضعها على كتفها، وتهدي نظرة لإيهاب مُهَللة..

- نوَّرت يا إيهاب.. والمصحف نوّرت.

لم تكن (فادية) تدري أن أخاها (إبراهيم) أسرع الخطى قبل خروجها، بعد أن تلصص على ما يدور داخل غرفتها، خالعًا (الشبْشب)، حتى لا ينكشف أمره، وتسلل في خفة لغرفته عند أمه، يرفع لها حاجبيه، ويهمس لها:

- (إيهاب) عندها، وراحت تعمل له الأكل.. تخيلي يا ماما؟!!

ثم يلمح (إبراهيم) مرور (أخته) أثناء توجهها للمطبخ، بأول حدود الشقة، فيصرخ بلهجة تمثيلية نحو أمه:

– يا ماما ارفعي كتفك لفوق، كفاية كسل ومرض؟!

تغضب (الأم) من انفعالات ابنها التي لا محل لها، فتشد الغطاء متكدرة، وتتهيأ للنوم، في حين يتناول (إبراهيم) ديوان شعر، ويمرر نظره دون تَروِّي على بعض أبياته، ثم يترك الديوان، في أثناء سماعه أصوات حركة أواني وأدوات المطبخ من بعيد، إذ تنهمك (فادية) في إعداد الطعام. يعاود النظر لأمه التي غطت كل وجهها، فيرفع الغطاء ببطء من على وجهها ليصالحها، لكن لا يصدر منها أي بادرة للتجاوب، يكلمها فلا ترد، جرَّب أن يضحكها بطريقته، فانفلتت من داخلها ابتسامة، وهي لا تزال مغمضة العينين، فيعلو صوته، وهو يمسح على خدها الناعم كأنها طفلته..

– يا زوزو يا عَكرُوتَة!!

-15-

صور فوتوغرافية لشوارع ومباني الإسكندرية يتصفحها بإمعان (بيير) المدير المسئول عن (المركز الثقافي) الجديد، الذي يتم تجهيزه ليكون أهم المنافذ الثقافية. يعبر (بيير) عن إعجابه برؤية وعين (محمود) صاحب هذه الصور، متحدثًا بلغة عربية تشبه الفصحى، ويوافق على أن تكون هذه الصور نواة لمعرض تصوير فوتوغرافي بعد افتتاح المركز. يقف (محمود) بجواره، حولهما بعض الشباب الصغير السن، والمبهور بكل ما يقوله (بيير) من ملاحظات فنية حول الصور،

وتكويناتها والعدسات المستخدمة، والفرق بين التصوير الفوتوغرافي، والتصوير بكاميرات الديجيتال التي بدأت في الانتشار بمصر مؤخرًا..

يرد (محمود) على ملاحظاته بثقة وندية، بل يصحح له بعض المعلومات التقنية، وقبل أن يتحول (بيير) للحديث في موضوع آخر، يلفت (محمود) نظره لوجود (إيهاب)، ويخبره أنه سيكون كفؤًا، لتولي تصميم إضاءة قاعة المعرض، لخبرته في أعمال الكهرباء، وما يخص الإلكترونيات.

لم يتوقع (إيهاب) تقريظ صديقه (محمود) لقدراته ومهارته المهنية، لاسيما أنه لم يخبره بنيته لإيجاد فرصة عمل له بهذا المكان الجديد، وينبري (بيير) موافقًا، وهو يرحب بإيهاب الواقف في ركن بعيد بغرفة المكتب الوثيرة التي سرعان ما يتركها (بيير)، ووراءه (محمود)، والشباب، فور سماعهم مناقشة كلامية حامية بالخارج بين الدكتور (شندي) أحد أهم أصدقاء (بيير)، ودكتور (مدحت) الذي أتى ضيفًا للتعرف على نشاط المركز، والمشاركة في وضع خطته الثقافية.

داخل قاعة المركز الذي يمتلئ بالعمال والسلالم الخشبية والسقالات، يلوح (د. شندي) بقبضته في الهواء كما لو أنه يقود الجماهير للثورة في ميدان عام..

– لا زم نهدم فكرة المطلق الغائب، استراتيجية المركز هي تقديم ورش وندوات للشباب والبنات، نزعزع معها شجرة الأوهام العقيمة في عقول الدهماء.

فيرد عليه دكتور (مدحت):

- أتمنى أفهم معنى مصطلح المطلق الغائب.. يا دكتور تحرير المصطلح، أول خطوات الحوار العقلاني..

يظل (د. شندي) على حماسه، ثم يكمل باستفاضة:

- أينشتين لما اخترع النسبية، طرد معها فكرة المطلق الحتمي، وغير طبيعي إننا نرجع في مدينة الإسكندرية -أهم عواصم الفكر الإغريقي- لقيم وثوابت ماضوية، وإلا نكون شركاء في تأكيد الرجعية، والرِدَّة الثقافية.

يقترب (د. مدحت) منه مضطرًا، ليفسح الطريق للعمال، الذين يقومون برفع سلم عالٍ لنقله لمكان آخر، فيواجه وجه (د. شندي) ليرد عليه بلهجة يشوبها بعض الحدة:

- أولًا: قوانين (أينشتاين)، وديناميكا (نيوتن)، والثرموديناميكا، وغيرها، تؤكد كلها وجود قانون سماوي مطلق، فوق قوانين العلم الطبيعي المادي، ثانيًا: أنت تنقل كل أفكارك - بعد اللف والدوران- من منهج الشَكّ ليس نقلًا من (ديكارت)، إنما هي فكرة قديمة من قَبْل زمن الهكسوس، يوم ما أطلقها الفيلسوف الإغريقي (بروتاجوراس)، فأنت من تناقض نفسك، وترجع لأفكار عجوزة، لا نظير لها في الماضوية.

يهدئ (بيير) من حمية (د. شندي)، ويغادر (د. مدحت) باب القاعة، بعد أن لم يجد ترحابًا من (بيير) مدير المركز، ولكن (د. شندي) يتتبعه بالرد، حيث يأبى أن يتركه حتى ينتصر عليه:

- أنت شخص تدعي التفكير العلمي، وتدّرس للطلاب، لتروج لهم خرافاتك الغيبية التي لا سند عقلي لها.

يلتفت (د. مدحت) له وهو عند أول درج النزول بالحديقة الخارجية:

- شكرًا، ولا تعليق، لأنك تعرف واقعيًا أنك أكبر ناقل للخرافات على المكشوف، أما الغيب فهو ملك الله.

يقاطعه (د. شندي) منفعلا:

- ملعون التسلط الأخلاقي، وتخويفك لنا كأنك الإله. حضارة إسكندرية طول عمرها منفتحة على شواطئ بحور الدنيا، وما قَدر واحد، أو مجموعة، تقفلها على مقاس أفكارها المحنّطة.

يرد عليه (د. مدحت)، وهو يشير للشجرة الوارفة، عند باب الخروج الخارجي:

- محنطة، مفتوحة...كلها أوصاف مطاطة. لكن خلّ بالك، سيضحك عليك الدَهْماء، لو حاولت زعزعة شجرة أفكارهم الثابتة، لأنها نتاج جهد عقلي عبر العصور، وبعضهم عنده عقل أكبر من عقلي وعقلك، فلا تصادر، ولا تكابر لمجرد أنهم اعتقدوا ما لا تحب. أنت يادكتور (شندي)، أصل المشكلة عندك هنا.. في قلبك.

ينصرف (د. مدحت) وحيدًا، في حين يقف (محمود) بين الاثنين مفكرًا..

- خناقة؟!

قالها (إيهاب) الذي انتبه، واستمع لطرف من السجال الدائر، ونظر لمحمود متسائلا، في حين تحلقت نظرات (محمود) نحو (د. مدحت)، وهو يغادر الباب الحديدي للمبنى الخارجي، ثم يرد على إيهاب:

- محاورة نفسية!

لم يفهم (إيهاب) مغزى إجابة (محمود)، فرفع كتفيه، كأنه لا يعنيه الأمر، وما لبث بعدها أن أزاح (محمود) غبار التفكير، ليتأبط ذراع (إيهاب)، فيصعدان معًا درجات السلالم لداخل المركز مرة أخرى، ليريَه القاعة المطلوب إضاءتها، ويتركه داخلها بعد أن تيقظ الحماس في نفس (إيهاب) للعمل الجديد، بعد أيام طويلة من البطالة، نال فيها من أبيه التجريح، والإهانات الضمنية، عندما تضطره ظروفه أن يمد له يده، ليطلب مصروف يومه.

-16-

يهتز (إبراهيم) بشحمه ولحمه، وهو يُقبّل أمه بعد انتهاء المباراة في (التليفزيون)، ثم يهتف خارجًا من الحجرة بأعلى الصوت..

- الاتحاد.. الاتحاد..

يجد (إيهاب) أمامه قادمًا من الخارج..

- الاتحاد كسب المباراة في أخر ثانية.. تصور!!

شاط (إبراهيم) بكل قوته كرة جلدية صغيرة، فترتطم بظهر (إيهاب) أثناء سيره نحو آخر الصالة، فيستدير ليرد الكرة نحو أبيه بتسديدة متقنة، ثم يرد بلهجة لا مبالية:

- الاتحاد اشترى (الماتش)..

- اشترى!! بذمتك انت اتحاداوي أو حتى إسكندراني؟!

يبقى (إيهاب) واقفًا في مكانه، يصد بقدمه تسديدات أبيه، فتحول ممر الصالة الطويل إلى ملعب كرة، كما كل يوم جمعة في الصيف، وبنفس الكُرة، عندما كان (إيهاب) طفلاً يلح على أبيه للعب معه..

- الدنيا تغيرت، الاتحاد كان زمان، وخلاص راح..

يرد (إبراهيم) باعتزاز:

- ببساطة تتنكر لناديك، وتردم على إنجازاته، الاتحاد بطل كأس مصر 6 مرات، وبطل كل الدورات الصيفية، نسيت (شحتة وبوبُّو، وطلعت، وعادل البابلي،...)

يرفع (إيهاب) الكرة عاليا، وهو يسرد بقية أسماء لاعبي تلك الحقبة (السبعينيات)، ويكمل بعدها وجهة نظره المخالفة:

– وبكر، وسمير مخيمر، وعرابي. لكن الأهم...

يقاطعه (إبراهيم) مجنحًا بذراعه في الهواء، فور سماعه اسم حارس المرمى (عرابي) وكأي مشجع يعشق فريقه.. يصيح:

– يا خَرابي يا عُرابي.. فاكر لما صدّ 5 ضربات جزاء؟!! هو الوحيد في العالم، وفاكر لما طلعنا كلنا نحتفل، ونهتف..

يطغى اللون الأخضر من الأعلام والبالونات والرايات داخل (محطة القطار)، يتعالى زئير الجماهير علواً، تتدفق الجموع في اهتياج، تميد أرض المحطة مع دوي الدفوف، ونداء الحناجر العفيَّة لنادي (الاتحاد). الجميع ينتظر في ساحة المحطة وصول القطار القادم من القاهرة عند منتصف الليل، تهُب أعمدة اللهب أعلى الرؤوس من فم (الحُواة)، كما لو أن الساحة تحولت لفوهة بركان، تشخلل صاجات الرق، فيرد عليها بالمثل أكثر من رِق، تُختَزل ملامح الوجوه لابتسامة تتربع الشفاه، مثل وجه (عم كامل)، وهو يشير إلى قائد المشجعين فوق الأكتاف، حيث تتراقص خُصلة شَعْره الخضراء، والوحيدة، على رأسه الحليقة تماما، ويقود نداءات الجماهير بأناشيد النصر، وما إن وصل القطار يحمل نجوم الفريق، والكأس الفضي، حتى تهَافَتت الأذرعُ نحوهم، وامتدت الأيادي في جنون، تُسلّم على نجوم الفريق عبر شبابيك القطار.

– يا سَلام..

يقولها (إبراهيم) وهو يمصمص شفتيه متذكرًا، وساردًا تفاصيل تلك الليلة الصيفية، فترتد لـ(إيهاب) أحداثها بما تعيه ذاكراته وقتذاك، فتتَملّل الكرة من دفعة أقدامهم الواهية، بعدما انتقلت بؤرة تفكير الأب، وابنه، بعيدًا عن واقع اللحظة إلى محطة القطار مجددًا، عندما رفع (طفلَه) عالياَ، ليتعرف على كل مظاهر المهرجان، ويُرَفْرف الطفل (إيهاب) العلمَ الأخضر الصغير، صائحًا مع الباقين، بصوته الرقيق،يشجع (الجارم) هداف الفريق:

- (يا لّا يا جارم صَحي النايم.. حُط الكُورة جُوَّه الجُون)

أنوار الفرح تشق ظلمة البحر الغافل عند الكورنيش، فتتشوق مياهه لمعرفة ما يدور على بَرِ مدينته، فترتفع بأقصى طاقتها للفرجة على موكب الأهل فوق الحناطير المزينة، متجهة نحو ميدان (أبو العباس)، والهتاف الشعبي الغنائي يدوي:

- (اقروا الفاتحة لأبو العباس، الاتحاد بطل الكاس...)

تشمخ باعتزاز هامات أفراد الحراسة بالزي الأبيض، وشارات التشريفة، عند نَصْب (الجندي المجهول)، يمر بجوارهم وحولهم جيوش المحتفلين، تتساقط عليهم الحلوى من الشرفات المفتوحة، والبيوت المضاءة حتى الصباح، فهو ليس نصرًا رياضيًا فحسب، ولكنه تكأة لاستشعار نبوغ المدينة الساحلية، وتفوق أهلها، في ظل الشعور العام بالغَبْن من مركزية العاصمة، واستقطابها لكل الإمكانيات، والأضواء.

طارت الكرة عاليًا، نحو (إبراهيم)، بقَدم (ابنه) يواجهه بلهجة صريحة:

- لكن الاتحاد كان يَاما كان، ومركزه في جدول الدَوري يكسف الواحد، ومن عشرين سنة!!

يحاول (إبراهيم) أن يتفنن في تسديداته، وهو يجابهه قائلًا:

- الظروف والتمويل والحكام. إنما الجمهور مخلص، ووفي، وسَنْد الفريق.

يرجع (إيهاب) له الكرة برأسه، في قوة:

- نفس التبريرات والحجج البليدة لكل هزيمة أو فشل نبتلى بها بسبب جهلنا، ثم لاحظ إن كل كلامك مَزْنوق ما بين لكن، وكان، وفاكر.. أيام راحت وماتت، ومستحيل ترجع إلا ان رجع فانوس (إسماعيل يس) القديم.. أبو حَكَّه.

كانت لهجة (إيهاب) بلون التحدي، بعد أن دبت الثقة فيه إثر اتفاقه (المبدئي) على عمل جديد، وبأجر كبير، فأراد أن يرد على أبيه، بعد أن ظل ساكتًا لقلة حيلته الأيام السابقة.

يهب (إبراهيم) متزودًا من قراءاته:

- يا سلام على الخيبة!! الحاضر يا وَلد موجود لأنه على قاعدة الماضي، والحنين غريزة فطرية للإنسان، والحيوان، يا بني آدم، ثم تقدر

تقول لي عن العيب، أو الجريمة في إننا نستلف حَبّة ثقة من يوم فات، أو حتى مات؟!

يسند (إبراهيم) يده على كتلة مقبض الشباك الذهبية، ويشير نحو سقف وحوائط الشقة وهو يستكمل حُجته:

– لولا المهندس، وفكره، وشغله من 100سنة، ما كنا عشنا هنا لا أنت ولا أنا، ولولا إني علّمتَك يا(فَلْحُوس) لعب الكرة، ماقدرت تفرد قدامي نفسك، والكرة تنط فوق مشط رجلك.

أحس (إيهاب) أن مناظرة المركز الثقافي قد انتقلت بينه وبين أبيه، فاندمج في المباراة الساخنة، مستعينًا بما وصل لسمعه من كلمات (د. شندي) وأسلوب تفكيره، الذي مال إليه:

– كل جيل متوهم إن زمنه لا مثيل له، نرقص ونشجع لانتصارات اندفنت مع أصحابها، وبعدها ننام من غير ما نتعلم، الحنين –لما يسيطر على عقولنا– دليل على العجز، أما حكاية إن جمهور الاتحاد مخلص وعظيم، يعني.. سامحني... بصراحة...

– انطق يا فيلسوف الغَبرة؟

أصر (إيهاب) على تهكمه كأنما ينهي ثأره المعنوي، ويعيد إثبات وجوده، فأوقف الكرة ببطن قدمه بمهارة، قائلًا بلهجة فيها قدر من التَشفي:

– " سبرتُو "..

يثور عليه، بعد تهمته للجمهور السكندري (بإدمان الكحول الرخيص):

- عقلك هو (السبرتُو)، أكبر شهداء الثورات من الإسكندرانية، وجمهور الاتحاد جزء منهم، حاول تقرأ، وتعرف يا مسكين!

لم يسع (إبراهيم) وقتا لتكمله مبارزته، بعد ما ظهرت (فادية) بينهما، كي ترفع سجادة الغرفة من على حافة الشباك بآخر الممر، فاندفعت بالقول نحو أخيها:

- يا أخي ارفع بنطلونك أكرم لك من شعاراتك الفارغة، واعمل لك أي حاجة مفيدة تشغل بها وقتك الفاضي.

خرجت منها ضحكة مكروشة غير مكتملة، في حين يعاونها (إيهاب) في حمل السجادة الثقيلة من الطرف الآخر، ويتوجهان بها لغرفتها، ويظل (إبراهيم) لوحده في الممر الشاسع، يسيح في عرقه، ثم يرفع بنطلون (بيجامته) الذي تراخى رباطه بالفعل، واكتشف أنه نزل إلى ما بين فخذيه.

-17-

حي (سموحة) الذي كان مرتعًا للمستنقعات في ماضٍ ليس ببعيد، اتجهت إليه الحركة العمرانية والجذب التجاري، ولا سيما بعد إنشاء مجمع للتسوق على النمط (الأوروبي- الأمريكي) المعاصر يعرف

بـ(المول –Mall)، وبالتالي انتقل محور الإسكندرية التجاري بالتدريج إلى شرقها على شريط حي (سموحة)، الذي امتد بالطول والعرض في نمو بوهيمي، بعد ما كان هذا الحي في العُقود الأولى من القرن العشرين، مجرد فجوة غير مأهولة إلا بالقليل جدًا من (الفيلات)، وحديقة الحيوانات، ومنتزه الزهور السنوي في قصر (أنطونيادس)، وكذلك نادي الفروسية، أو النادي الاجتماعي المعروف الآن باسم رجل الأعمال اليهودي العراقي، الذي اكتشف المكان، وهو.. (جوزيف سموحه). على نفس القدر وبالتوازي أُهملت منطقة (محطة الرمل) بقلب المدينة التي كانت لسنوات طويلة، مقصدًا ونقطة التقاء لكل الفئات سواء من أهلها أو زوارها، لتبرز نواة مركزية بديلة في (سموحة) يرتاد الناس محالها، ومقاهيها الحديثة، أو (الكافيه –Café) كما يفضل أن يُطلق عليها حاليًا.

وعند هذه المنطقة يتجول (إيهاب) في محل إضاءة كبير، يستورد أدوات إضاءة حديثة ومتنوعة، ويقرر بعد مشاورته (محمود)، أن يكون هذا المحل هدفهم، لإمدادهم بالإضاءة المطلوبة، بعدما يتم عرض الأمر على (بيير) مدير المركز، فور عودته من رحلته القصيرة بالخارج.

أضاء (محمود) أنوار سيارته لاختراق زحام الشارع، ولكن دون جدوى بسبب تكدس السيارات، خاصة أمام الموقف الخاص بالمول الجديد آنذاك، وأثناء التوقف يلمح فتاتين تخرجان من السوق التجاري، واحدة تأكل (سندويتشًا) ضخمًا، وأخرى تحمل كيسًا كبيرًا مملوءًا بالفشار، وهي تنظر نحو (محمود) الذي لفت نظرها بإشارة

لطيفة، ثم يظل ينظر لها، في أثناء عبورها الشارع مع صديقتها، قائلًا لإيهاب:

- بُص على اللعب يا معلم..

قبل أن ينتبه (إيهاب) للفتاة، يحيط بعض المراهقين بالفتاتين، يلاحقونهما بالكلمات المكشوفة والنظرات الجائعة، فلا تستطيع الفتاتان المرور، فتغيران اتجاههما للاتجاه المعاكس، يفوت (محمود) من بين سيارتين، ليقابل الفتاتين أول دخولهما الشارع المظلم، ثم يخرج رأسه من الشباك:

- واحدة (فشار) لو سمحت؟!

ترد عليه الفتاة (صاحبة الساندوتش) بفظاظة صوتها الذكوري:

- شكلك مفجوع.. اسحب بعيد أحسن لك!

يتجاهل (محمود) ما قالت، ويتجه نحو (الفتاة الأخرى) التي سال لعابه،عندما لمح نظراتها الاستكشافية تجاه السيارة، فحاول أن يكون مقنعًا، وهو يتجه لها بالقول الناعم:

- يرضيكِ إن أي ولد تافه يقرَّب منك، أنا تحت أمرك لأقرب مكان من بيتك، أو جزيرتك الوردية.

وضحت ابتسامة القبول على الفتاة الجذابة، وهي تسترق نظرة نحو (إيهاب)، الذي بدا زهقانًا من عبث (محمود) الصبياني، وممارسة طيشه كما حدث من قبل، فإنه حتى لو كان ممتنًا لخدمته وتوفيره

فرصة عمل يحتاجها بقوة، ويرتاح كذلك لشخصيته البسيطة والشهمة، لكنه لم يكن ليرضى أن يكون تابعًا، وموافقًا له في نزقه الفاضح على الملأ. تهيم برأس (إيهاب) خواطره، وينوي أن يطلب من (محمود) -بحزم- الكف عن متابعة الفتاتين الصغيرتين، لكن (محمود) يلف بسيارته وقد أعمته رغبته، إلى أن وصل للفتاتين اللتين تنقلتا من رصيف لرصيف، هربًا من ملاحقة الشباب لهما. يرتفع صوت (إيهاب) نحو (محمود) المنهمك في محاذاة سيارته للرصيف، الذي انتقلت عليه الفتاتان:

- أنا لازم أروَّح، لِفّ يا محمود، وابعدنا عن القلق.

لم يعط (محمود) بالًا لكلامه، فقد اقترب جدًا من الفتاتين، بعدما زادت المعاكسات حولهما لحد محاولة التحرش الجسدي، فلم تجدا أمامهما إلا باب السيارة، يفتحه لهما (محمود) بحركة سريعة مُدرّبة، فتندفع الفتاتان داخل السيارة، وتندفع فوراً أضواء كشافات السيارة، لتقطع عتمة الشوارع الجديدة. يتَلطَّف (محمود) وهو يتعرف على الفتاة التي كانت سببًا في مغامرته:

- بيتك قريب؟

ينُط صوت (زميلتها) كالبارود المغشوش:

- لولا العيال العبيطة ما كنا ركبنا، نزّلنا أول التقاطع من غير أسئلة.

يتمالك (محمود) أعصابه، قائلًا:

– أول التقاطع ممنوع فيه الركن، نطلع قدَّام، وأنا عند وعدي للتوصيل.

تبرق عينا (الفتاة) وراءهما، وهي تداعب حبات الفشار بشفتيها القرمزيتين الصغيرتين، وتنظر بإمعان لهيئة (محمود) وملامحه، ثم تتطلع نحو (إيهاب) الذي قرر بداخله أن يلتزم الصمت، حتى ينتهي وجودهما بأسرع وقت، كما يأمل.. وبلهجة آمرة تشخط (الفتاة المسترجلة) في أذن (محمود)، لتَدلّه على طريق بيتها:

– اطلع ناحية شارع (محسن)، عند (فابريكة بدوي).

يحرك (محمود) رأسه بالإيجاب فرحانًا بالتخلص منها، ورمْيها في أي داهية، لينفرد بجميلته الفاتنة!

– فابريكة بدوي؟! جميل... (ثم يتوجه بالسؤال نحوها) في مدرسة.. يا.. (مفتعلًا الاضطراب ليجرها للإجابة).

– مدرسة فاروس.. واسمي (بوسي).

تزغدها زميلتها المسترجلة، تلومها على إفشاء اسم مدرستها، يسارع (محمود) متعجلًا بمواصلة الحوار:

– ساكنة يا بوسي جنب بدوي؟

قالها مشيراً على الفتاة المسترجلة، فتضحك (بوسي) غير مهتمة بغضب صديقتها. وتكمل كلامها:

– أنا ساكنة في (الإبراهيمية)، قبل شارع (لاجْيتِيه) يا... (تنتظر معرفة اسمه وهي تبتسم).

– خدامك (محمود) وشهرتي (حُودَة)، لكن (مَامي) –ربنا يكرمها– تحب تناديني:" يا واد يا محروق"، لإنها ولدتني في فرن.

لا تملك (بوسي) نفسها، وهي ترتمي ضاحكة على زميلتها، وتزول حواجز التعارف الأولى بينها وبين (محمود) الذي لم يكن يتوقع هذه الضحكات، فما قاله يعتبره من الدعابات القديمة ... تلفتت (بوسي) بعينيها العسليتين نحو (إيهاب) الذي عاد لحالته المتجهمة السابقة، ولكنها بطرف إصبعها لمست كتفه لتلفت نظره، فتُقَطب جبينها له، وتزُم فمها، وتُضيق حَدقتي عينيها، لتقلد تكشيرته. ثم تبتسم له بسمة، ليس لها معنى آخر، إلا أنه قد حاز على إعجابها. فيرمي (محمود) نظرة لصديقه، وهو يهز رأسه هزة خفيفة متكررة، تهنئةً له على الظفر باختيارها له. يرتبك (إيهاب) وإن رد عليها بابتسامة خاطفة، وبعد أن ينوب (محمود) عنه في تعريفها باسمه، ترتطم عجلة السيارة بحفرة في وسط الشارع، ويندفع الكل إلى الأمام بشدة، وتستعيد السيارة توازنها مع زعيق (الفتاة المسترجلة):

– حاسب يا (أسطى) حُودة!

فيرد عليها بنفس لهجة صوتها الجاف:

– خِفّ يا بدوي!!

تخبط (الفتاة المسترجلة) باب السيارة، عند وصولها لقرب منزلها، بعدما حذرت (بوسي) من مغبة التبسط في الكلام، وضرورة عودتها للبيت مباشرة، تطمئنها (بوسي) بشكل روتيني، ولكنها تعود مع عودة السيارة للانطلاق، فيتعلق فضولها تجاه شخصية (إيهاب)، يجذبها غُمُوضُه، وحُزن غريب يلوح تحت حاجبيه الكثيفين، وتحاول أن تدفعه للتكلم، وهي تضفي على كلماتها دفئًا تراود به قلبه:

- من فضلك افتح الشباك يا إيهاب؟ بالمناسبة...اسمك حلو!

قالتها بنبرة تعز على الوصف، مما جعل (محمود) يصرخ مبهوتًا نحو (إيهاب):

-يلعن أبو حَظك، ناس لها (بوسي)، وناس لها (بدوي)!

انقلب رد فعل (إيهاب) تجاهها، فيفتح لها الشباك، مدهوشًا بما اعتراه!!

-18-

يقطع (إبراهيم) عرض الغرفة جيئة وإيابا، بلباسه القطني الطويل الداخلي، حيث تضع أمه رباطا جديدًا محكمًا لبنطلون (البيجامة)، وتنصت لحديثه بتركيز...

- قابلت يا ستي المحامي، قال لي نتفاهم مع الشركة على التقسيط، قبل تحريك إجراءات القضية، لأنها غير مضمونة !

تناوله (الأم) بنطلونه، فيرتديه، وهو لايزال يكرّ عليها حديثه من مخزون انفعالاته، ويفتش بصوت مسموع عن كل الاحتمالات التي قد تحدث لاحقًا:

– بابا لما جاب لنا الشقة كان إيجارها حوالي 7 جنيه، إنما الشركة غيرت سياستها بنظام الخَصْخَصَة، ورفعت الإيجار، لكن الأدهَى هو طعنها في قانونية العقد، ورفع مبلغ الصيانة الشهري لأرقام تعجيزية، على أساس تكون حجتهم لطردنا، أو تهددينا في المحاكم !

تشير (الأم) له كأنها لم تفهم معنى الكلمة، فيشرح لها:

– خَصْخَصة يا ماما يعني بالبلدي الدولة تبيع الشركة بأصولها المملوكة للناس، أو ترفع الدعم عنها "على عينك يا تاجر"، ويتولاها مجلس إدارة جديد بسياسة كل هدفها الربح الأقصى، ويهبشوا مكافآت، وبدل سفريات بفلوسنا، يعني نقطع من قُوتْنا، وندفع لهم، لاجل يتهنىَ البَهوَات.. أنا مضطر أتفاهم معهم، لأن أولاد الأبالسة، لهم أسلوب معروف في العقود، بطريقه في منتهى المكر، والمحاكم عمرها طويل.. (أووف).

يبدو (إبراهيم) مهمومًا، ومتورطًا في تدبير مبلغ لابد من دفعه بأثر رجعي لشركة (الصناعات البتروكيماوية) الحكومية، والمالكة للعمارة بعد تأميمها، وباتَت رغبة الشركة– بعد سياسة الدولة الجديدة– في استثمار العمارة، ووحداتها التي تدر مبلغًا خياليًا، عن طريق طرد المستأجرين– على مراحل– تحت زعم قانوني ملفق، أو بمحاولة الاسترضاء المشروط معهم، في إجحاف فادح.

تشير (الأم) لابنها على صندوق ذهبها الخاص، الذي لم يبق فيه من مصاغها الكثير أو الثمين، لعله يساهم في دفع جزء لا بأس به من المبلغ المفروض، وإلا تعرضوا لتهديد الطرد. يلحظ (إبراهيم) وجه (الأم) وقد شَحب لونه، وثَقُل تحرُّك جَفنيها، فيضع يده على يدها فيجدها باردة، ثم تغيم مقلتا عينيها بعيدا إلى عالم آخر، كأنها تنسحب من الوجود في هدوء...

- ماما.. ماما، رُدي عليّ.. مالك؟ ماما..!!

فتح بسرعة الدرج، ليخرج زجاجة (كولونيا)، يحاول إفاقتها، لكن.. دون جدوى. يشتد توتره، يمسكها ليرفعها من جذعها، وبيده الأخرى يناولها حبة الدواء في فمها، كأنما يعيد لها نبض الروح، تظل غائبة، لا تقوى على أقل حركة، وتسكت جفونها عن الارتعاش.

تتهاوى قُوتُه محاولا شَد عزم أمه..

- أرجوك يا ماما.. ساعديني..

تتشبث (الأم) بقبضة ابنها، لتخفف عنه وطأة الحزن، أو لتودعه بلمسة اليد قبل الفقد، يتخبط (إبراهيم) لا يدري ماذا يقول، وكيف يَروح، يَلفُّ حول نفسه، لا يعرف ماذا يقدم لها، ثم يعود يمسك يديها ضارعًا:

- يا رب، انت عالم وشافي، إلا أمي، يااا رب !!!

يتهدج صوته، وهو يرى نور حياته ينطفئ، ويفر منه دون عودة، ثم ينادي:

- إيهاب، يا إيهاااب...!!

كان (إيهاب) يراقب خروج بنات المدرسة الثانوية على ناصية شارع مقابل، وبجواره (محمود) داخل سيارته، يتفرس الاثنان في البنات بحثًا عن وجه (بوسي) وسطهن، لكن الشعور بالإخفاق سيطر على (إيهاب)، خاصة مع تأكيد (محمود) له، بكذبها في إخبارها لهما باسم مدرستها الحقيقي، ويحاول أن يقنعه بالتخلي عن سذاجته في تقدير الناس، وأن يقلع عن حسن نيته في الحكم على معادنهم، وظل يسمعه كل ما يقال من النصائح المعروفة في مثل هذه المواقف، ومع ذلك لم يسمعه (إيهاب)، لأن تَلَجْلُج قلبه في صدره علَا على كل صوت، لحظة أن رآها تخرج حاملة شنطة المدرسة، تحيطها بذراعيها، ثم تستأذن من زميلاتها، وتتجه نحوه متلهفة، مرتدية جوربها الأبيض القصير، وفي عينيها فرحة تستعصي عن المدَارَاة:

- كيف الحال؟

تسلم على (إيهاب) وهي تهب كفه كفها، تتمنى ألا يتركه أبدًا، يقاوم (إيهاب)، ويضبط مشاعره، تقول له عيناها في هيام:

- "اشتقت إلى كل حاجة فيك".

فيرد عليها بنظرة مضطربة، ولا يقوى على الكلام، أما (محمود) فبدأ يلقي نكاته التي ضحكت لها (بوسي)، فأذابت قلب (إيهاب) بجمال تعبيراتها.

ووسط شوارع (الإبراهيمية) بمنحدراتها وارتفاعاتها وشوارعها المتداخلة، نزلت (بوسي) بعيدًا عن منزلها، وهي تطلب منه أن يتبعها، حتى يعرف بيتها.. تهبط سلالم حجرية في شارع خلفي، عَطَفت يساراً قرب محل (جَارْبيس) للآيس كريم، يتبعها (إيهاب) بعدما ملأه عبير شَعْرها في السيارة... عبرت (بوسي) الشارع بعد لحظات طويلة بسبب توقف حركة السير، تلفتت قلقة، لتتأكد أنه وراءها، فلم تجده، لكنه ظهر بعد ثوان، يمد خطوته هابطًا من أعلى منحدر، فاطمأنت، وواصلت السير، حتى وصلت إلى شارع حيوي، ثم ..تدخل البيت.

وقف في الشارع أمام العمارة، ينتظر ظهورها في شرفتها كما وعدته.. سأل نفسه: "أهكذا يكون الحب؟! لا يفهم كيف زاره واحتواه في غفلة؟".

هلّت عليه بنفس ملابس المدرسة: القميص السماوي، والجُونلّة الرصاصي. تضع بأناملها وراء أذنها خصلة شعر تطير، ثم تشير له غير مهتمة بمن حولها في الشرفات القريبة، إلى أن أتت له السيارة، فحيّاها ولهاناً من الشباك الصغير، عند بدء مغادرته بعيدا.

-19-

على حرف سريرها ترتب (فادية) أوراق (الكوتشينة) على الطاولة.. يدخل عليها (إيهاب) من بابها المفتوح على غير العادة، ليسألها عن تفاصيل ما حدث لجدته، كما أخبره (أبوه) بكلمات

مقتضبة، فاضطرت (فادية) أن تقطعَ تركيزها العائش في خبايا أوراق اللعب، وحكت له ما حدث نهارًا لأمها، وأنها استنجدت بالدكتورة (منى)، عند سماعها صيحات (إبراهيم)، ثم مرت الحالة الحرجة بخير، واستسلمت بعدها (أمها) للنوم..

جلس (إيهاب) على حرف السرير الآخر قبالتها، وقال مفكرًا:

– د. منى هدية الوقت القاتل، ولولاها...

تعترض (فادية) بضيق، وهي ترمي ورقة (الكوتشينة):

– لا هدية ولا شَلَبيّة، كان أبوها معظم الوقت يستلف من بابا، تقدر هي تنكر؟ "واللي خَدته منّا بالجَردل، بتّعوضه لِنا بالكُسْتبَان".

لم يأبه (إيهاب) لما قالت، فلا يزال يقوده تيار ينبع من حلاوة الإحساس العاطفي.

– تلعب؟

أرادت (فادية) أن تكشف له عن بختها بالورق. يقترب منها، ويسحب من أمامها أول ورقة مقلوبة، فتكشفها له:

– بنت!!

يَعبُّ صدره بجرعة من نسيم الليل، وهو يقول بثقة:

– أحلى بنت!!

ليل أو نهار لا يهم، فمشاعر الحب تحيل الأزمنة إلى طور آخر، يأتلف فيه الخيال بلمسة جميلة من الحقيقة، وتنزلق المعاني في شريان

الفكر بغير حساب، وتتوالد الصور الذهنية متتابعة في جوانيات العاشق، تملأه إدراكًا بعذوبة الروح، ويهوى كثيرًا الإصغاء إلى حديث الشجر، خاصة عندما يفوح عطر الياسمين من قصور (لُورَان) النائية نوعًا ما... إذ ترهف (بوسي) كل الحس له، وهما يسيران بجوار القصور، يحكي لها عن ليلته مع (عمته)، وورق الكوتشينة، لكنه سكت عن الكلام فجأة، عندما همَّت بالارتماء على صدره، تخبره كالحالمة:

– فكرت فيك طول الليل، وكُنت مبسوطة..!

تهفهف ستائر القصور من (الدانتيل) فوقهما، وظلا يسيران للأمام، يسحبهما الهوى، يحني رأسه، ليرفع يدها نحو فمه، فتختلج شفتاها بأرق اختلاجة حب، حتى ذاق كفُها قُبلتَه الأولى.

-20-

تفك (مبروكة) الخمار الطويل، في بداية جلوسها بجوار (الأم)

– والله يا ست الكل، ما منعني عن زيارتك غير الشديد القوى.. (أبو آلاء) قبضوا عليه، وهو جوة الجامع، وكله بسبب السياسة، ومن ساعتها نجري من قسم لمديرية، لا عارفين له مكان، أو معتقل، و(آلاء) كل همها أنها تحاول مع جنس أي بني آدم في كليتها أومن

معارفها، على أمل توصل لأي أثر يدلنا على مكان اعتقاله.. ربنا يرحمنا، وينصرنا على ظلمهم.

تبدو (الأم) مهتمة بما تسمعه من أخبار خادمتها القديمة، تنظر لها في عطف، تلمح في داخلها الصبر الممرور، ثم أخذتها حيرة التعجب يخالطها أسى... فها هي (مبروكة) التي عاشت وتربت عندها، تحتاج لقوت يومها وتلجأ لها، دون أن تطلب منها صراحة. لا تعرف أن الحالة المادية طالت سيدتها أيضًا، وأصبحتا شريكتين تقريبًا في دائرة العيش الضيق المتزمت. تبحث (الأم) عما يمكن أن تفعله مع (مبروكة) حتى تجبر خاطرها، رغم استرزاقها من حياكة بعض الملابس للجيران، لكنها لا تكفي هذه الأيام، وخصوصاً مع ارتفاع تكاليف ابنتها (آلاء) بالجامعة.

تفكر مغتمَّة، يدور إبهامها فوق ظهر يدها الأخرى، ولا تجد (مبروكة) ما تفعله إلا تهوية وجهها بمنديلها الصغير، ثم تقوم قائلة:

– يا ساتر يا ستي.. الرطوبة عالية، وتخنق.. أفتح باب (البلكونة) شويَّة؟

في الوقت نفسه كانت يد (آلاء) تمسك الفَتّلة حيث تقوم بتخفيف شعيرات حاجبي (فادية) التي تغمض عينيها لها، وهي ترتكن على مسند السرير، حتى انتهت (آلاء) من مهمتها، فتُظهر لها المرآة الصغيرة، لتتأكد (فادية) من شكل وجهها بعد إزالة كل الشعيرات الزائدة..

- تسلمي يا آلاء.. ما شاء الله على شطارتك، وخفتك.

تقوم نحو الدولاب، وتفتح شنطة يدها، وهي تكمل كلامها:

- فلوس شغلك كافية لمصاريفك يا آلاء؟

- الحمد لله.

تضع في يد (آلاء) مبلغًا مقابل عملها، فترفض، وتبعد يدها ممتنعة، فتُدخل (فادية) الفلوس عَنْوة داخل شنطتها، وتوبخها:

- اسمعي الكلام، حاجة صغيرة من تعبك يا (لُولُو).. إحكِ لي عن كُليّتك، يا ترى مصاحبة بنات مؤدبة؟

ترد (آلاء) باستنكار:

- مؤدبة؟!!

تتردد (فادية) وترتبك:

- انت صغيرة مهما كان، وشباب الكلية وخصوصًا (الآداب) فيهم بلاوي.. صح؟

- أنا أقدر أختار وأعرف أفرز.

- تمام.. اشربي (الكاكاو) قبل ما يبرد.

أرسلت (آلاء) نظرها بعيدًا عنها، تلاحظ هبوب الهواء المندفع من باب الشرفة المفتوح:

- الجو عندك رائع! كأني قاعدة وسط البحر!!

تعود (فادية) لتجلس بجوارها على طرف السرير، ينخفض صوتها قليلًا، وهي ترنو لشرفتها المفتوحة، وتتكلم عنها كما لو أنها تحدث نفسها:

- هي صاحبتي، ولو إني معظم الوقت أكون في المطبخ (يعلو صوتها، ويغلبه الانفعال الحماسي، وهي تحرك يديها كثيراً عند مستوى صدرها).. أعمل الأكل لإيهاب، لإن أول رجوعه لازم يتغدى، وبعدها أقطَّع له الفاكهة، ونشرب الشاي، ونكرر القصة بالليل، لما نتعشى، والأكل لازم يكون على ذوقه وطلبه، غير الغسيل، وتوضيبه.. عارفة يا(لُولُو) آخر اليوم يحل عليَّ التعب جدًا، لكن أنا أحب أعمل له كل حاجة قبل ما يسألني، فتلاقيني مشغولة طول اليوم، كأني مَكّوك ماكينة.. (أَحْبيبه) على مُخي، أنا نسيت أوَّطي النار على (الشَكْشُوكَة).

نهضت (فادية) من جلستها المسترخية، لتخرجَ من الغرفة، وقد أحست بالراحة، لأنها روَّجت لنفسها صورة السيدة التي تعاني من قلة فراغها، وأن هناك رجلًا صار يشغل وقتها، ثم تتوقف فجأة، كأنما تذكرت شيئًا ما:

- أنا لازم افتح الباب.. إوع تقفليه (قالتها بنظرة متشككة، ولهجة تعلوها صيغة الأمر).

ترد (آلاء) بسرعة، بعد شعورها بالحرج، وتتأهب للتحرك خارج الغرفة:

– أساعدك أحسن من قعدتي هنا لوحدي؟.

فتلطف (فادية) من أسلوبها:

– أقعدي يا (لولو) براحتك.. راجعة لك بسرعة.

زفرت (آلاء) باستياء، لضيقها من تلميحات (فادية)، ثم رفعت نظراتها للحيطان العالية، وراحت تقترب من شريط الكتان المتين الذي يتحكم في سحب لوح (الشيش) الأخضر، فتشده بحذر لمجرد التجربة، حتى يغلق كل مسارب النهار، ثم تعود به لنفس الارتفاع الذي كان عليه بالضبط، خشية أن تسمع كلمة جارحة من (فادية) عندما ترجع.

دخلت الشرفة، تنظر منها، وهي تستند على حافة الجدار الحديدي، تسترق النظر تحتها، فترى مجموعات الموظفين يخرجون من العمارة، ويركبون أتوبيسات الشركة، ثم يرتفع نظرها، فتلمح أعالي مباني وعمارات أكثرها من الطراز الأوروبي (النيوكلاسيك NeoClassic-).

وجهت باطن يدها للهواء، كما لو كانت تريد أن تتزود من تيارات الرياح، لترميها لأبيها عبر فتحة زنزانته، فكم آلمها أن يخطر في بالها حرمان أبيها في محبسه المجهول من التمتع بنسمة هواء يتيمة، ثم تنبهت لوجود حبات عرق غزيرة في كفها الآخر، وأدركت أنها ظلت قابضةً يدها أكثر وقتها مع (فادية)، لماذا ينشأ فيها توتر مكظوم أمامها، فرغم شخصيتها الناضجة، وثقتها المكتسبة من ملاحة وجهها

المائل للسمرة، واستقلالها بالعمل الحر، لكن يظل عدم الارتياح يلازمها في هذا البيت، ومع (فادية) بالتحديد.

مسحت باطن كفها على حافة الجدار بعصبية، فور انطلاق صوت بداخلها يُلَقنُها الإجابة الأليمة:

"لأنك بنت مبروكة.. بنت الخدّامة".

تسير بعد الخروج من البيت بجوار أمها، تجتازان زقاقًا يتصدره مقام في مسجد عتيق بالعطارين.. يعرف بـ(سيدي حقوق)، تحيطه أرض خراب تعيش فيه الماعز، ومعه تعيش بعض الأُسر المعدَمة.

– ماما، إياكِ أسمع منك كلمة (ستي) لأم فادية.

– "أيّوووه" على دقتك يا آلاء، هي ستي كلمة مهينة؟.. ربنا خلقنا طبقات. والرضا بالمكتوب غِنَى.

تتبرم (آلاء) من رد أمها المستكينة:

– ربنا مقدَّر لنا إننا نذل روحنا لغيرنا؟!

ترفع (مبروكة) رأسها قليلاً، معترضة:

– ذُل؟ لا إله إلا الله يا آلاء.. مالك!! حصل حاجة مع فادية؟

– لا.. هي فاهمة إن بابا مسافر.

تناول أمها البضع جنيهات التي قبضتها من فادية، فتكومها (مبروكة) في يدها، وهي تسحب خطواتها بهمة.

- الست (زينب) ربنا يعافيها، زودتني عشرين جنيه (نطقت النون بالكسر، كما لهجة بعض الإسكندرانية)، عن سعر قماش طلبته مني.

سحبت (آلاء) الشنطة من أمها، لما وصلتا لموقف سيارات (الأجرة الجماعية)، أو ما يطلق عليه أهل الإسكندرية بـ(التُونّايَة) لسرعتها، وصغر حجمها، فركبا بصعوبة شديدة وسط تكالب الركاب، عدلت (آلاء) من بلوزتها، ودفعت (الأجرة) بعد مشادة قصيرة مع (السائق) على ارتفاعها المتزايد، ثم مالت على أمها:

- اتمنى أشوف بابا ولو دقيقة واحدة، أنا قلقانة عليه.

فتدير (مبروكة) رأسها قليلًا، نحو الطريق هامسة:

- ربنا يقدرنا، ونعرف مكانه.

سكتت (مبروكة)، ثم أردفت بنبرات مشروخة:

- أنا تعبت..!

لم تجد (آلاء) ما تقوله لأمها، فَنَكَّسَت رأسَها طويلًا، إذ احتل فكرَها شيء ما.

-21-

الحائط المنقور يستطيل في عينيه، يعبث طرف سبابته في الحفر المجوفة، فيتعرف على نعومةِ التجويف. تنطبع صورتها أمامه بدلال

الجسد، وبكارة الغريزة، فتهيج تصورات البال، ثم ينزل بظهر يده متمهلًا فوق نقط بارزة على سطح الحائط بين التجاويف المدورة، كأنما تستجيب حواسه لمقولة شائعة: (لمس الجسد للجسد ضرورة، تُلهبها طاقةُ العشق).

– سلامتك من التوهان!

يرمقها ببرود، وهي تضع صينية عليها أكواب الشاي فوق الطاولة، التي تفصل بين السريرين، ثم تنزل تحت سريرها، لتسحب (برطمان) السكر، هامسة له:

– أحُطّه هنا أحسن لي، لأنه ممكن يحط لي فيه حاجة (تقصد أخاها)... شُرب الشاي في (البلكونة) مزاج.. تعالَ.

يجلس أمامها هائمًا في الشرفة، وبينما تجفف (فادية) يديها المبتلة في فوطة المطبخ، تبحلق في جارتها الشابة التي تقوم بوضع وتثبيت حبال بلاستيكية جديدة، يساعدها (زوجها)، ويَرف حولهما جو من المرحِ اللطيف.

– طول الوقت ضحك ومسخرة قدام الناس، لكن لا عندهم عَيّل ولا " تيّل"...!

لم يرغب في مجاراتها بأي حديث، فلا زالت حبيبته تلتف حوله، تناغش ذكورته، لايرى أمام عينيه إلا وجهها يتوَرد، يرشف رشفة متعجلة، ثم يرشف ثانية، فينسكب في شعوره طَعم ثغرِها، ويعودُ ليرتوي، بلا رغبة في الانتهاء.

- سُكر؟

يحرك (إيهاب) رأسه علامة الرفض، وقد وضح الضيق عليه، بعد أن أيقظته من حلمه النهاري.

- (آلاء) كانت هنا من حوالي ساعتين، بنت غلبانة على قْد الحال.. هي في كلية الآداب، لكن نسيت في أي قسم، انت كنت يا إيهاب في قسم أصوات؟

يضغط (إيهاب) على حروفه:

- صوتيات.. Phonetics

تحاول (فادية) نطق الكلمة بالإنجليزية:

- فُوتكس؟! (تتلخبط وهي تكررها)

يصيح (إيهاب)،بعصبية:

- فُوْنَتيكْس.

تعترض (فادية) بذراعها المتأرجح:

- فونتكس ولا بونتكس، انت غريب يا إيهاب، تفتكر واحدة بحالي ومالي، تعرف تنطقها صح، من أول مرة..!

- أنت خريجة جامعة. يعني متعلمة.

- "يووه" أنا كانت عقدتي اللغات.

يقوم دون أن يرد، فترفع بدورها الصينية، وقبل أن تتبعه للداخل، تسرق نظرة أخيرة إلى (جارتها) التي يشدها (زوجها) في حب للداخل، فتلتصق به كالقطة الحنون. وقفت (فادية) ساهمة العينين، نحو شرفتهما المغلقة، تتخيل ما يحدث بينهما، تتهدل شفتها السفلىَ بميل خفيف، وتتوه في التخيل!! ثم يرن جرس (الكنيسة) الضخم بصوت مجلجل، ينتبه له (إيهاب) وهو يفحص (التليفزيون) المعطل، فيرى من مكانه جزءًا من قبة الكنيسة (البازيليكة) الرومانية الطراز، مما جعله يسترجع طيفَ (الراهبات الثلاث) وقت شروق النهار، على صخرته المفضلة التي يصطاد عليها أسبوعياً.

سألته، وهي تضع الصينية:

- تعرف تصلحه؟

يجيبها في ملل:

- الأفضل تشتري له "إريال".

- ممكن أطلب منك حاجة مع "إريال التليفزيون"؟

ينتظر تكملة كلامها، دون أن يعطي لها انطباعًا بوجهه.

- شريط أغاني لأحلام.. تعرفها؟

يرد باستهانة:

- سمعت عنها.

تعطيه النقود، وتزيد عليها، كأنها تعطي له (بقشيشًا) بنفس التفكير والأسلوب الذي اتبعته مع (آلاء)، فيعيد لها ما زاد عن مقابل الشراء، فتخبط على صدرِها، صارخة:

- والمصحف أزعل منك، أنا -مهما كان- أقرب الناس لك، وأقرب لك من (أمك) نفسها.

قفزَ الغضبُ في عيني (إيهاب) لسقطة لسانها، ولم تعرف (فادية) كيف تعتذر له، فخطفت منه الجنيهات الزائدة، حتى تطفئ بدايات حميته، يقف متشنجًا أمامها، وهو لا يدري أيصرخ في وجهها؟ أم يرمي لها النقود عقابًا لها؟ لكنه وجد نفسه يتجه خارج الغرفة، تقتحمه المناجاة:

-"ملعون من يقترب منك بعد اليوم، ما كان لي أن أتساهل وأقترب بجوار لسانك المؤذي.. ذَكّرَتني بها، ذكّرتني أنها لا تعبأ بوجودي، رغم أنها...أمي!!..يا تري أين هي؟! في مكان جديد بآخر بلاد الكون؟ أم في مكان قريب بأقرب مما أتصور؟!".

طافت فحوى هذه المعاني في نفس (إيهاب)، وهو يمضي نحو باب الشقة، لا تزايله وساوسه، ولا يتركه صوت (فادية) اللحوح بعلو الصوت:

- يا إيهاب... إوعَ تنسى شريط (أحلام).

-22-

نافورات متباينة الطول تتراقص على طول الشاطئ، تنشأ من ارتطام الموج بالصخر في حومة طقس خريفي غاضب، يفور فيه زبد البحر برغوته عبر مساحات من اللون الرمادي القاتم للمياه. لم يعبأ (إيهاب) بحالة الجو ممسكًا ببوصة الصيد في هدوء على صخرته العريضة، يدور بجواره حديث جانبي بين (محمود) و الطفل(عثمان) بائع (غزل البنات).

– والمسألة مرضية آخر اليوم يا عثمان..؟

– ساعات وساعات، لكن المشكلة إني أجري بعد المدرسة طَيَران، استلم البضاعة من صاحب الدكان، وأسرح بعدها طول اليوم، وعلى حسب رزقي، وآخر اليوم أرجع أنام، فلا أعرف أذاكر، ولا أعمل واجب المدرسة.

يشترك (إيهاب) في الحوار، وهو يرفع البوصة:

– لكن أنت قلت لي يا عثمان إنك شاطر في المدرسة..

يداري (عثمان) وجهه وراء أكياس الغزل المعلقة على خشبة طويلة، فيقتنص (محمود) الفرصة، ليداعب (عثمان) كما يحب من وقت لآخر.

– قل لي لو انت شاطر.. واحد وربع + واحد.. يساوي؟

يرفع (عثمان) أصابع يده، وينظر لها، وهو يحسب بها:

- جنيه وربع زائد جنيه، يبقي كله 225 قرش.

يضع (محمود) يده على كتف (عثمان):

- شاطر وابن سوق "يا عَصَاعيصو"، اتفضل يا معلم.. حق تعطيلك ووقفتك، (يناوله ورقتين من الجنيهات)، ابسط يا عم....

يمسك (عثمان) النقود بقبضة يده الصغيرة باحتياج، ثم شرع يمسح قطرات البحر التي التصقت بأكياس الغزل (النايلون)، ونهض ليعلن عن بضاعته عند قدوم بعض البنات والأولاد. ينفخ في البُوق، ثم ينادي بصوته الغض:

- حلاوة يا بنات.. يا غزل يا حلاوة..

ينظر (إيهاب) لصديقه الذي يجلس وراءه على أريكته:

- عدّى أسبوع كامل من غير ما أشوفها.. شيء يجن..

- لكنها قالت لك.. امتحانات الشهر والمذاكرة.

يسكت لحظة، ثم يكمل كلامه شاكيًا:

- قاعد وحابس نفسي يومين في البيت.

ينظر وراءه فلا يجد صديقه بعدها، ثم يلمحه يهم بالتقاط صورة لـ(عثمان) وسط زبائنه على حواف الصخرة.

-23-

دار شريط (الكاسيت) داخل الجهاز. فاستمعت (فادية) لأول أغنية بتمعن، ولكنها بعد لحظات، داهمها الاستغراب، ثم رمت نظراتها الغاضبة تجاهه...

- أنا قلت لك "أحلام" يا إيهاب؟ انت ضحكت عليّ!

فاجأته حدتها واتهامها، فانبرى مدافعًا:

- أنا أضحك عليكِ؟! اسمها موجود على الغلاف.

(يمسك لها بغلاف الشريط، ويلقيه أمامها بخشونة)

تنظر (فادية) في الغلاف، تحاول أن تقلل من حدة صوتها:

- أنا كان قصدي (أحلام) المصرية، وأنا لما سألتك لو كنت تعرفها، قلت لي أعرفها.. صح؟!

- أنا فهمت أنك تقصدي (أحلام) الخليجية، لأنها مشهورة ومحبوبة.

ترد عليه، بتعصب:

- وأحلام المصرية معروفة عنها مليون مرة..

يلتقط (إيهاب) الشريط صائحاً في استهجان:

– معروفه أيامك انت، أنا لا أعرفها ولا سمعت عنها، لكن... (يتمالك أعصابه بقدر، فيغير مجرى الحوار)، خلاص.. أحاول أبدل الشريط.

يذهب للشرفة المفتوحة، رغم إنه كان قاب قوسين ليعود لغرفته، ولكنه أراد أن يتنفس قليلا من الهواء قبل النوم، في الوقت نفسه انشغلت (فادية) بالاطمئنان على صورة (التليفزيون) بعد تركيب (الإريال) الجديد الذي اشتراه لها مع شريط الأغاني، بعد بضعة أيام من انقطاع كلامه معها. أغلقت الجهاز وانتبهت له، فذهبت لتقف بجواره، وقد هدأت حدة سخطها، يظل الاثنان بجوار بعضهما، لا يتكلمان، كل منهما ينظر في اتجاه، ويكتفيان بالنظر على الشارع بأضوائه الليلية. يبدو الشارع تحتهما خاليًا عدا (حنطور) يتمخطر آتيًا من الظلام، يسوقه زوج من الخيل تدق خطواتهما على الأسفلت الأملس.

ودون أن تنظر نحوه، اشتكت له بطبقة صوت يشوبها القلق:

– أنا.. على الآخر.

لا يلتفت (إيهاب) إليها، وظل مثبتًا ناظريه على حركة الحنطور المتهادية، ثم يرد عليها بلهجة ساخرة:

– كابوس جديد!!

– لا جديد ولا قديم يا سيدي، إنما واقع ابن كلب!!... عندي استشارة يوم الخميس، يعني لازم أرجع للحُقنّة.. حاجه تعلّ!!

– الحقنة ضرورية؟

– ضرورية جدًا لأن الرعشة (تريه حركة ارتعاشة يديها، وهي تنظر له).

– إنما انت تعودت عليها من مدة؟

– الدكتور كل ما أروح له يصر عليها، ويكتبها لي في (الروشتّة) لكن ألمها....

بدت ملامح شفقة على صوته، وهو يسألها:

– يا ترى الدكتور نفسه متابع حالتك من وقتها؟

– من خمس سنين، في الأول كنت مرتاحة له، لكن الحكاية طوّلت، وهو ذاته قال لي إن حالتي النفسية لا يمكن تتحسن إلا إذا جددت حياتي، وإلا أقعد طول عمري على الأدوية وغرز الحقن، فكرهته، لكن كلهم نفس الشبه والعلاج، وإن كان هو أرخص من غيره..

يبدو على (إيهاب) الاهتمام وقد التفت لها، وهو يضع قدمه بين فراغات السور الحديدي، فيستفسر ببراءة:

– جددت حياتك! بمعنى...؟!

تخفض (فادية) نظراتها، وتبعد وجهها للناحية المقابلة، لتفكر في الرد المناسب على سؤاله، في حين ترى عيناها أسفلت الطريق يلتمع بأنوار سيارة مسرعة، وقالت:

- يعني.. أسيب البيت هنا، وأرَوّح لبيتي، لو عريس يتقدم لي.. مثلًا.

تجثم لحظات خرساء، لا يعرف كيف أو ماذا يقول، وراحت أنامل (فادية) تبرم وتعقد شعرها، ثم تفكها في انفعال دفين، كأنما طال انتظارها لكلمة مريحة منه، أو نظرة متفائلة، فترفع من معنويات روحها، انتظرت منه أن يتكلم، بَيْد أنه ظل مستغرقًا بنظراته في ظلام الأفق، الذي غاص فيه جرس الكنيسة الوقور، ثم حرك رأسه بعيدًا عن نظرها، مغيرًا دفة الحوار قائلًا:

- الجو فيه لَسعة برد!!

لم يقدر أن يجاريها فيما تحتاجه من مشاعر، أو كلمات لطيفة منتقاة، وإن خطر له بالفعل قبل نطقه بملحوظته الفجائية عن برودة الجو، أن يتكرم عليها بجملة مشرقة من باب المجاملة، لكنه لا يعرف، أو قد يكون غير مقتنع بالتعاطف العميق مع حالتها التي قد تتغير في أي لحظة إلى النقيض، فتتحول إلى كائن شديد الإزعاج... لَبثَ ينتظر قليلًا، لترفع عنه الحَرج، إلى أن عَقّبَت على ملحوظته المفتعلة، بعد قشعريرة برد دغدغتها:

- لكن، حلوة!

غيرت وضع ذراعها فوق الجدار، وعاد الاثنان كما كانا، ينظران صامتين إلى نقاط ضوء تبتعد.

-24-

نهار ذهبي يطل من شباكي ممر الصالة، فيغمر البيت بألق السكينة، كما يبدو على وجه الأم (زينب) وهي تتمرن على المشي بمساعدة (إبراهيم) الذي يمسك بذراع أمه، ويسيران معًا ببطء من أول ممر الصالة، يَخُرّ من (إبراهيم) الكلام بلا ضابط، حتى ينتبه لأمه التي وقفت من فرط الإعياء، بجوار الباب المؤدي لمدخل الحمام، فيعاتبها بغيظ:

– يا ماما فُكِ رِجْلك...فُكِ رِجلْك!!

تزوم (الأم) في ضيق من تعنيف ابنها، وهو يعدل من ساقيها المتخشبة بيده الغليظة:

– التمرين علاج لا غنىَ عنه، فاكرة كلام (منى) لما حذرت، كل مرة أكرر لك نفس المعلومة!! حاولي...

تكابد (الأم) لرفع قدمِها، وقد شدت عضلات جبينها من شدة العناء، لتخطو خطوة جديدة فى مشوار تحس أن لا آخر له، حتى تجاوزت منتصف الممر تقريبًا، وبنبرات صوته العالية يتذكر قائلًا:

– يا سلام يا تانت "أُونّدا– onda".. كانت أوفىَ واحدة وصديقة عمرك.

تقف (الأم) بأنفاس متحشرجة، وترسل نظرها نحو صورة صديقتها الإيطالية (أونّدا) الموضوعة بنهاية الممر فوق قاعدة نصف دائرية من الرخام، تعلوها مرآة كبيرة.

– لولاها ما كنا عشنا في الشقة، (جمال عبد الناصر) طرد الأجانب من عندنا، وهى تنازلت لنا عن شقتها قبل سفرها، وبواسطة المحافظ أيامها، هو كان اسمه...؟.

تومىء (الأم) بيدها له بما يدل أنها تريد أن تكتب خطابًا لصديقتها الإيطالية، فيفهم (إبراهيم) مقصدها.

– حاضر.. أكتب لها الجواب، وتحكي كل ما بدا لك لصاحبتك، وعنوانها في (نابولي) عندي في الدرج، يا رب تكون بخير.

يظهر (إيهاب) خارجًا من غرفته، فيقابل جدته، وأباه في ممر الصالة أثناء توجهه نحو باب الشقة، فيبتسم لجدته في عجلة، ثم يعطي لهما ظهره، بعد ما ألقى السؤال المألوف:

– محتاجين حاجة؟

يستكمل (إبراهيم) سيره، وهو يصحب أمه نحو آخر الممر:

– هات ستة أرغفة (فينو) من عند صاحبك.

يقترب (إبراهيم) لنهاية المشوار، وتستريح (الأم) فوق كرسي بجوار المرآة، وتنظر عن قرب لصورة صديقتها الإيطالية، المحاطة بإطار خشبي أنيق، وبجوارها بعض الصور العائلية الأخرى.

يعود (إبراهيم) لثرثرته، حتى توقفه (الأم) بصوت غضوب، ثم تحرك إصبعها تجاه الصورة ليقوم بسحبها من فوق قطعة الرخام، كي يضعها في الغرفة بجوار سريرها، عندما ينتهيان من التمرين. كانت الصورة لصديقتها (أُوندا- onda) ترتدي قبعة مطرزة على أحدث صيحات العصر آنذاك، وتنظر للكاميرا بعيون مرتاحة.. تنم الصورة عن زمن تبعثر، لكنه ظل حيًّا داخل ذاكرة (الأم)، تحاكيه في سراديب النفس، ويهوّن ليلَها العابس حضورُه الدؤوب، تتعايش في حوادثه، تكلمه بصوت خفي، فتسترجع رفقة الصبا.

يوقفها (إبراهيم) لتستند بظهرها على الحائط وتلتصق به.. رَنَا إليها، وهو يراها تجاهد لترفع رأسها، تسّح فوق عينيها مُلوحة العرق، لكنها تشد قامتها، وهي تنهج رافضةً الجلوس، كأن صورة شريكة زمنِها، أعادت لها قدْرًا من الصلابة. داهم (إبراهيم) شعور قاسٍ، فأمه التي كان يهَابها صغيرًا، ويجري منها خوفًا لإهماله المدرسي، أو عندما كانت تقرر له قراراتها النافذة الصارمة، لتصحيح سلوكه.. ها هو جسدُها أمام أمِّ عينيه، ذراعاها مفرودان بالمسطرة على جانبيها، لا تنظر يمينًا أو شمالًا في ذلة المذنبين، وقد قصر طول قامتها، شاخت قوتها، تيبس جلدها، تسلل العجز لمفاصل حركتها.. يومًا بعد يوم!

قرأت (الأم) أثناء وقفتها معنى ما يدور في خَلَدِه، فأمرته بحزم أن يقوم بالعَدّ، فهي تكره الانسياق وراء شعور الإشفاق، لكن يظل ابنها مثبتا الطرف نحوها، يمسح عرقها بقلب يرق، فعاودت إشارتها له بأَنَفة ، فبدأ يعدّ من واحد إلى عشرة، ليشجعها على الصمود مصلوبة

الطول حتى نهاية التمرين العلاجي في مدته الواجبة. كانت الأرقام تنطلق من حنجرته (1.. 2.. 3..4..)، في حين يزداد تدريجيًا بداخلها الإحساس بحلاوة الانتصار، فتَشد عُنقها، وتجدد محاولة رفع رأسها، كلما خذلها ارتخاء العصب. في حقيقة الأمر لم تكن (الأم) ترغب أولاً في مقاومة مرض الشلل، أو التصدي لتيار الزمن، لكنها تصر فحسب أن تهزم ذلك النزغ البغيض، الذي يُوسوس في داخلها، عن جدوى وجودها حتى اليوم، في هذه الحياة!

-25-

(تابُوزِيريس)، أو (دير الزجاج)، أو (برج أبو صير)، جميعها مسميات عرفتها أوراق تاريخ يمتد إلى أول قرون المسيحية في مهدها بالإسكندرية، عند تلك الربوة المطلة على ساحل البحر في بداية الطريق المؤدي إلى مرسى مطروح، حيث يظهر (برج حجري) تواجهه في المقابل أطلال معبد، أو دير انطمست صوامعه، التي كانت مثوَى أوائل الرهبان. وعلى المدى تتراءى أشجار التين بأغصانها المنحنية وراء البرج، على قمته يطل وجه (بوسي)، وهي تنظر نحو سيارة (محمود)، لحظة وصولها ساحة الأثر التاريخي الذي يتفقده بعض السائحين بإجلال.

تُخرج (بوسي) من جيبها قطعة فخارية، مثل التي تمتلئ بها أرضية المنطقة من شَقَف الفخار الروماني، ثم ترميها باتجاه (إيهاب) فور خروجه من السيارة، فيرفع رأسه تجاه البرج، فيراها تلوح له أعلاه..

صعد السلالم الضيقة مهتديًا بشعاع الشمس الذي يتأرجح مارًا من فتحة البرج العليا، فتقابله (بوسي) وجهًا لوجه.. تتعانق العيون، تندفع نحوه بلوعة الشوق، فتشتد أعصابه، ويغشاه بعض الارتباك، يصبو الاثنان لمناهل الغرام، يتملكهما جنون الشَطْط، تلمس أناملها خده، فتسكب في قلبه رنين الرغبة، ثم يولج ظلها في ثنايا ظله... توارت بينهما لغة الكلمات الصماء، وأوشك بجوارهما الحجر أن ينبت من نفثاتهما ورودًا ترقص، عندما تدلل عنقود حروف كلمتها له:

- حَ بِ ي بِ ي!!

تستقر لحظتهما الآنية، يكللها الشعور بالأبدية، كأنما نقش الوجدان فيهما سطرًا، لا يمُحى من أسفار القلوب البِكْر...!

- يا عيني.. يا عيني..

هكذا أوقف (محمود) زَخّات الهوى الهائم حولهما، فتنبها لوجود عالم آخر، لا يزال حاضرًا خارج حدودهما الفيزيائية، تتسع عينا (بوسي)، وهي تقف على أطراف قدميها، وترد بطريقتها الظريفة:

- أين كنت يا مستر محمود؟

يردُّ عليها، وهو ينظف عدسة كاميرته من بعض الغبار:

- نحن هنا يا تلميذتي...

تضحك (بوسي) ببراءة، وهي تحكي:

- "المستر" والفصل كله رجعوا المدرسة بعد الرحلة، وأنا ضحكت عليهم، بعد ما داريت نفسي منهم في البرج.

ينظر (إيهاب) إليها، سعيدًا:

- فكرة جميلة، أنا لما عرفت من تليفونك، قلت في نفسي يا ترى المكان قريب؟

قبل أن يستطرد في تساؤلاته، تمسك (بوسي) بيده، فتشده لأعلى البرج، ومعهما (محمود) يجهز كاميرته للتصوير، ووراءهم يصعد وفد من السائحين، برفقه مرشد شاب يتحدث الإسبانية. تصل (بوسي) لقمة البرج الأثري فتتوسطهما، على وجهها تلهو روح الدعابة:

- بُصْ يا سيدي انت وهو، واسمع حكاية الدير أو المعبد، بعد ما شرحها لنا أستاذ التاريخ، بالتفصيل والتطريز.

تنظر لهما، وهي تعدّل من ياقة قميصها السَماوي، ترفع أنفها الرقيق لأعلى في استعلاء تمثيلي، تتهيأ معه للاندماج، وقبل أن تكمل كلامها عن حدوتة تلك المنطقة التاريخية، ترفع إصبعها في وجه (محمود) تحذره بنفس الاندماج التمثيلي:

- لكن من غير مقاطعة لو سمحت.

يرد (محمود)، وهو يخرج (كيس شيبسي):

- حاضر يا (مستر)، لكن ممكن أقَرقش (شيبسي) بالخلّ؟

تدير (بوسي) ظهرها، وهي تمنع ضحكتها حتى لا تفسد لها دورها التمثيلي، ثم تنظر نحو الدير البعيد البادي من قمة البرج، في حين خلفها ترتفع كاميرا (محمود)، تلقط الأحجار المستلقية على فوق الزمن الموءود.. تتلو (بوسي) بشفاه متأنية ما وعته من شرح (مدرس الفصل) منذ دقائق قليلة، حيث تتناثر قطع الفخار الرومانية المكسورة على امتداد أرض المنطقة، وتنطبع آثار من رسوم الحيوانات المقدسة على الجدران شبه المنهارة لقبور رهبان المسيحية، إذ كانوا في البدء فوق نفس التراب يتجادلون، يتحاجحون، ويتعبدون. يعلو صرير الأقلام البوص على صفحات ورق البردي، تنسخ بالحروف اليونانية نصوص (الأناجيل القانونية) ، وغيرها من الكتابات اللاهوتية والفلسفية، وتُتَداول سرًا الأناجيل غير القانونية (المخفيّة) قبل تهريبها إلى الصعيد، ثم دفنها خوفًا من الغضبة الدموية لبطريرك الإسكندرية (اثناسيوس)، وسُيوف رجاله الباترة آنذاك.

ولاتزال سفن الرومان البالغة الطول والارتفاع تسافر فوق البقعة المائية بالساحل الشمالي، تحمل كل أنواع الحبوب من الإسكندرية الغنية، لتصديرها إلى (روما)، وتنبعث في دياجير البحر الأنوار من مشاعل المراكب، ومن أعلى (البرج الحجري) المواجه للدير ترتفع شعلة نار ضخمة، لترشدَ البحارة، في نفس الحين الذي تعلو فيه دقات الصُنُوج المعدنية، مع كلمات الترانيم الكَنسيَّة، ويتسامَى علواً معها دخان المشاعل المضيئة بطول البحر، كأنه ينصت حزيناً إلى تذكار صلوات، وطقوس المعزين المكلومين، وقت نياحة القديس (ساويرس

الأنطاكي) تحت ثَرى هذا الدير، يبكيه السُريان والأقباط، ويقيم بعدها الزوار النذور تبركًا لجسده.

لم تزل (بوسي) تُسْهب في الحكي متأثرة بأسلوب مُدرسها، ويتلون تعبير وجهها في حوادث الأزمنة الأولى الميلادية، خاصة عند بدء بناء (دير الزجاج) فور الانتهاء من إنشاء مدينة (الإسكندرية- البطلمية)، وتظل تجدف بخيالاتها المرهفة من عصر محتشد بالأساطير، إلى عصر آخر يكتنفه الغرائب، مع زلزلة هدير الأمواج، وتَتَابُع فصول الدهر، وبعد مرور عهود زمنية على رسالة السيد/ المِسيح، فتسترجع - كما حفظت- كلمات (على الشابشتي) أمين خزانة كتب الخليفة الفاطمي، عن علو شأن هذا الدير، والمنطقة المحيطة به، وكيف كانت دقات النواقيس للأديرة المنتشرة على امتداد ساحل البحر بغرب الإسكندرية، وأشهرها (دير الزجاج)، تتفاعل وتدق معها، كل نواقيس الأديرة الأخرى، بطول الوادي شماله وجنوبه.

ثم انتهت من سرد حكايتها التاريخية الطويلة، ونزل الثلاثة ضاحكين للعودة إلى حياة الصخب، وكلمح البصر تتكسر قطع الفخار تحت عجلات سيارة (محمود)، في أثناء دورانها الجنوني مع صرخات (بوسي) وانتشاء (إيهاب)، وهو يرى ذروة فرحتها وطيران شعرها، خاصة عندما ارتفع صوت موسيقى (الراب-Rap) المحمومة بالتمرد ضد ثبات القيم، والمنطق الهندسي الرتيب، ويتطلع (الثلاثة) بأنظارِهم من سقف السيارة المفتوح، نحو أعلى البرج وتجاه سور الدير، حتى انقشعت غيوم التاريخ من دواخلهم، وبدأت (بوسي) تتذوق

قطعة (الشيكولاتة) التي أهداها لها (إيهاب)، ثم انطلقت السيارة بهم مُضيًا فوق أسفلت الطريق الساحلي، بمحاذاة ساحل البحر، تحتل مياهه السفن الأجنبية، والمتعددة الجنسيات للشركات البترولية. وتبدو حُمرة الشمس باتجاه الرحيل، لتستهل نهارًا رائقًا في المدن البعيدة، فتتمازج سبحات الهواء مع صبغة الغروب الدامعة قبل أن تفترق عن الإسكندرية، فتمنح مجالات الحس دفقة شعورية، يعرفها أصحاب المدينة، في حين لا تتوانَ طراوة النسماتِ عن التطواف الطلق في أروقة الشوارع، مثل شارع (العطارين) الذي يطوف فيه الهواء حول وجه (فادية)، يلثم بشرتها الناعمة، في الوقت الذي يتردد أمل جبان في عينيها، حيث تقف ذاهلة على أول الرصيف بنفس الزقاق الضيق، على ناصيته (محل الأثاث)، بعدما تعهدت ألا تعاود زيارته، لكنها خانت عهدها متعللة بأنها قد تلاقي (رَجُلَها) الذي تبحث عنه في زيارتها الجديدة.. وما أروع أن تتجسد مُنية النفس واقعًا ملء الحس، إذ يقف أمامها الآن، يُرتب بضاعة المحل من الأثاث الفاخر، فتعبر باضطراب الشارع، لتقترب من المحل في وجل، لعلها تلفت نظرَه، فتنجح في التقاط ترددات صوته، التي شابها بعض الترهل، لاقترابه من منتصف الخمسين. تداعب هبَّة هواء طرف طرحتها، تكاد تغطي وجهها، فتزيحها بسرعة، لتتابع كل لفتاته، وهو يتحرك بين أركان المحل، ثم تلحظ وجود الوحمة الحمراء نفسها، وراء أذنه اليسرى. تهمهم بكلمات باطنية، وهي تقف بجوار المحل، لكنه ظل موليًا ظهره لها، رافعًا بيديه كرسيًا مذهبًا مثل كرسي الأفراح، فلا يراها ولا يحس بوجودها... لم تجد ما تفعله سوى أن تكمل السير قانعة نحو طريق

الرجوع، بعد أن لخبطَها وجوده، تمر من بين الأزقة، تغلق فتحة شنطتها، فتفتحها ثم تغلقها بلا إرادة، لم تسمع دقات شاكوش (المنَجّد) مثل كل مرة، تعاود ذاكرتها استرجاع صورته، لتستبقي وَهَجَ الفَرْح جُواها، وتهبّ فيها قوة تقابل بها رصيد الماضي المحمل بزوابع الوجع، ثم تنبهت لطريقها هذه المرة وهي تعود للبيت، وتحاشت – عن وعي– النظر تجاه (سوق الكانتُو) للملابس المستعملة، وكل ما أهاج في عقلها التهيؤات السابقة العَفنة...

امتلأ الكوب الزجاجي بعصير القصب .

– الله يبارك فيك..

هكذا نطقت لترد على البائع تهنئته، وهي تتناول كوب العصير منه، ثم أدركت بعد وهلة من استغرابه البادي على وجهه، أنه لم يقل لها شيئًا، فاستبانت لغفلتها، بعد أن ظنت أنه يبارك لها، لا تدري كيف تخيلت هذا؟! لكن لا يهم الآن أيُ شيء، قد يُعكر صَفْوَ يومِها.. ترفع كوب العصير كي يبلل حلقها، تداخلت في وعيها الأصوات المحيطة بالشارع، واختلطت الوجوه بالألوان، ثم استكملت السير للبيت، وهي تلقي على نفسها السؤال:

"أأقابله غدًا؟، هل سيعرفني، سيتذكرني؟!"

كم تمنت أن تأخذها تلك الحيرة من زمن!!

"معقولة؟ هل حانت لحظة النظر للمرآه بالساعات؟ أبعد هذا العمر يُولد عمر آخر؟ سترجع لي روحي التي...؟".

لا يزال طعم العصير الحلو على طرف اللسان، مثلما لم يزل الشكُ يساور فرحة اليقين، تتعجل السير لاحتضان وسادتها، تحكي لها، وتحاورها، ستغمض عينيها، لتفتح بعدها نوافذ القلب على صورته، وملمسه.. هو!!

الظلام يبسط سطوته متأنيًا، وأنوار الشارع لم تتم إضاءتها بعد. فكرت قليلًا فيما لو تغير اتجاهها، وتعبر الشارع تلقاء سبيل (سيدي المتولي) لتتوقف عنده، وتتصدَّق بشيء يسير داخل صندوقه الموضوع، تحت النافذة الأرابيسك، فما أشد احتياجها لكرم الله، ومع ذلك ألغت الفكرة، فالقوة المبهمة التي تقودها بفعل انجراف مشاعرها، تدفعها للأمام في خط لا يحيد، أو كما لو أنها خشيت أن أي حركة يمينًا أو شمالًا، قد توقظ وعيَها المسلوب بروعة المفاجأة.

مصعد العمارة في انتظارها هادئًا، يحتوي سرَها، ويسحبها بدقات قلبها المتصاعدة، تتفحص وجهها في مرآه المصعد الطويلة، فتلمح التجاعيد، وارتخاء الجفون قليلا، تظل تتماهى أمام صورتها المنعكسة على الزجاج المغبش، إلى أن يزفر (المصعد) زفرته الميكانيكية المميزة عند توقفه، فتدلف لداخل البيت، وقد نسيت إن كانت قد أغلقت الباب وراءها أم لا. ماجت في نفسها المشاعر المركبة، تفُك دبابيس طرحة حجابها بحركة آلية، وهي تسرع الخُطى نحو حجرتها، وتشد عضلات وجهها مضطرة، فور مرورها أمام غرفة (أخيها وأمها)، لكي تَكْبِت وتمنعَ بداخلها صرخات الفرح.

-26-

– أنا استشرت أستاذ النفسية والعصبية بالمستشفى عندنا، فقال لي لازم يعرف نظام العلاج المستعمل لحالتها، وغالبًا السبب الفسيولوجي هو في مادة اسمها (الدوبامين-Dopamine) ومشتقاتها في المخ، وهي المسئولة عن وجود الهلاوس والتهيؤات عندها، وباختصار نصحني بأن الحوار مع المريض بلطف، واهتمام ، عامل أساسي لتحسن الحالة وشفائها.

يرد (إبراهيم)، وهو يناول (أمه) كوب الماء:

– لكن أنا حاولت.. فاكرة يا ماما؟

أردفت (منى) بصوتها الهادئ:

– وجود إنسان أمين جنب (فادية) ترتاح له، شيء حتمي، لأن وحدتها خطر، ومضاعفاتها محتملة بنسبة كبيرة.

– (إيهاب) قريب منها معظم اليوم، يا رب يصبر عليها.

– بصراحة أنا متعاطفة مع ظروفها، وإن كانت حالتها المرضية – على ما أظن– أخَف من بقية الحالات لنوعية المرض نفسه.

تقف بعدها بقامتها المعتدلة، ثم تولي نظراتها للأم، وتقترب منها:

– حضرتك تقدري تلغي الدواء، ونقتصر على حبتين، لأن الضغط عندك عادي جدًا، والحمد لله.

ينتظر (إبراهيم) تحركها لخارج الغرفة:

- زِهقتِ منّا بسرعة (يقولها بلهجة استعطاف).

- بالعكس.. إنما عندي شغل لآخر الليل في المستشفى.

عند باب الشقة وقفت (منى) أمامه، ومدَّت يدها له تسلم عليه، تطيل النظرة على غير ما تعود منها، ثم أنهت نظرتها، وسحبت يدها، وهي تقول له بنبرة رقراقة:

- رينا يوفقك على قد تعبك، في رعاية والدتك، يا (إبراهيم).

اختفت من أمامه، وهو لا يشعر بنفسه، بقي متجمدًا أمام باب الشقة المغلق بعد رحيلها، جرفته رغبة عارمة للكتابة بعد أن ضَنّ قلمه عليه بأي كلمات منذ مدة، لكنه يحس بالإلهام ينبض، فيذهب نحو حجرته، لكنه قبل أن يصل، يعود مرة أخرى مستحضرًا من عوالم خياله ما تجود به من معين الشعر، ليرسم قلمُه بصدق، ودقة، مكنون مشاعره.

يهرش رأسَه مرة أخرى، ثم ينظر للسقف، وهو يصرخ من فشله في إيجاد البداية التي يرتاح لها، يتوقف عند مدخل الصالة، ويخبط بيده على الباب، كأنه يعصر تلابيب ذاكرته الانفعالية. يبدو في حالة مخاض فني، يخشى ألا يسفر عن شيء. يتمشى في الممر، فدَبّ في دواخله لحن يتوق للاكتمال، حتى جلس أخيرًا على طاولته الصغيرة في ركن الغرفة، وتشهد (أمه) لحظاته الغارقة في الجدية والتجهم، بعدما سحبت أصابعُه القلم.

ـ27ـ

– أنت هنا يا إيهاب؟

قالتها (فادية) ببشاشة عند دخولها المطبخ،حيث وجدته بملابس الخروج، يفتح حلل الطعام الموضوعة فوق البوتاجاز.

– أنا ميت من الجوع (يضرب بخفة غطاء الحلة على حوافها ليحدث رنينا، كنوع من المزاح).

– عارفة! عادتك من زمان. تنسى الأكل طول اليوم، ونفسك تهف له بالليل.

يبدو (المطبخ) على مساحه من الاتساع، وعند الحوض الأبيض الرخامي العريض، تقف (فادية) بقميص نوم فضفاض، على شعرها القصير طوق (بمبي) فاتح، تفتح الحنفية النحاسية، لتغسل بعض الأطباق، في حين يمكث (إيهاب) واقفًا بجوارها، فتلاحظ (فادية) وجود بعض الرمال على ملابسه، فيجيبها قبل أن تسأل:

– كنت في الساحل الشمالي..

تضع (فادية) الطبق بسرعة، ثم يَعلُو صوتها بلهجة طفولية:

– أمنيتي أروح المعمورة، والنبي يا إيهاب.. ولو مرة واحدة وبس!

يتحرك (إيهاب) من جوارها، ويستدير للخلف، ليجلس على أحد الكراسي التي تحيط المنضدة المعدنية.

- إن شاء الله.. (ينتبه لكثرة الصابون والرغاوي التي تغسل بها الأطباق، فيزعق لها متعجبًا) الطبق اشتكى من الصابون الوهمي، ناقص تغسليه بالشامبو..!

تشوح بذراعها له، وهي تلتفت برأسها نحوه:

- اسكت وحياتك، أنا لازم أضمن، ممكن يكون عليه أي حاجة مسمومة!

تعود بنظرها نحو الحوض، وهي تميل قليلًا بجذعها نحو حنفية المياه، لكنها تلف جذعها نحوه ثانية، بعد ما تذكرت شيئًا.

- (منى) كانت قاعدة مع إبراهيم، وكان صوتها واطي.. واطي (تكرر الكلمة كما لو أنها تشتم).

لا يعلق (إيهاب) عليها، ويظل يتأمل رغاوي الصابون تتكاثر على قميصها، فتعاود تكملة ما تكتمه في صدرها:

- دمها سم، طول عمري اتجنبها، من أيام ما كنا نلعب زمان، وأخوها كان يدافع عنها في (السَقْطة واللَقْطَة).

- أخوها؟!

- أخوها هاجر كندا، وساب لها الشقة تمرح فيها، لأنه إنسان عنده أصل، غير (إبراهيم) الحرامي!

يزغُر لها بعينين جاحظتين، فتكف عن الكلام، ثم تقترب نحو الحنفية، لتشرب بشراهة. لبث يراقب حركتها الطبيعية داخل المطبخ،

حيث تفتح باب المطبخ الداخلي المطل على السلالم الخلفية للعمارة أو(باب الخدم) كما يُعرف، فتضع كيس القمامة (البلاستيك) عند عتبة السلالم الحديدية، فيُحدث كعب شبشبها صوتًا متلازمًا مع خطواتها، وبعد أن أغلقت الباب، نظر لها رافعًا صوتَه، إذ تعطي له ظهرها عند دُرج (الملاعق) بآخر المطبخ، وبلهجة يشوبها التحذير، قال لها:

– نسيت أقول لك.. أنا ناوي الصبح أشوف صاحبك، وأفتن عليك.

خرقت أذنيها كلمة (صاحبك)، فوقعت الملاعق من يدها في الدرج، ظلت واقفة في مكانها، دون أن تستدير نحوه، ولجأت إلى الصمت، إلى أن يوضح لها مقصد كلمته المريبة.

-28-

سدّت القاطرات الثلاث للترام (الأزرق) ناصية سوق (زَنَانيري) الشهير، قبيل مغادرته محطة (كليوباترا). تتكشف بعدها معالم مدخل السوق شيئًا فشيئًا لعين الرائي القادم، عند أول الشارع المتعامد مع مكان المحطة المرتفع نسبيًا، وبالتزامن مع بدء حركة (الترام) البطيئة يغادر المحطة، تكتظ بداخله كتل الأجسام، تحت وطأة نهار عمل مزدحم..

يُظهر (إيهاب) ضيقه:

– الترام ماشي بسرعة عصر الفحم، أنا مستعجب إنك قادر على ملل السكة نفسها.. كل يوم!

لا يلوح على وجه (عم كامل) انفعال، ثم يرد بلهجة من عركته الدنيا:

– مسألة تَعوُّد، وأعصاب.. الفُرجة على الناس، وعلى حركة الشوارع قدام عينيك من شباك الترام، موضوع يصعب شرحه.

تظهر على (إيهاب) أمارات التردد، وهو يبلغه:

– شرحك يجوز يفيدني جدًا في موضوع أهم عندي من شباك الترام، أنا باختصار مشغول في مشروع خطوبة مع واحدة أعرفها، وفيه تفاهم بيني وبينها.

يصوب (عم كامل) نظرة فاحصة لوجه (إيهاب) المواجه له:

– لكن واضح..إنك عزمت؟

لم يجبْ، ظل ينظر لعم كامل، ليلهمه صواب الرأي، في حين لا يدري، هل سيأخذ به أم سيمضي في تنفيذ ما يعتمل به فكره، أو بالأحرى ما يتحرق به وجده؟؟ ارتفع لَغط الزحام، وزعيق الناس، فانتظر (عم كامل) بعض الهدوء، ثم سأله:

– لقيت فرصة شغل؟

قالها له بغتةً، كأنه أراد أن يذكره بغلظة الواقع، فأجابه:

– اتفقت على شغل بأجر محترم .

يتنفس (إيهاب) الصعداء بعد جملته، ظنًا أنه أطاح -لحظيًا- بحمل مشبع بطنين القلق، مُفاده الإدراك المهين بأنه لايملك دخلاً مضموناً، مثله مثل الملايين من الشباب، فضلاً أنه غير واثق بتحقق فرصة الشغل المؤقت بالمركز الثقافي التي أتاحها له صديقه، كما أنه لايزال يَسْتَنكف العمل بصفته (كهربائياً) في أي مكان لايليق بوضعه الاجتماعي، فيكتفي مُرغماً بالتعامل المحدود مع المِعارف والأصحاب فقط، يُصلح لهم معداتهم في حجرته الصغيرة.. وهكذا يظل ينتظر، وان كان يوفر بعض المال، ويضعه جانباً، كي يُعينُه، وقتما يحين أوان السفر الذي يحلم به، بعيداً عن بطالته في بلده، فكيف له – منطقياً – أن يفكر في الزواج الآن؟!!

يصدر صوت فرامل عجلات (الترام) دويًا، ويحدث انقلابًا بداخله، فيرتمي الركاب الواقفون بعضهم فوق بعض، تنفرط كتلة أجسادهم الملتحمة، وتتساقط أشياؤهم مع صرخات الفزع من النساء، حمى (إيهاب) جسم (عم كامل) من الانكفاء، فأحست قبضتا يديه عظام الجسم الناتئة، واستشعر هشاشة قوامه المستور تحت قميصه الواسع، ويشير (إيهاب) بوجهه علامة صحة رأيه في هذا الشيء المزعج الهالك المسمى.. (ترام)، لكن (عم كامل) الذي عاد لوضع قعدته الطبيعية، رد على إشارة (إيهاب) بنظرة، لسان حالها يقول:

– " ولا يهمني... "

تواصل عجلات (الترام) مشوارها، وسط تصايح لعنات الركاب على إهمال السائق، وفوضى الشارع والمرور..

- تصور إني نسيت!

قالها (إيهاب)، وهو يناول (عم كامل) علبة متوسطة الحجم مُحكمة الغطاء، فيحاول بدوره تناولها بحرص، وهو ينصت لما يقوله (إيهاب):

- صاحبتك أصرت أنها تعمل لك حاجة، لما عرفت إني ناوي أشوفك، وصيتها لك أنك تسخن الأكل بسرعة، لما ترجع.

طأطأ (عم كامل) رأسَه، وهَمس له:

- ربنا يحفظها..

وقبل أن يدير وجهه نحو الشباك، دس يدُه داخل جيب قميصه، وأخرج كيسًا ورقيًا مربعًا، ثم قدمه لإيهاب قائلًا:

- هديتي لها... كيس بذور ريحان، بعد شهر تقدر تزرعه، وبلغها أن (عمها) مدرس الزراعة العجوز مبدأه: زرعك هو ابنك، يعني محتاج تربية، وطول بال، وحُب.

قوّس (إيهاب) ظهره شاردًا، فيَحدِجُه (عم كامل) بنظرة خبير، ويعطيه قلماً، مع ظهر تذكرة الترام :

- اكتب نمرة تليفونكم، لأني نسيتها، ولما أزوركم، تكون الأمور بانت أوضح عندك، وتقدر تقرر موضوع ارتباطك من غير استعجال.

وضع بعدها يدَه على ركبة (إيهاب)، ليوقف حركة رجلِه العصبية، فيعتدل (إيهاب) في جلسته، يأخذ نفسًا قصيرًا، وينظر نحو الشباك.

تدور أحداث نفس النهار المتْرَع بالضباب، فتنعكس إيحاءاته على مزاج (إبراهيم)، فبدا متعكرًا عند خروجه من غرفته. لا يلوي على شيء يفعله، أو لا يفعله، ثم يفاجئه قدوم (فادية) من باب الشقة نحو ممر الصالة، تجر شنطة سفر ثقيلة لا تقوى على حملها، فيوقف سيرها في حسم، ويعرف منها إنها شنطة خاصة بموظفة الشركة، تركتها عند (فادية) لظروف خاصة، فيزمجر (إبراهيم) أثناء ملاحقته لها تجاه غرفتها، لكن لا تعبأ (فادية) باعتراضه الصاخب.

تحاول (الأم) –مثل كل مرة– بأصوات متقطعة أن توقف هجمة ابنها، لكنه لا يزال مهتاجًا من مساعدة أخته لتلك (الموظفة) التي تنتهز الفرص، وتبتز سذاجة (فادية) ببجاحة، بل وتعمل في الشركة التي تسعى لطردهم جميعًا. لا يتوقف (إبراهيم) عن الصياح، مصرًا أن تفتح له (فادية) باب الغرفة، ليتحقق من محتويات الشنطة، فيرتاح عقله، لكنها ترفض دخوله، ويرتفع صوتها من الداخل بأن ما في الشنطة مجرد ملابس نسائية، فيصمم على التأكد بنفسه واقفًا أمام بابها، ويذكرها بأنه رجل هذا البيت، والمسؤول عن كل ما يحدث فيه، لكن يأتيه الرد منها، بأنه ليس مسؤولًا عنها، بعد ما عثرت على رجُلِها الحقيقي.. (إيهاب)، فهو الذي يحاورها، ويهتم بها. يبهت (إبراهيم) من ردها، فيغادر باب غرفتها، ويجرجر قدميه، ثم ببطن يده المكتنزة يخبط على فخذه، لعجزه عن فعل شيء.

-29-

من مرآة سيارة (محمود) الجانبية يلوح لون (إيشاربها) الكهرماني على خصرها النحيل، تربطه وتعقده بأكثر من عُقدة، فتفكّه من جديد، ثم تقرر تركه يهفو طرفه حرًا طليقًا، يلامس بنطلونها الأسود الملفوف على ساقيها العبلتين. بجوارها يقف (إيهاب) مستندًا على السيارة، يتابع بإعجاب تردد حبيبته الصغيرة في وقفتها، وهي تتفنن في صنع لمسة من الأناقة ترضي غرورها المراهق، ثم يشبك أصابعه في أصابعها المزينة بعدة خواتم ملونة، ويقومان ليتجولا في أرجاء مزرعة فواكه قريبة من مدخل مدينة (رشيد)، يقطف حولهما المزارعون والعمال (الجوافة الشتوية)، فينقلها (القفاصون) في أقفاص بعد صنعها من جريد النخيل المنتشر بوفرة على جوانب المزرعة، ثم يتم تحميل الأقفاص، مع الرص المنضبط على ظهر سيارات نقل، تصطف بانتظام منتظرة دورها، فتتحرك بعدها، لتملأ محلات الفاكهة بالإسكندرية، وضواحيها.

المزرعة يسودها جو عمل جدي دون ضجة سافرة، تتخلله أصوات جانبية بين بعض الفتيات العاملات، اللائي تمر (بوسي) من بينهن، فتخرج منهن ضحكات مستحية، ونظرات فضولية، ثم ينهمكن في العمل بجلابيبهن الطويلة، وألوانها الفاقعة.

تقطف (بوسي) ثمرة جوافة تغري بالالتهام من شجرة نائية، تغرز أسنانها في قشرتها الطيعة، ثم تغمز لـ(إيهاب) وهي تتلذذ، فتصدر

صوتاً يعبر عن استمتاعها بمذاق الثمرة المستوية، فلم يصبر (إيهاب) كثيراً، وسحبها خلف جذع الشجرة الضخم.

شراشيب (الإيشارب) الكهرماني تهتز بجوار خصرها الهضيم، تحك سبابتها على لحاء الجذع المتغضن، لتمسح ما تعلق عليه من عصارة الفاكهة، وبيدها الأخرى تحوط (إيهاب) من عنقه الدافئ، يلمس شفتيها بتمهل، فتتراخى أعصابها. تتمطى أصوات الغنْج، التي تخرج من بين أنفاس أنوثتها المستعرة. تذوق شفته الغليظة السفلية، فتذوب أكثر في العليا، ينّعصر خصرها بين ذراعيه، ثم يدخل وجهه في شعرها، فتموج حواس شفتيها في نهر شفتيه، وهو يمرر أعصاب ذراعه الواثقة، فوق بروزات جسدها، فلا تركت شفتيه، ولا شفتاه تنوي أن تتوقف، حتى طفرت منها زفرة وانية من حرقة الالتياع، فظلت تحدق في عينيه، كأنها لا تُصدق!!.

وعلى بُعد منهما يتجاذب (محمود) أطراف الحديث مع صديقه (صاحب المزرعة). في حين يظل المزارعون والعاملات في مجموعاتهم المرتبة، مع بعض التقاطعات الجانبية لمرور عامل -مثلًا- يعيد قفصًا لترتيبه، وتنقيته من الفاكهة المعطوبة، أو سائق يلف مبتعدًا بسيارته بعد تحميلها، أو تخترق (عاملة) من الفلاحات مجموعة لأخرى في محاولة لإسكات صراخ طفلها الرضيع على كتفها وقت الراحة.. انفرد (محمود) بالكاميرا، ليلتقط ضَمة شمس العصاري لحديقة الألوان، وإن فاته أيضاً تسجيل روح الوجوه المرهقة من هم العَوَز، لم يلتفت بصر (محمود) لدأب العمل المتوالي، بأيدي الفلاحين والفلاحات، يشدون

صدورهم المهدودة، لطلب المزيد من مخزون العافية، وفي كل الأحوال لا مفر لهم من العمل المضن في جَني الفاكهة، لتتذوقها الأفواه الأخرى. تلك الأيدي التي بها، ومنها، تدور تروس الإنتاج، فتملأ الجيوب، لكن لا تقترب من جيوبهم الخاوية.. لربما يرى (محمود) أن الكلمات السابقة عن حال الفلاحين والعمال مجرد حشو لغوي منمق، أو مبالغة مستهلكة لحد يثير سخريته، وهو ينشغل بإزالة الطين، الذي داس فيه بحذائه الجديد المستورد، بعد ما فاته بالفعل كل هذا الثراء الإنساني، ولم يسجله بعدسته، واكتفى فقط بتصوير الجمادات، وبهرجة التكوينات الشكلية، التي يسيل لها لعابه كمصور هاو. من الجائز، لأنه يريد أن يقدم نفسه لمجتمع المثقفين، وخاصة الأوروبيين كمصور بارع، يلتقط من العادي ما هو غير عادي، بما يرضيهم من وجهة نظرهم، بَيْد أن موقفه سيتغير، ونظرته ستتبدل عن اقتناع داخلي، كما سيخبر (إيهاب) –فيما بعد– في ليلة شتوية هادئة داخل المخبز...

يعود للبحث عن (إيهاب) فيلقاه مع (بوسي) بأقصى المزرعة، فيدلّهما على منطقة بها (بحيرة) صغيرة، يمكن الوصول لها من فتحة جانبية، على أن يلحق بهما، بعدما يقدم شكرَه لصاحب المزرعة.

عادت أمواج العوطف تعصف بمسالك الشعور في كليهما، بعدما وصلا لتلك البحيرة الصغيرة، تتلألأ الشمس على جنباتها، مما يضفي على الروح فسحة من زمن مائع، لا تحصره بداية، ولا تنهيه صرامة نهاية، فقد غفل الوقت عنهما، أو هو لأجل الحبيبين.. نام. يقعدَان

معًا على تعاريج الرمال التي تمتد في ليونة نحو الكثبان البعيدة، أشارت له عاليًا نحو بياض السحاب، يشرئب نحوه نخيل سامق مخضرا. ويندمجان بعدها في جوار الدائرة المائية، يحركان أيديهما على حافة البحيرة بخفة، تقطّرت المياه من بين أصابعها، فيأخذ يدها في يده، ينتقل بَلل أناملها لأصابعه، يمررها فوق وجنتيها، تدور عيناها مع دوران يده المبتلة حول رقبتها، وتستدير أصابعه رويداً، لتمتد لأعلى عند أذنيها الصغيرتين، يدعكهما بحنو ساحر، فيتّخَدر وعيها، ويرتجف قلبها. آهٍ، من رجفة مشاعر الحبيبة في عيون الحبيب!!

تعلقت بذراعه حتى طار (الإيشارب) من وسطها، فحاولت أن تمسك به معه. يرفعان ذراعيهما في الفراغ، حيث يَتجنَّح (الإيشارب) فوقهما ويراوغهما، يرتفع فيتسابقان وراءه، في أكثر من اتجاه، لا يهمهما الإمساك به بعد ما حلا لهما معه الطيران. وتغيب حروف الواقع عنهما، بل لو عاد الواقع لهما، لتمنى أن يعود معهما إلى ذاك الخيال.

تروح وتجيء حولهما رائحة البحر، ولا عجب فإن مدينة (رشيد) يلتقي في حضرتها البحر والنهر معاً، فهل تلتقي شهوة جسده بغريزة أنوثتها، لايحُولُ بينهما برزخ؟ هذا ما ألمّ بهما عندما توقفا واقتربا، يخفق الدم خفقًا في أوردة الإحساس، مال (إيهاب) نحوها، فبلعت ريقها متهيبة، ثم نظرت له نظرةً صريحة من سطوة الاشتهاء. نفخة واحدة منه لكتفها اللين، فيتهاوى جسمها الذائب على حصير الرمال، لينقض عليها، ويلتهمها. نعم..، يلتهمها، فلقد كَفر بالحب

المجرد، وأقنع نفسه بأن الحب من غير جنس، كالنظرية بلا تطبيق. يشده الخلاء للعصف بجسدها، وكشف سُتوره. لم يعد يطيق.. يريد أن يفرغ كل معاناته، وتوتره العاطفي، وغير العاطفي. لقد حانت اللحظة –كما عَنّ له– ليطلق فيها التردد والقلق من سوانحه.

– يا مُجْرم!!

سمعها بصوتها الممزوج بالإغراء مع التمنع، وهي تتركه وحيداً على الرمال الشاسعة، وتجري مرة أخرى نحو البحيرة الصغيرة، بعدما رأت في وجهه حمية خواطره. توقف في مكانه، ولم يتبعها، فقد ذكرته نفس الكلمة (مجرم) بالفتاة المثيرة (صاحبة محمود)، عندما قالتها له في المخبز، بنفس لوعة الصوت، وصراحة البَصَّة. ما الذي يغاير هذه عن تلك؟ هل تختلف عنها في التكوين النفسي والقيمي، أم كلاهما جسد يصرخ فحسب؟ لكنه أزاح على الفور من رأسه هذه الفكرة، وصحح لنفسه، بلهجة ليس فيها أي تراجع:

– "هي حبيبتي، وستكون شريكة حياتي، وهذا أهم اختلاف".

التمعت ذاكرته بسبب لقائه بها اليوم، فقرر أن يفاتحها بأمر ارتباطهما، ويرى رد فعلها، وقد أقنع نفسه أنها رفضت أن تتجاوب مع رغباته، التي فهمتها في عينيه ولفتاته، وحبست نفسها، وجسمها عنه في خلوة العراء المتاحة، وهو لا يسره أبدًا أن تكون زوجته من نوعية فتاة (مصنع المكرونة)، فتقدم نحوها مطمئنًا، وأخبرها مباشرة عن قراره بالارتباط بها. استغربت (بوسي) لحظات، تحرك رأسها، تتأمل حركة دوائر المياه، وهي تنمو واحدة إثر الأخرى..

- تخطبني؟! لكن أنا أحب أحس براحتي في حبك، أو يعني أعرفك، وتعرفني قبل ما... قصدي أن....

تردّدت، لا تدري ماذا تقول، ثم حسمت الأمر، وهي تنهض أمامه، فقالت له:

- لَمّا تنتهي الامتحانات.

وضعت نقطة فاصلة لنهاية جوابها على طلبه بالارتباط الرسمي، الذي طرأ على ذهنها، بأنه يماثل احتواءِ الثَمر قبل أوان القطْف. ثم عادت لحالتها، وشخصيتها المتراوحة بين الطفلة والأنثى الناضجة، وهي تجرب أن تمشي على أطراف أصابع قدميها، وتحرك ذراعيها باعتدال متكلف، ترفع ذقنها، ثم تسأله بلهجة محتارة:

- قل لي يا حبيبي، مشيتي فيها إحساس إني عيّله؟

ظلت تسير أمامه بنفس الأسلوب حافية القدمين على حافة الغدير في خط مستقيم، مثل عارضات الأزياء، وتنتظر رأيه. هز رأسه لها، وقد قطّب جبينَه، بعد ما أحزنه رأيُها، وعدم فرحتها كما توقع. كان يعتقد أن تلك اللحظات في هذا المكان الموحِي، ستشهد قرارهما معًا ببدء الاتفاق العملي لأول مشوار الحلم.. هكذا تصور، فخاب أمله!

ظلت تغير طريقة مشيتها مولية ظهرها تارة، وتارة تنظر له، تكرر له دون رابط أمنياتها التي تلازمها، مثل: (السيارة الفاخرة الأنيقة بخاصية الدفع الرباعي، السفر لإمارة دُبَي عند خالتها، فتدير صالون

التجميل معها ولحسابها فيما بعد، والتنقل كل عام بين محلات أوروبا، وشواطئها)، ثم تختم كلامها بصيحة الإعجاب والانبهار، بالإنجليزية الدارجة:

- واااو.. (فتحت فمها، وقبضت كفها في الهواء، كأن أمانيها تقترب من متناول يدها).

ظن (إيهاب) أنه سيستغرقه غضبه، وسيتخانق معها، أو على الأقل يعاتبها على فتور ترحيبها بطلبه، لكن فوجئ بتغير مجال تفكيره إلى محور آخر، فقد تسلطت عليه صورة وجه (عم كامل) تتوسط السحب الركامية، وهو ينظر له، بمثل النظرة الأبوية نفسها، عندما ناوله كيس بذور الريحان، ليهديه إلى (فادية)، جسّ (إيهاب) جيبه، ليتأكد من وجود الكيس الورقي.. لا يفهم لِما وثب في مدار عقله صورة (عم كامل) وكيس الريحان، دون أدنى مناسبة، وفي هذا التوقيت النفسي!! وإن كان يعرف بحكم هوايته وعمله أن دماغ الإنسان مثل (الكمبيوتر) أو العقل الإلكتروني المصغر، بداخله شرائح مثل الدوائر الإلكترونية. تلك الشرائح، أو الغُدَد، والفصوص الدماغية، وما يصل عنها، تتحكم في درجات التفكير وآلية الشعور، تُخزن بعضها ذاكرة ما مضي، أو تمسح منها ما تشاء، بل قد تتحفز فجأة صورة ذهنية أو موقف إنساني -حدث من قبل في وقت سابق- للقفز الحر مثل الإلكترونات النشطة، لتغزو شاشة العقل المصغرة...

- بسرعه قبل ما تتعطل..

صاح (محمود) وهو على الطريق الرئيس، حيث يغلق غطاء السيارة الأمامي، ويزيل من يديه سواد الشحوم، حاولت (بوسي) أن تشد (إيهاب)، للجري معها بطول المسافة التي تفصلهما عن السيارة، لكنه أشاح لها بوجهه، فجريت وهي تفتح ذراعيها، حتى وصلت (لمحمود) الذي أمسك بالكاميرا، وجعل يضبط عدسته على وضعها، وهي تحاول الجلوس على سقف السيارة، في حين ترتفع ضحكاتها في الطريق الملتوي المزدحم بسياراته الأجرة (الكاريكاتورية)- لقدم طرازها- المتجهة من (رشيد) إلى الإسكندرية، والعائدة منها.

تمشّى (إيهاب) على مهل، لا يشعر بشيء، كل شرائح وأعصاب دماغه باردة، لا يحس بثقل قدمه، وهو يثير بها التراب، يتعلق بيديه زوج حذاء (بوسي) بعدما نسيتهما معه. ينظر للغدير في طريقه، فيراه مطمورًا من بعض جوانبه، ومياهه تنحسر. فسأل نفسه في إحباط:

-"هل هذه هي البحيرة التي كانت من لحظات منبعًا للرومانتيكية؟! إنها ليست سوى بِرْكَة أقل من عادية، أم أنه – بمثل ما قال له ذات مرة (عم كامل):

-" غالباً لا نرى الأشياء كما هي، لكن كما تتراءى لمشاعرنا المتقلبة!".

ـ30ـ

– فَرَحك في خلال سنة أو أقل؟

– لما يرجع بابا من السفر إن شاء الله.

بدا على (فادية) الغيرة، عندما أخبرتها (آلاء) بخطبتها على (ابن خالتها)، في أثناء سيرهما في الشارع المجاور للمبنى الفلورنسي الشهير للغرفة التجارية، بأعمدته (الكُورنثيّة) وسط المدينة. كانت (آلاء) تشعر بأنفاس (فادية) المفعمة بالحسد، فندمت أنها رضيت بالذهاب معها، سعَت أن تتماسك، وهي تسير بجوارها، فلا تشعرها بضيقها.. تبدو رقبة (فادية) الطويلة كرقبة الأوزة، تصب نظراتها أسفلها نحو وجه (آلاء)، التي ودّت لو تصرخ فيها كمدفع وافر الطلقات:

–"ارحميني وجرَبي مكاني، وأنا منقوعة في همّي، اعرفي معنى العيش تحت عَض الفقر، و لك أب لا ميت ولا حي، لا عارفة له زنزانة، ولا قبر!! يعني..اعتقيني يا شيخة، وابعديني عن تفكيرك".

بادرتها (فادية)، وهي لا تلبث تلقي عليها شواظ نظراتها:

– عريسك له صنعة محترمة يا آلاء؟

توقفت (آلاء) فجأة عن السير، وهي تجيبها بصوت حازم:

– محامي.

استدارت (آلاء) نحو (الشاب)، الذي يفرش بضاعته من الجوارب وغيرها على طاولة فوق الرصيف، بجوار بقية الباعة من الشباب

الآخرين، في حين وقفت (فادية) سارحة، تردد في سرها، ما تضمر من مشاعر صفراوية:

-"محامي!! ارتبطتي بمحامي، يا بنت مبروكة!!".

تبدلت ملامح وجهها من طفح حزنها على حالها، وبقيت تتأمل (آلاء) في طريقة تعاملها مع البائع بلباقة، وضحكها الصافي الأخوي معه، لا سيما بعد ما عرف أنه يسكن في منطقتها نفسها. ثم بعدها أخذت (فادية) ذراع (آلاء) في ذراعها، ليكملا الجولة، فاضطرت (آلاء) أن تتأبط ذراعها على مضض. عادت من جديد تسألها، تحاول أن تخرج كلماتها بإحساس الأخت الكبرى، المهتمة بشئون صغيرتها:

- لكن الموبيليا أسعارها نار يا آلاء.. الله يقويكم، ويا ترى لقيتم الشقة؟

تُدخل (آلاء) الجوارب التي اشترتها في شنطتها، وقبل أن تجيبها تلتفت الاثنتان إلى دَربَكة، وصراخ، وذعر في وجوه البائعين، يهربون جريًا ببضاعتهم بكل قوتهم، كما لو أن هناك غولًا سيبتلعهم، ثم شاهدتا المخبرين، وأمناء الشرطة يضربون البائعين، ويقذفون ببضاعتهم على الأرض، وراءهم ضابط يلبس نظارة سوداء، ويشير لمساعديه على البائع الذي اشترت منه (آلاء) منذ قليل، حيث يهرب ببضاعته مختبئًا داخل الزحام، فيجري وراءه المخبر، ثم يوقعه أرضاً بجوارها، ويشبعه ركلًا بالأقدام، في حين تظل (آلاء) متشبثة بموقعها،

لا تتحرك قيد أنملة، بل تهم بشجاعة، لتَلم له بضاعته المنثورة على الأرض، وسط صيحات البائع تجاه ضابط الشرطة:

- البضاعة عليها ديون من قوت عيالي يا باشا.. اعمل فيّ ما بدا لك، لكن إلا البضاعة، ربنا يعزّك يا...

يرد (الضابط) الذي اقترب منه بصوت مَوْتُور:

- أنا عارف شغلي يا روح أمك.

تسحب (فادية) ذراع (آلاء) بقوة، وتنهرها للكف عن المضي في تجميع بضاعة (البائع الشاب)، فلا تأبه لمحاولات (فادية)، وتجري لتسليم ما قدرت على جمعه لصاحب محل (خردوات) بالشارع، ويلتفت (البائع) وراءه وهم يقتادونه، فيرى إشارتها له، بوجود بضاعته بالمحل. يظل صراخ بقية البائعين، واعتراضهم، أو توسلاتهم عاليًا، حتى يركبوا مجبورين سيارة الشرطة، المختبئة وراء مبنى.. (الغرفة التجارية).

تبقى (آلاء) واقفة كالمتربصة في منتصف الشارع، تسدد بصرها بكل غضب للضابط يُشرف على إنهاء مهمته، تشد (فادية) يديها ثانيةً، وهي تلحظ نظرة الكراهية تجاه الضابط، حيث تستعيد (آلاء) مشهد أبيها قريبًا، حينما تم اعتقاله على غُرة، تتحرك (آلاء) مع دفع (فادية) لها، بعيدًا عن مكان الشجار، فتردد بأنفاس لاهجة:

- ربنا يحرقكم.

تستغرب (فادية) ثورة (آلاء)، وتتفرس في ملامحها، ثم تدعوها لشرب زجاجة مياه غازية، لتهدئ من أعصابها، ولا يفوتها أن ترمي لها السؤال بلا مبالاة:

– البوليس هو حامي بيوتنا وبلدنا يا (آلاء)، الغريب إنك جريئة جداً، لأن خطيبك محامي؟!

لم ترد عليها إلا بإيماءة عابرة لا يُفهم منها شيئًا، بعدما نفد صبرها، ووافقت على الاقتران بابن خالتها، الذي لطالما ألح على أمها مرارًا بهذه الرغبة، فرضخت (آلاء) لطلبه مؤخرًا، ليكون لها ولأمها العون في ظروفهما الحياتية، التي تزداد وعورتها، مع توالي الشهور، وقد يَقدر خطيبها أن يساعدهما على كشف مصير أبيها الغامض، فهو يتدرب في منظمة حقوقية، تهتم بشأن المعتقلين السياسيين، وكل ما يمس حقوقهم الإنسانية والقانونية المهدَرة، ومع هذا.. لم تجدْ (آلاء) بداخلها شيئًا من السرور، فهي في أعماقها لم تشعر بفرحة العروس، مثل كل الفتيات في سنها، ليس لأنها تكره ابن خالتها، بل تحترمه وتحبه، حب الأخت لأخيها. فأي حياة ستحياها، وهي تحبس روحها طول العمر بمشاعر الأُخُوّة مع زوجها المفترض؟! لم تقدر (آلاء) أن تتخيل كيف تنام معه، في سرير واحد؟ هكذا تتداول مشكلتها بينها وبين نفسها، لا تهمس بها لأي شخص، لأن لا بديل الآن غير هذا الحل، ولأنها تظن أن من قد يسمع شكواها، سيراها مشكلة هامشية، لا يليق أن تتعلل بها، لأنها لا تملك رفاهية التخيير، وإن ظل بصيص من الأمل في أن تتغير مشاعرها المتجذرة تجاه خطيبها يومًا ما.

كل هذه الخَطْرات جالت في بالها، وهي تشرب من زجاجة المياه الغازية، وعلى النقيض لم تشعر (فادية) بحزن (آلاء) وتعبها الداخلي، وهي تتأمل وقفتها الصامتة أمامها، ولكن تمثلت بداخلها أول لحظات تَعرفها عليها، إذ كانت (آلاء) وقتها طفلة، ترفعها (فادية) للسقف، وتغني لها أغاريد معطرة بالبراءة، وهو الرصيد المعنوي الجميل الذي لايزال يجمعهما، ويمنع (آلاء) – كلما تذكرت– من الاسترسال في نفورها، من أسلوب (فادية) معها...

كذلك سرَت نغمة التفاؤل الإيجابي في نفس (فادية)، بعْدَما قررت بينها وبين نفسها مقابلة (الرجل) الذي تمنته، واجتهدت لمعرفة مكانه، حتى وجدته، لتُنهي بذلك تشاؤمات الاحتمالات التي رسمها ذهنها طوال الأيام الماضية، فلا شك أن شخصية (آلاء) الحاسمة، حفزتها كي تزيح مشاعرها السلبية، وتستبدلها بالرغبة في تقليدها، باقتناص لحظتها السعيدة، دون أي عراقيل من الوهم البليد.

بدأت (فادية) تفتح شنطتها لتدفع الحساب لصاحب المحل، لكن يد (آلاء) كانت أسرع، وهي تُصر أن تدفع بنفسها، فانحنت (فادية) نحو الأرض، لتضع الزجاجتين الفارغتين في الصندوق، وقد اختلطت مشاعرها بما يصعب تحديده، عندما لمحت (آلاء) تدخل المحل، وترفع رأسها باعتزاز، وإباء.

-31-

- (آلاء) الأرُوبة ربطت ابن خالتها، وشَدّته لها، فجرى لأمها يخطبها، واعية وبنت سوق!!

- قصدك أنها خطفته؟!

سألها (إيهاب)، وهو يجلس على حرف سريره المواجه لسرير (فادية)، التي لا تهدأ حركتها أمامه، وترمي ورق الكوتشينة على المنضدة في قرف.

- عندك شَكْ ياسي إيهاب؟ طريقة كل البنات في وقتنا (المهَبب)، المشي، وقلة الأدب، مع الشبان!!

تجلس بعدها على سريرها، وهي تضع ساقاً فوق ساق، ثم تعود فتفكهما بعصبية. تُقلِّب دون وعي صفحات مجلد (تفسير الأحلام) لابن سيرين، ثم تُفصح عن تعجبها:

- لكن البنت (آلاء) تقدر تدبر مصاريف تجهيز الشقة، والفرح، والفَرش، وحاجات المطبخ؟ أنا أعرف أن حالهم عَدَم !! تَصور (آلاء) في عُمْر أختي الصغيرة، أو أصغر حبة.

(لم يطاوعها لسانها فتقول إنها في عمر ابنتها، لو كان قُدّر لها الزواج مبكرًا).

أحب (إيهاب) أن يغلق الموضوع، قائلًا عن طيب خاطر:

- يا رب، يسهل لها.

نَطَرت (فادية) نفسها، ووقفت بسرعة، بعدما شعرت أن (إيهاب) يتعاطف مع حالة (آلاء)، فأرادت أن تنفي التهمة عنها، كأنها تشهد في جلسة محاكمة:

– والمصحف، أنا لا زعلانة منها، ولا مشغولة بالحكاية أصلا، ربنا يبارك لها.. (آلاء) مؤدبة وحبيبتي، لكن أنا بس مستغربة إنها....

تلمح في أثناء وقوفها أمام باب الشرفة جارتها وزوجها، لا يكفان عن المداعبة، فتصرخ رافعةً يدها من وراء الزجاج، بتوتر :

– يا أخي، اهمدْ انت وهي في أم الليلة الكُحلي..!!

تغلق قبضة باب الشرفة بقوة وعزم، ثم ترتمي على السرير، في حين ابتسم (إيهاب) في نفسه من رد فعلها، يراقبها في حركاتها ولفتاتها، وهي تنظر لأظافر يديها المقصوصة، ويرجع هو للتحليق أسفله نحو الزخارف النباتية بتحويراتها في نسيج السجادة، يحاول أن يفك بحدة بصره تعقيد هندسة دوائرها المتشابكة، وبات يتذكر في شروده رحلة المزرعة، وكيف صالحته (بوسي) في رحلة العودة، وأبلغته أنها تتمنى أن تتزوجه هي الأخرى، بل أكثر مما يتمنى.

– يا ماما، المسلسل سخيف، أنا محتاج تركيز، قبل ما أكتب.

هكذا أتى صوتُ (إبراهيم) من غرفته، يحتج على متابعة (أمه) للتليفزيون، وقت محاولته الكتابة في ركنه الصغير، مع أنه توجد غرف أخرى واسعة، لا يتم استعمالها بالبيت.

قامت (فادية) من رقادها، وبدت ملامحها متفاعلة مع تعليق أخيها بصوته العالي، فتوقع (إيهاب) أن تقذف تعليقًا ساخرًا، أو لاعنًا، ولكنها لم تفعل، بل قامت وسحبت (كيس بذور الريحان) من المنضدة، متجهة نحو دولابها، بعد ما نقل (إيهاب) إليها رسالة (عم كامل). وفور غلقها باب الدولاب، سألت (إيهاب) بنبرات مسترخية:

– انت ممكن ترتبط فجأة يا إيهاب؟

اندهش لسؤالها، ومناسبته:

– أخطب؟! يمكن تعمليها قبل مِني..؟

قالها مصطنعًا التباسط، وهو يوجه إصبع الاتهام نحوها، ليحوّل حَرجَ السؤال بعيدًا عنه. ينكمش جسد (فادية) على سريرها، تضع يدها تحت خدها، وتنظر لأسفل سارحة النظر، كأنما تفتح للحلم المخزون ثقبًا ضئيلًا ينير سواده:

– أنا؟ معقولة؟ لكن أنا عندي زيادة عن 45 سنة. يعني كبيرة مهما كان.. صَح؟

اعتدل (إيهاب) في جلسته، عيناه في عينيها، ثم يزوغ من مواجهة نظرتها. لم تمهله (فادية) كثيرًا واكتفت بإجابته الخفية، وأكملت بنفس النبرات الهادئة، وهي تحول بصرها، نحو نقطة وهمية أعلى باب الشرفة:

– صعب، لأن أبوك قدر يسد نفسي عن الفكرة، لما رفض عريس طلبني، من قلبه.

أسند (إيهاب) رأسه على مسند سريره:

– عريس قديم.. وقلبه؟ إحكِ لي..!

– كان جارنا.. ساكن ناحية بيتنا القديم في (رأس التين) عند (سيدي كاظَمَان).. تعرفه؟

– كاظَمَان!! أول مرة أسمع عنه، ما علينا..

– كانت هوايته يقف أول الشارع لما يشوفني واقفة من الشباك، أو نازلة المدرسة.. أيامنا غير أيام (آلاء)، وتربيتنا وطباعنا يمنعوني، كنت أشوفه بس من بعيد لبعيد، فارتحت له، وطلب مرة بأدب، يعرف رأيي فيه..

– فيلم أبيض وأسود، ماشي الكلام.. وطبعا ردك ابتسامةٌ فنظرةٌ فموعدٌ.. فصدمة!

– من غير ميعاد، هو عرف ردي قبل ما اتكلم، وكنا في أول الربيع!

تعبث بزر قميص نومها، وهي تروح بعينيها تلقاء خزانة ذكرياتها.

– بعدها طلب إنه يخطبني.. مستواه المادي مستور جدًا، ولا يعيبه أي حاجة.

– وسبب الرفض؟

– أبوك رفض يا سيدي لأنه سمع كلام الناس، وحاولت وقتها أفهم منه، فقال لي على سبب تافه، وعاند في رأيه.

ضغط (إيهاب) عليها، ليعرف منها السبب، فلم ترضَ أن تخبره به، ولكن مع إلحاحه، رفعت جذعها، وحركت نفسها إلى الوراء لتستند على الحائط، جالسةً بعرض السرير، ثم نظرت لـ(إيهاب) في ارتياب، خاصة أنها ظنت أنه يعرف الموضوع من أبيه، ولكن مع نفي (إيهاب) القاطع وإصراره لتكملة كلامها، عادت شهيتها للحديث:

- لأنه عرف إنه غَاوِي...

- غاوي؟! غاوي يغني؟

- لا... غاوي... (وقبل أن تنطق عادت للنظر نحو إيهاب وهي تبرم خصلات شعرها) يعني أبوك المفتري لا قال لك، ولا فَتَن لك؟ بصراحة ومن غير كذب، والنبي! (كررتها له بسذاجة كأنها تستحلفه).

لم يسع (إيهاب) إلا أن يقلدُها، عندما تحلف على المصحف:

- والمِصحف، والمصحف، لا بابا المفتري قال لي، ولا قُلت له، ولا العَوازل فَلْفلُوا.

كانت تضع يدها على فمها، وهي تتثاءب، لكنها مع تعليق (إيهاب) الطريف، اختلط عليها التثاؤب بالضحك، وبدا منظر وجهها غريبًا، مما أثار ضحك (إيهاب) أيضًا، ثم صمتت لحظات، وأنزلت نظرها:

- كان غاوي يا سيدي يشرب..

- يشرب خمرة؟

- خمرة!! لا يا إيهاب افهمني.. ولو كان، تصدق أني كنت أقبله، أو أبص له؟

- ماشي الكلام، يعني غاوي يشرب مثلا.. بيرة، أو شيشة ؟؟؟

تمدد (فادية) ساقيها بعرض السرير في منتصفه، بنفس وضعها السابق، وصمت (إيهاب) تمامًا ينتظر اجابتها، فقالت له بصوت تتلعثم حروفه:

- بصراحة.. مُدمن.

- مدمن!! مدمن مخدرات.. يا للهَوْل!!

رفعت صوتها، لتصحح له فكرته الخاطئة:

- لا مخدرات، ولا شِيشَة، ولا (دِيَاولُو)، إنما مُدمن علبة الكُحّة..

يبدو العجب على وجه (إيهاب)، رافعًا حاجبيه كما حال أبيه عندما ينذهل، وفهم أنها تقصد دواء الكحة السائل، الذي يُدمن البعض شربه، لوجود نسبة مخدرة في مكوناتِه، فيصرخ فيها، وهو يميل نحوها:

- كُحَّة!! كُحَّة..؟!!

تعود (فادية) لبرم شعرها، تميل رأسها ببطء نحو كتفها الأيمن، ثم استكملت:

- والسبب إني مرة رفضت أقابله، أو خاصمته، ومن بعدها أدمَّن..

يعلو صوت (إيهاب) بتهكم، ومصفقًا بكفيه:

– يبقي هو نفسه إنسان فضيحة،.. كُحّة؟!!

– يا سيدي فترة طيش وراحت لحال سبيلها، وأبوك لما عرف، انتهز الفرصة، وفشَى السر لماما، وعامت ماما على كلامه، ورفضته من غير ما تقابله، مع إني والمصحف كنت مصممة عليه، وشفت ويْل الويل، لما سافر بعد ما يأس..!!

تكمل له دون توقف:

– لا شفت الحب قَبله، ولا بَعده، يا إيهاب.. تعرف؟

تومىء له بيدها علامة طلب الانتظار، وهي تنزل من السرير بحيوية مفاجئة، تتجه نحو الدولاب مرة أخرى، وتخفي وجهها فيه، فتخرج منه فستانًا، لونه أقرب إلى الفيروز. تحمله على ذراعها برأفة، ثم تجلس بجوار (إيهاب) على مقدمة سريره:

– أول مرة يرجع من الخليج، أهداني الفستان، بمناسبة عيد ميلادي، قماشته غالية (جِيرسيه).

لم يسمع (إيهاب) عن القماش (الجِيرسيه)، لكنه بادرها سائلًا:

– وأخباره انقطعت عنك؟

– رجع من الكويت، وفتح محل (موبيليا) جنبنا، وعنده ولد و3 بنات، وطَلّق أمهم.

– عندي شعور لئيم، إنك وهو على اتصال.. صح؟

- أبدًا، عرفت بالمصادفة آخر أخباره، بعد ما فقدت الأمل... أنا شفته من أيام قليله بصراحة، لكن من غير ما يعرف.

أطرقت (فادية) خجلاً، تتحسب رد فعل ابن أخيها، ولبثت وهي تجلس أمامه، تقوم بفرد الفستان، ثم طيه في ارتباك، وأردفت:

- ناوية أعيد تفصيله عند الخياط، يا رب يليق علَى قَدي وسنّي..!

هبّ (إيهاب) بصوت ساخر ظاهريًا، لكن في جوهره يسعى لبَث الطمأنينة لها:

- سنّك؟!! سيادتك لابسة طقم أسنان يا ماما سِتُو!!

ثم يبتسم لها، وهو يهدئ من روعها، قائلًا لها بصوت رؤوف:

- لما يِخْلّص الفستان، لازم أشوفه عليك، يا عروسة.

تغيرت ملامح وخلجات (فادية)، بعدما تدفق الدم تحت بشرتها البيضاء، ثم قبضت على ذراعه، كأنها تستنجد:

- والنبي؟

استثقل ذلك الحمل النفسي الطارئ، بعدما رأى تشبثها بالرجاء، وأحس بمسئولية وجوده في حياتها. كيف قَبَل أن ينْجَرَّ إلى عتبات خصوصيتها؟!، وهو ما فتئ يحرص على جعل مسافة بينه وبينها، لتقيه عواقب، وتبعات، هبوب عواصفها غير المتوقعة، خشي (إيهاب) من المضي في الكلام أكثر من هذا الحد، فأجابها ببعض الكلمات

التقليدية، وهو يبعد عنها وجهه، ليقع نظره على الطاولة الخشبية الموجودة بين السريرين. قوائم الطاولة الأربعة الرفيعة تتحمل ثقل القرص الدائري السميك، فوقه ورق الكوتشينة، ومجلد ابن (سيرين)، وكوب ماء ...ثم وجدها تعيد عليه الكلمات نفسها، فلم يرد أن ينبهها لتكرار ما قالت منذ ثوان قليلة، هل لا تشعر بذلك نتيجة إرهاق مُخها أو مرضها؟ أم لأن قلبها يحب..؟!

ظلت تحكي، وتُبين عن انفعالاتها المستترة، فيتابع بتفَهم ما وراء حروفها، فلو لم يكن يمر بتجربة عاطفية، ويغترف من نفس الحالة الوجدانية، لَمَا أنصت لها كل هذه المدة بصبر كريم، لذا أصغى إلى حكاياتها بكل حواشيها، وثبت على إيمانه بالتفاعل مع أحاسيسها، حتى لو لم يقنعه بعض ما تقول، فكل منّا له حكايته التي يتمنى من الآخرين تصديقها، وإن تعارضت أحيانًا مع المنطق.

وقفت (فادية) لتفرد الفستان بطوله، تَلفُه على قوامها النحيف، يتلاهث تشوقها لسرعة ارتدائه، بعد إعادة ضبط مقاسه... تتحدث أمامه بصوت مهموس، ثم تختفي نبراته وقتًا قبل أن يعود، فكأنها أشبه بمن تناجي نفسها، وتخبره بحيرتها في لون الحذاء المناسب، ورغبتها في شراء علب مساحيق وأقلام كُحْل، لتتهيأ وتستعد، حتى موعد استلام الفستان من الخياط، فتكون جاهزة تمامًا يوم اللقاء..

يقطع صياح (إبراهيم) خط مناجاتها:

- محتاج أعرف رأيك يا زوزو، في مقدمة القصة.. اسمعي، وركزي؟

فَلَق صوت إبراهيم –كالعادة– البناء الإنساني الذي شرع يرسي وشائجه بين (فادية) و(إيهاب) في ليلتهما، إلا أن (إيهاب) أشار على (عمته) بمتابعة ما يفيض به صدرها، معاودًا الإنصات لها، وهو يراقب حرارة إيماءاتها، واضطراب حركات يديها، وتسَارُع حروفها، بعضها فوق بعض، ثم تذكر:

– "يااااه" نسيت.. أنا غبي جدًا!

قَفزَ من قعدته، وخطف خطوتين واسعتين للأمام، بالقرب من باب الغرفة... لم تفهم (فادية) ما الذي يخرجه بهذا التعجل من جيب بنطلونه المتسخ، والملقَى على الكرسي، لتغسله له كما اعتادت، لكنه قال لها، وهو يواري يده وراء ظهره، مقلدًا طريقة حاوي (الجَلا جَلا):

– (غَمض عِينيك.. تأكل ملبن)!!

أطاعته، وأغمضت عينيها، لا تعرف ما هي المفاجأة التي تنتظرها، ولكنها وجدت يد (إيهاب) في يدها، تناولها شريط المطربة المصرية (أحلام).. فنطقت وهي تفتح عيونها بفرحة زائدة:

– أخيرًا.. شكرًا، ربنا يسعد قلبك!!

ظل (إيهاب) متقمصًا دور الحاوي، يُخفض قامته أمامها، قائلًا

– أحلامك (شُبْيكْ لُبيك)...

جَرت (فادية) تجاه (الكاسيت)، الموضوع فوق ماكينة الخياطة القديمة. تربت بقبضتها المضمومة على صدرها، وهي تقول في فخر:

- (أحلام).. صاحبتي من زمااان...

كانت ستستطرد لإيهاب، فتقصُّ عليه أول تعرفها إلى صوت مطربتها المفضلة منذ الصغر، عندما كانت تستمع لها بفضل (أبيها) المغرم بالغناء، والطرب العربي، لكن دوران تروس بكرتي الشريط، داخل الجهاز إيذانا ببدء الأغنية، جعلها تصمت صمتًا، وتترقب.. فاتت لحظات.. لم يأت صوت، بخلاف الخروشة المألوفة عند بداية التشغيل، نظرت بتوجس لإيهاب الواقف بجوارها، فطمأنها بإشارة من يده... ثم انسربت أنغام الأغنية، فكأنها فتحت لها أبواب ما غَلّقَته، وأخفته في كوامن نفسها. شعرت وهي تسمع استهلال اللحن، بأن شبابها عاد ينساب صوتًا محسوسًا، مع صوت (أحلام) الذي طالما استرجعته الذاكرة في وحدتها.

اتجهت نحو باب الحجرة تقفله، لمنع صوت أخيها من التداخل المشوش، ولتنفرد مع الأغنية التي يصاحب (مذهبها) الزغاريد، وترديد الكورال:

- (زَغْرودة حلوة رَنّت في بيتنا.. لَمّت حارتنا، وبنات حارتنا، زغرودة حلوة.. حلوة).

غنّت تقاطيع وجه (فادية)، وتناغمت مع العَفْق السلس، الذي تتقنه نبرات صوت (أحلام)، رغم محدودية طبقاته، في حين انسجم (إيهاب) مع لحن الأغنية الشعبية، الذي يسمعه للمرة الأولى، فيطرقع بإصبعيه، متواصلًا مع دقات (الزفة البلدي) الراقصة..

شجعها استقبال (إيهاب) للأغنية، لتنفك من قيودها، وتطلق تعابيرها التلقائية، ثم وقفت أمامه، وهي تقول له مع نشوة الغناء، ولَعْلَعة الألحان:

- عَلّ الصوت شوية، خَلِّ الواحد (يفرفش) من نفسه.

فيتألق الصوت في مسامع الاثنين، ويصفق (إيهاب) مع كلمات أول المقطع:

- (لَوَاحظ أختي خَطَبوها، والفَاتحة من بَدْرِي قَرُوها.. والشَبْكَة من قبل ميعادها، جُوْنَا الحَبايب، وجَابُوها).

تنطلق الزغاريد، وتتطوح ذبذباتها حول (فادية) التي تهز رأسها وتتجاوب، يحمسها تصفيق (إيهاب). ويواصل تأثير الأغنية المعنوي مفعوله، حينما راحت تسحب الفستان لتودعه دولابها، فيلاحقها(إيهاب)، مشيرًا لها على الفستان كأنه الفأل الحسن، فتستحلفه، بأن يحلف لها أنه لا يضحك عليها، أو يجاملها، فيعود لتقليدها، بعدما استولت نوبة المرح على جوارحه، ورفع ذراعيه، ثم أنزلها نحو ركبتيه بضع مرات، كأنه يضرب بالفأس في الحقل، صائحًا مع توالي زغاريد الكورال:

- والمصحف، والمصحف!!.

تتهلل قسمات وجهها، وتشعر بالأمان، وهي تضم ساقيها على مقدمة السرير، لتستمع للمقطع (الكُوبليه) التالي:

- (الفَرْح نَوّر قَنديله، ولَف عُودي بمَندِيلُه،

وأنا اعمل إيه بس يا نينَة؟ أرقصْلُه، ولّا أغنيلُه!).

يتحرك (إيهاب) منتشيًا بطول الغرفة، ثم يسحب أوراق (الكوتشينة) من على الطاولة، ويعيد تفريق ورقها، فيتلاعب الورق بأرقامه، وصوَره بين أصابعه، يسقط ورقة وراء ورقة، فتتمازج بخفة يده صوَرُ (الولد)، و(الشايب)، و(البنت)، ثم يدق بعدها على قرص الطاولة، مُدندنًا بمذهب الأغنية قبل النهاية.

لم تكن (فادية) بطبيعة الحال تعرف أن ابن أخيها يغني لـ.. نفسه، لـ..حبيبته، ولـ.. ليلته التي يتمناها معها. أفرجت أجواء الغنوة عن أحاسيسه المحبوسة، وأهدت خياله أملاً في الغاية المبتغاة، بعيدًا عن ظلال الواقع الخانقة. بالمثل، لم يحس (إيهاب) بتحديق (عمته) نحو نقطتها الوهمية العالية، كأنما يهيم حول رأسها طيف طائف، أو قرين استشعرته، فأبقت على تعبير وجهها ما بين الدهشة، والحُبُور، كما طلب قَرِينُها الذي تتخيل شَبَحَه واقفًا أمامها، ينهي تلوين وجهها المرسوم على نتوءات، وتجاويف الحائط!!

-32-

يستمع مجموعة من الشباب في (المركز الثقافي الجديد) إلى شرح (د. شندي) لمآثر الحضارة الإغريقية، والعلاقة الطردية – من وجهة نظره– بين تقدم العقل البشري الحديث، واتباعه القيم، والأسس الفلسفية والجمالية، لحضارة اليونان القديمة، مستعرضًا نماذج فكرية

لحضارته المفضلة، وهو يتصدر الجلسة على كرسي مريح في ركن من أركان بهو المركز، فيعرج من فلسفة (الأتارَكسيا/ اللذة)، وكيف حدد تعريفها (أبيقور)، وتغيّرت بعد ذلك على يد تلاميذه، بعدها ينتقل إلى شرح جذور كلمة (فالوقراطي- phallocratic) أو ذكورية المجتمع... ثم يجيب بعدها باستفاضة على سؤال شاب بجواره، بأن أقرب الروايات للصحة تقول إن مؤسس مكتبة الإسكندرية ليس (فيلادلفوس)، ولكن مؤسسها الفعلي، هو.. (سوتير) أو (بطليموس) الأول، الذي زامل (الإسكندر) في التعلّم على يد (أرسطو)... ويرفع (د. شندي) نبرات صوته التعليمية التلقينية، متخيلاً شأنه كشأن بَحاثَة يرتدي طيْلَسَان العلماء في رواق (الموسيون- Mouseion) الملحق بمكتبة الإسكندرية في القرن الثالث قبل الميلاد، فيروي للشباب الغَض حوله، عن الكشف الأثري لتماثيل نساء (التناجرا- Tanagra) الفخارية البديعة بالمقابر البطلمية، في منطقة (الشاطبي)، وشرع بصوت خافت يتولّه في وصف أسلوب تسريحات شعورهن المعقوصة على شكل قُبعة، وأنواع أقراط الأذن الثقيلة، وردائهن الطويل وفوقه -بنفس اللون- كساء رائع ومحبوك. يغمض (شندي) عيونه، وترتعش جفونه الممتلئة بالدهون، يحلو له أن يستولي على بعض الوقت، ليتغزَّل في أناقتهن الأرستقراطية، في حين لا يكف باطنُ كفِه عن تحَسُّس التكوير الأملس لقبضة ذراع الكرسي، كما لو أنه يتحسس رُكبة غانية تتَعرى له، حتى يأخذه عطر باريسي فَتّان، فينتبه لدخول (فتاة) تلبس ما يشابه طراز ملابس نساء (التناجرا). يدق كعب حذائها على الأرضية الخشبية اللامعة، فتدور الرؤوس

نحوها في إعجاب، كاد (د. شندي) عندما مرت بجواره، أن يُصفّر لها، مثلما يفعل أي شاب متسكع على ناصية الشارع، وأقسم بداخله في أوْج نشوته، بأن هذه الفتاة بسيقانها المصبوبة، وجسمها المنحوت، هي واحدة من نسل ربات الجمال المعاصرة...

لم تكن تلك الفتاة سوى (بوسي)، إذ تتأود في مشيتها إلى بهو المركز في زيارتها الأولى له، حسب موعد مسبق مع (إيهاب).. يقابلها المدير الشاب (بيير) خارجًا من غرفة مكتبه، فيفهم أنها زائرة جديدة لهذا المكان، يتعرف إليها بلباقته وظرفه، وتجذب (بوسي) وسَامتُه، وعيونه الزرقاء، و تسريحة شعره الذهبي، ثم حاولت أن تخفي فرحتَها، لما مَدَح حدَاثة خطوط ملابسها، وجَال في بالها لو يأتي الصباح بسرعة، لتجري على زميلاتها بالفصل المدرسي، وتحكي لهم وسط آهات الإعجاب عن هذا اللقاء، مع هذا الشاب الأوروبي، الذي لا تحلم أي واحدة منهن بالوقوف معه. بقيت واقفة أمامه، تستمع له، وتتعرف عليه، وهو يُحَدثُها عن نفسه، بلغة عربية ركيكة:

- أنا في إسكندرية من خمس سنوات، تعلمت الفُصحى في الجامعة هنا، وبدأت في تكوين مركز ثقافي بالتعاون مع القُنصلية. هدفنا هو إحياء ثقافة (الإسكندرية) القديمة، ونقدم منحة مدعمة للتعلم (عانىَ كثيراً، وهو ينطق حرف العين)، والافتتاح سيكون بعد شهرين.

هزت (بوسي) رأسَها له، وهي لا تستوعب ما يحدث، تحاول أن تخفي التلميذة التي بداخلها، فترفع ذقنها باستعلاء مصطنع، في حين داخلها (يكَرْكَر) من الضحك.

في نفس الأثناء يدخل (محمود) بحضوره الحيوي، يتبعه (إيهاب) يحمل شنطة فيها بعض مستلزمات الإضاءة لتجربتها. رفع (محمود) ذراعه لتحية كل الموجودين، ثم توقف عند (د. شندي) الذي انتقل لموضوع جديد، محوره قصيدة جنسية للشاعر السكندري/ اليوناني (كونستانتين كفافي- Cavafy)، وما إن سمع (محمود) بعض أبياتها، حتى صاح ساخرًا:

- يا عم شندي، هو.. مستحيل على لسانك يفارقها، كَفَافيس كتب قصائد جميلة، لكن أنت مُصر على تقديس قصائده الشهوانية!! (ينظر للشباب) يا شباب، كَفَافيس لما كتبها، كان بصراحة محتاج أي شاب، في أي شارع وسخ، لأنها كانت عادته العلنية كل ليلة، إنه يلف تحت بيته في العطارين، ويعسْ على شريك سريره اليومي، لإنه كان -ولا مؤاخذة- مَرْوَحة.

(يشير بيده على مؤخرتِه، دلالة على شذوذ كفافيس الجنسي، كما كان يصرح هو، في قصائده بوضوح).

ثم يردف، في ثقة:

– قلْ لهم على الحقيقة كلها، يا عم شندي، من غير (مونتاج)، أنت عرفت وقتها تضحك على عقلي أيام سهرات مطعم (إيليت)، لكن أنا فهمت لما فكَّرت بأم دماغي.

يلحظ (محمود) شابًا مبهورًا بشخصية (د. شندي)، فيضع يدُه على فم الشاب الصغير، قائلًا له:

– سدْ يا مُنبهر.. على الفاضي!!

اشتاط (د. شندي) وتململ في جلسته، فنفخ شدقيه، خاصة مع ضحكات(محمود) المتعالية، وهو يتحرك تجاه القاعة. ثم نظر للشباب بعدما انطفأت أوداجه، فقال لهم بصوت جهوري،كأنه يطل عليهم من قمة جبل (الأوليمب) الإغريقي، وملوحاً تجاه (محمود):

– نموذج من شباب الشعب السكندري، أو المصري. ذهن مسطح، ذوق ثقافي دَنِيء، وتفكير تقليدي متمسك بثوابت، أخلاقية ظَلاميَّة.

ينفجر صوت (محمود) متهكمًا:

– أحبك يا مغرور، يا مثقف بالمقلوب.

بدأ (إيهاب) يفك حزمة أسلاك على أرضية القاعة الداخلية، وقد تملكه الإحساس بالدخول في جدية العمل، الذي تأجل لمدة طويلة، أشار (محمود) له على موضع الصور المقترحة لتعليقها، فتشاورا، لتحديد الإضاءة، ومدى مناسبتها. تتغير الفكرة بين موضع وآخر، من حائط إلى حائط، حتى اتفقا على الشكل العام. ويتدافع

الشعور بالهمة في نفس (إيهاب) المفتوحة للعمل، إلا أن تأخر (بوسي) عن موعدها المحدد، يقلل من تركيزه، فحاول أن ينشغل بقياس بعض المساحات والأطوال، يعاونه (محمود) في فك الأسلاك وشدها من الطرفين. انهمكا في العمل، وغلب الهدوء على القاعة الداخلية، يرتدُ وقعُ أقدامهما، وخَروشة السلك على الأرض في فراغ المكان الفسيح. لا ينطق (محمود) بكلمة، أو مَزحة، بعدما انخرط في مساعدة صديقه، الذي يصعد أعلى الحائط على سلم متهالك، فيلحظ تجمع العصافير، تخربش بحوافرها سطح السقف الزجاجي فوقه، ثم أسرع (محمود) خارجًا من القاعة، بعدما أشار عليه صديقه بحاجته إلى (مفك) من نوع خاص، قد يجده عند العمال في الدور العلوي، حيث يكتمل تجهيز المبنى.

يبقي (إيهاب) بمفرده في القاعة منتظرًا، يصله صوت (د. شندي) يشرح بإمعان من الميثولوجيا الإغريقية أسطورة (الميدُوزا– Meduse)، عن تلك الفتاة الجميلة، التي عشقت (بوسيدون) إله البحر، فَصبَّت (أثينا) آلهة الحكمة والحرب غضبها عليها، وحوَّلتها لامرأة بشعة لها أنياب خنزير، تتلوى الثعابين على رأسها، فتصيب من ينظر لوجهها، بشرر عينيها المرعب، فيتبدّل جسدُه في التو، إلى قطعة حجر!!

طالَ الوقتُ على (إيهاب) لا يجد ما يفعله سوى الاستماع لسرد الأسطورة، فقرر أن يصعدَ إلى صديقِه يتَعجله، فلم يلبثْ أن وجدَ (ببير) يفتح بابَ مكتبه، ويخرج منه، ترافقه (بوسي)، وتبتسم له،

فيقوم بتقبيل يدها، كأنما قد أنهى لتوه رقصة لا تُنسى معها داخل المكتب!!

ينصَدم (إيهاب) بما رأته عيناه، يقف مشدوهًا، فتجمدت (بوسي) عندما رأته أمامها، دقَّ قلبُها، وهي تتجه نحوه، تحاول أن تبدو متماسكة ، لكنها عَضّت – لا إراديًا– طرف شفتها السفلية، لتَخوْفها من عنف غيرته المتوقع. تحتدُ شقْشَقة العصافير المزعجة على أشجار الحديقة القريبة، وتتناحرُ على فروعها بضراوة قبل المساء، في نفس الوقت الذي يحتدمُ فيه صوت (د. شندي)، متأثرًا بوصف النهاية التراجيدية لروح (الميدُوزا)، لما قتلها البطل (بروميثيوس) بضربه رأس مباغته، فأطار رقبتها، بعدما حاولت إطلاق ثعابين شعرها عليه، ثم كان مصير رأسها المذبوح بعد ذلك، في مستقر قاع البحر...

ظلا الاثنان واقفين صامتين، ينظر كل منهما للآخر، كتمثالين من الحجر، لا يبادر أي منهما بالكلام، تصعد نظرات (بوسي) ببطء وترقب، إلى مستوى صدر (إيهاب)، فكتفيه، وتتوقف، ثم يَطْرف رمشُها، عندما يصطدم بصرها بوجهه، فتنهال عليها سهامه المقذوفة من محجري عينيه!

-33-

يسرق الحمار المنهوك بعض الراحة، في حين يفُك له البَردَعة صاحبه (الحوذي/العَرْبَجي) تحت ضوء مصباح فقير، ويضع له بعض

العلف من دكان العلاف الذي يقع بآخر الشارع، على ناصيته مخبز (محمود).

- رَدّها -ساعتها- أفحمك؟!

- لأنها ذكية، وعملت نفسها أستاذة الذوق في التعامل، ومشيت لوحدها، بعد ما رفضت إني أوصلها، هي سامحتني بعدها فعلاً، والموضوع عَدّى، إنما من يومها.. فيها شيء متغير!!

وضع (محمود) يده على كتف صاحبه، يجيبه بنبرات جادة:

- الحل إنك تشتري لها (باكو شيكولاتة)، يمكن ترضى عنك!!

نظر (إيهاب) له في حنق، وهو يرى وجهه ممتلئًا بالاستهزاء، لكنه لم يرد عليه، بعدما انتبه لانعدام توازنه على الكرسي، وشعر أنه كقطعة إسفنج لا وزن لها. وأكمل (محمود) كلامه، وهويراقب بعينيه الثاقبة حركة العمل الهادئة داخل الفُرن، قبل سويعات الفجر:

- ماضٍ يا صاحبي..

- قصدك (بوسي)؟!

- كأنها حاجة ظريفة مسلية وراحت.

يشير بإصبعه تجاه سيارته أمام المخبز، وهو يستطرد:

- نسيت أول ما عرفتها.. بيييب.. بيييب (يقلد بصوته زُمارة سيارته) وبعدها ترِررك.. ترِرررك (يثني أصابعه علامة فتح بوسي باب السيارة وغلقه بعد ركوبها) يعني.. البنت مراهقة، ومحتاجة تغيير،

شبعت منك، أو تقدر تقول إن الواد (بيير) لعب بطريقته، وشعره (الأصفريكا) في خميرة مزاجها.. إنسَ يا (بُوب).

أحس (إيهاب) أن (محمود) يلكمه لكمة مستقيمة في صميم فؤاده، فأراد أن يقاوم تهافته، ويدافع عن إيمانه، بحبها له:

- إنت غلطان.. إوعَ تكون فاكرها من نوعية صاحبتك إياها، ريقها يجري لما تشوف شعْر صدرك، وبعدها تقضي يومها، في هز الصدر لمدير المصنع.

- لكن هي أوضح من (بوسي) على الأقل.. بُص أنا عارف إنك مجروح، ولو إن الموضوع كله أقل من أنه يحرك شَعْرة في دماغك.. نَفّض يا صاحبي، قبل ما تهدّك.

نظر (محمود) لدكان العلاف في أعلى الشارع، مناديًا على (العَربجي) الذي يقُص شعْر حماره:

- حمارك عنده فرح، يا أبو رجب؟

قام (محمود) من كرسيه نحو شباك البيع، يعطي في طريقه رغيفًا مجانيًا للمجنون (صيصا)، الذي يرفع ذراعه الأيسر، محتجًا بطريقته الملازمة له...حاول (إيهاب) النهوض، والتوجه نحو صديقه، لكنه لم يقْوَ، فقد أخمدت همته الشكوك المثارة في عقله، فانشغل مؤقتًا بالنظر للحمار يطرق رأسُه صاغرًا، ويتوقف (صِيصَا) عنده تحت مصباح الدكان، يمسح على ظهرِهِ بعاطفة نبيلة، وهو يقضم بقية رغيفه.

رنّ تليفون المخبز، فسمع (إيهاب) صوت (محمود) رائقا، يحاور صديقته، فحدثته نفسه:

"هل جنس الأنثى بطبيعته غدار؟ هل يا ترى كلهن خائنات كما يردد (محمود) أم أنه مبرر مكشوف، يبرر به الخائبون تجاربهم القاصرة؟ ...."

طال الصباح كثيرًا عليه في رقدته على فراشه. بات في ليلته رهين السهد، استطار عقله، وهو يستحضر مقدمًا ما قد يكون عليه لقاؤه بها أمام المدرسة.. مَاجت في مخيلته مواقفه معها، في أول تعارفه عليها، ثم الثقة التي ملأت فراغه الخاوي عندما شغفته حبًّا، وفاح في فؤادِه عطر من بكارة أحاسيسها.

-"أنا لم أكن أبدًا رومانسيا، ما الذي جَرَّني لهذا الجحيم العاطفي، دائمًا أبي يقول لي: أنت ابن أمك في برود المشاعر! فكيف انزلق قلبي؟ هل لأنه ليس لي سابق تجربة، فلم يكن في حياتي امرأة، أو صديقة بشكل بارز إلا هي...".

كان يقصد (أمه) المختفية في كوامن النفس، هبطت صورتها أمام عينيه، وقت أن كانت تستمع له في بدءِ تَعرّف صباه على دهاليز العلاقات البشرية، وقتما كانت تبلغ به الحيرةُ مدَاها، فيضع رأسَه بين ركبتيه محزونًا، وتراجع أمه معه باتزان جوانب المسألة التي تحيره، أو يجهلها، فتهديه إلى مايقنعه...

تنهد بعمق، وهو يتساءل:

- " لِمَ أتذكرها الآن؟ "..!!

انكمش كتفه لما هاجمته البرودة الجوانية المرافقة لملامح وجه (أمه) عندما تظهر في خياله. وإن كان من المحتمل بعد ساعات قليلة أن تهجره حبيبته، بعد ما هجرته أمه، فهل سيقدر..؟! هكذا قَضىَ ليلته في صندوق غرفته القاتمة، ما بين محاسبة ومحاكمة، تفاؤل وتمنٍ. تقلبت في وعيه، وحَدْسِه، صور وردية تشرح الصدر، وصور أخرى مبتورة شائهة.

كيف، ومتى، لبس ملابسه؟؟!.. لا يتذكر شيئًا في تلك اللحظة المرتقبة، فهو ينتظر في مقدمة الشارع الذي اعتاد مقابلتها عنده أمام مدرستها. خرج (محمود) ليقف بجوار سيارته على مقربة منه، ليرى ما سيجري بينهما، إذ بدأت البنات في الخروج من باب المدرسة، ومن بينهن (بوسي) التي تشاغب زميلاتها، أثناء توجهُنَّ للشارع، فتخطف من زميلتها (كيس شيبسي)، وتزوغ من ملاحقتها مع صرخاتها الانفعالية، لكن زميلتها تمسك بها، وتوقفها بالعافية، لا لتأخذ منها الكيس، لكن لتنبهها بوجود (إيهاب) على الرصيف المقابل. عَبَرت (بوسي) الطريق نحوه، فأحس باهتزاز ركبتيه، ينتظر الحكم بالبراءة، أو الفناء، تمنى لو صرخ فيها أثناء عبورها لتخبره بابتسامة، أو بنظرة جميلة، بأنها أبدًا لن تتخلى عنه، لكنها اقتربت منه بوجه محايد ، تحمل شنطتها في حُضنها، ثم توقفت أمامه.. تنَقَّل قلبُه بين ضلوعه كطائر ينزف، جاهد ليخفي توتره، وراء قسمات الوجه الجاد، ولم يتكلم، فبدأت هي بصوت لا حياة فيه..

– أفندم؟

لاحت من عينيه نظرة تسترضيها، وبان صوتُه مترنحاً:

– لو كنت تصرفت بأسلوب غلط (تاه أخر حرف من جملته)، أو الغَلط غلطك أنتِ، أو...، فالأفضل أننا نتناقش، ونتفاهم؟

(استدار استدارة بسيطة، كي تَرىَ وراءه السيارة، تنتظرها ككل مرة).

فأرسلت نظرَها نحوها، ثم حركت رأسها بعفوية تلقاء شنطتها، كأنها تستجمع أطراف تفكيرها، قبل أن تتحرك، أو تقرر.. وقالت:

– أنا آسفة.. ومن فضلك أتمنى إنك تبعد، وآخر مرة تقابلني.

تركته غير عابئة، وانصرفت عنه لتلحق زميلاتها، ثم نظرت وراءها بطَرْف خفي، لتطمئن أنه لن يتبعها، أو يؤذيها، وعادت تخطف كيس (الشيبسي) من صاحبتها، وتسللت وسط جموع البنات.

ظل (إيهاب) واقفًا في مكانه، كأنه فقد هُويته، شعر أنه يتمزق إلى قصاقيص ورق تخروش بها طبقات الهواء المتصاعدة بأتربتها. اقترب منه (محمود) بسيارته، وأشار له بالركوب، لكنه رفض، فلقد وقعت الفاجعة!!!

مَشى، فمَشى، لعله يختبئ من نفسه، أو ينتهي، قبل أن يصل لنهاية الشارع الطويل (شارع فؤاد أو كانوب قديمًا)، الذي يطول أمامه باستقامة مُتعنتة، عيونه مفتوحة لا يرمش لها جفن، كعيون القط

في الظلام. مبنى المحافظة الأبيض وراءه، حيث يتأهب الحراس لحماية موكب (المحافظ) عند الخروج، يتجاوز (إيهاب) إشارة المرور دون أن يحرك ناظريه. سرعة خطواته ثابتة، كأنما يحركه (موتور) غير مرئي. تمتد في صدره صحراء، فيقترب من المحل المعروف (Venus – فينوس)، يعزم على الدخول فيه، ليروي عطشه قليلًا، فيصد بصره لافتة (مغلق للتجديدات).

وصل للطريق المتقاطع عند شارع (ابن دانيال)، أول الشوارع التي خطط لها (دينُوقرَاطيس) وقت إنشاء المدينة. يستدير بعدها لشارع آخر موازٍ، ثم متقاطع، فآخر شبه دائري، ثم يجد نفسه دون أن يشعر في وسط الشارع السابق. تاهت نفسه في التفاف الشوارع بعضها حول بعض، بمحاورها الرأسية والمتقاطعة، كما لو أنه صار أصغر رقعة (شطرنج) يحركها إصبع طفل. تزمجر السيارات حوله كأنها تطرده، فلا يبالي، ويسرب في الأرض بنفس الاتجاه، خَطرَ في باله حادثة (عروسة الإسكندرية) منذ ربع قرن تقريباً، عندما بلعتها الأرض فجأة، في البقعة نفسها التي تَطأ قدماه موضعها، ورغم الأقاويل والتفسيرات – حينها– ولكن المؤكد أن جثة (العروسة) قد اختفت تحت الأرض، واختفى سرها، داس (إيهاب) برجليه الأرض تحته، ينشد أن تكرر المعجزة نفسها معه، فتُنهي فظاعة ما فيه، لكن سرعان ما أحس بسخافته، واتجه لليمين، شرع يطلع مطلع شارع (سيزوستريس)، يوشك أن يقترب من نفس سرعة (الحنطور) الذي بمحاذاته، بداخلِه (سائح أوروبي)، يستطلع ويتفرج على ابنية الشارع المتناسقة، فأوقف

(إيهاب) رجليه، يلعن المصادفة التي جعلت ملامح السائح مدعاة لتذَكُّر (بيير) الملعون.

- "هل أحبت (بيير)؟ أم هو الذي ضحك على عقلها؟ وما الفرق؟ فحقيقة الأمر أنها.. خانتك!!".

ضحكتها الأخيرة بعدما تركته تكاد تلقيه بكل ثقله أرضاً، تحت أحذية النازلين من سلالم (البنك) العريق. جاءه وجه (محمود) -كما خُيّل له- يشده من الأرض، ويُوَبخه بأسلوبه الساخر:

"يا خيبتك.. واحدة في طول رُكبتك تلحس عقلك، أنت و(صِيصَا) المهْبول ماركة واحدة، هو راح عقله في قضية ظلم مال عام وفساد مؤسسة، وموضوع كبير، لكن انت لو عرف (صِيصَا) سبب مشكلتك، لرجع له عقله فورا، من صدمته في تفَاهتك".

استحضر تعليق (محمود) في نفسه، وهو يخترق بقية الطريق، تساوره ظنونه، فماذا لو يجد (بوسي) يومًا أمامه، لتعتذر له بعد أن يُطَهرُها الحنين؟.. لكن أي حنين!! لقد نزعت حبلَ المودة، فأدْمَت القلبَ في لحظته، فلا ارتوَى ولا مات..!! كان يحسب على أسوأ تقدير أن العتاب أو الخناق بينهما سيكون بين أخذ ورد، دفاع وهجوم، كلمات طائشة غاضبة، وكلمات لينة متعقلة، ثم يعود الوفاق.. لكنها أطلقت رَصَاصة النهاية، ما أشق ذلك عليه عندما خَبَرَ معنى نظراتها، تصفعه دون مواربة، في جملة ضمنية باترة:

-" لم يعدْ لك في القلب وجود.. فافهمْ".

وصل إلى نهاية الشارع المزدحم بالمحلات، تتطاحن أفكارُه في عقله، يؤنب ويشتم نفسه، لأنه لم يصق عليها، عندما أهانته ورحلت، لم يصفعها بكف يده، الذي طالما تمنت أن تلمسه!!

أخذ نَفَسًا، ليستجمع مقاومته من سكين غدرها، تقوده قدماه لطريق آخر نحو الميدان، وهو يشعر أنه يسلك دروب الاحتضار، نظر فوقه تجاه التمثال البرونزي لـ(محمد على باشا)، ممتطيًا حصانه المارد في مجد وجَلَد، فابتسم ابتسامة مَن فاته الوقت، ولم يلحق القطار الأخير، ثم سمع صوتًا في أعماقه يأمره:

-"كُنْ رجلًا"...

يمضي منكبًا في اتجاه البيت، فيلحظ ارتعاشة يده، التي ذكرته بارتعاشة (عمته) التي تفتح له باب الشقة، ووجلت من الوَهن الجارف على سحنته، تحاول أن تستفهم منه عما به، لا يرُد عليها، وهو يكمل آخر الأمتار تلقاء غرفته، يتقوس حائطا الممر الشاسع من وجهة نظرِه المختلة، فتتبعه مسرعة، تكرر له السؤال، وتسعى يدُها لتُمسكَ به. يوصد بابه، فيرتطم جسده بسريره أو تابوته، بعدما تجرع من زجاجة المياه ما يخفف غليان صدره، في حين تنبض اللمبات البنفسجية نبضات متقطعة أعلى رأسه.

-34-

يَرمحُ الأطفال، ويتقافزون في (فناء المدرسة) كما يبدو من خلال الباب الزجاجي للشرفة، خلف الكرسي الذي يجلس عليه (عم كامل)، معتذرًا بأدب للأم (زوجة أخيه الأكبر) عن تقصيره في الزيارة.

تصدر (الأم) إشارة بوجهها تعني تسامحها، وتقديرها لظروفه، متسائلة عن أحواله، فيجيبها وهو بذات هيئته (انحناء الظهر، القميص السائب فوق البنطلون، زر القميص العلوي المعشوق في عُروته، سماعة الأذن، صوته الأجش...).

- أول الصبح.. أسيب نفسي للترام، ألف فيه من غربها لشرقها، أتفرج من الشباك على البشر الراكب، والنازل، والواقف على المحطات، لغاية ما الوقت يمر، والنوم يكبس عليّ، لكن عقلي يفوق مع (كركبة) العجلات، وهي راجعة المخزن، وأوصل البيت قبل العصر، وبالليل.. أنزل اشتري علبة (زبادي) و(فلافل)، وعلى وقت الفجر أصلي ركعتين، وأسمع (الراديو)، بعدها أنزل أركب (الترام) من نهار طلعته، وافتح الجرنال بأخباره المعادة، وأكرر المشوار، كأنه برنامج علاج، ضد ميكروب.. (وَخامة الملل).

يدخل (إبراهيم) بصوته الصاخب، يُلوّح بجريدة قديمة جدًا من أعداد جريدة (البلاغ)، ثم يُريها لأمه:

- بُصِّ يا ماما جورنال في (الجُول) من (عم كامل)، فيه مقالات ممتعة، ومعارك أدبية لعبد القادر حمزة، وعبدالوهاب عزام، والعلامة/ محمود شاكر من ستين سنة. عندك أرشيف كنز يا عَم الشباب!!.

يشعل (عم كامل) سيجارته، ثم يقول له:

- وعندي لك كتاب مهم عن (الكابتن/ محمود حودة) وتاريخ بطولاته مع الاتحاد والمنتخب، لكن لما أشوف مستواك في (الطَاولة)؟

يقف (إبراهيم) على حيله، صارخا:

- حُودة (أبو رجل ذهب)، يا سلام ياعمي!! لو تكرمت أطُل على الكتاب، قبل ما نلعب؟!

- أطلّ أنا على زهر(الطاولة) ..أولاً.

يسحب (إبراهيم) صندوق لعبة النرد (الطاولة) من فوق الدولاب المواجه للسرير، ثم يمسح الغبار المتراكم عليه، ويفتحه، فيظهر تآكل الصدف بالخشب الأبنوس.

- واضح أنها مقفولة من زمن!!

قال (عم كامل) ملحوظته، وهو يطفئ بسرعة سيجارته، بعدما انتبه أنه لا يصح أن يتعب (زينب) بدخانه. وضع (إبراهيم) اللعبة بينه وبين (عمه)، تراقبهما (الأم) فتأتيها صورة زوجِها، وقت أن كان يلعب مع أخيه (كامل) في الغرفة نفسها.

طرّقَع زهر اللعب، وبدأ مهرجان الصياح، ولَعْن الحظ، وسنينه...

– لو كنت ترضى تزورنا، كان الواحد لعب طول الوقت يا عمي يا.. (مَزَاجَنّجِي).

يرمي (عم كامل) الزهر رمية مُحكمة، ثم يسأل (زينب)، وهو يتابع أرقام الزهر، بعد توقفه عن الدوران:

– معاملة ابنك (الهجَّاص) لك مُريحة، ولا...؟

ينقل (إبراهيم) القُشَاط الأسود بعنف في خانة جديدة، وقد حَلا له التهريج، بعدما رأى اكتفاء أمه بهزة رأس بسيطة:

– "أوووبّا" معناها مقلق إشارتك يا ماما.. يا ترى مضموها تذمر أوشكوي؟! لا، خلّ بالك، لإنه ممكن يسحب مني هديته، والكتاب يضيع عليّ!

فيقاطعه، وهو يُدوّر الزهر بين إصبعيه:

– والدتك بنت أصول وشهمة، وشالت مشاكلنا كلنا، ومنهم أنا، وكانت اللسان الحلو المؤدب، هانم بنت هانم...

تغمض (الأم) عينيها، وتميل بالأذن المرهفة تجاهه، لتسمع بقية كلامه، وإن كانت لا تعرف هل تبتئس أم تبتسم، لما ذكرها بحلاوة لسانها الذي لم يعد يقدر على التعبير؟؟؟

يرمي (إبراهيم) زوج الزهر بحماس، وقد سخن جو اللعب، وعلا صوت (هَبْد ورَزْع) القُشَاط.

– بابا حكى لي أنك مرة من المرات يا عمي، لما كنت في عز شبابك، كسرت ضلع واحد فتوة، في أرض المطافي أيام لعب الكرة؟!

يندمج (عم كامل) في اللعب، يخبط (القشاط البرتقالي) الخاص به، في موضعه الأنسب، ثم يُعقّب:

– أنا (يا واد) لسّة شباب، أنت نظرك (شيش بِيش)؟

تضحك (الأم) ضحكة جميلة، ثم يردف (عم كامل):

– كان واحد بلطجي، وأصر أنه يلعب بالعافية (الماتش)، حاولت أمنعه بالذوق، لكن زاد في العنْد والفَتونة، فمسكته من غيظي، ورفعته، وكَومته على الأرض، بعد ما عَضْعضت له وسطه.

– يا سلام عليك يا عمي.. وكنت فعلا تنام على سلالم الترام وتمنع الناس من النزول؟

بدأ (عم كامل) يتكلم على راحته، كأنه يعوض صمت السنوات:

– فعلا.. أيام الترام القديمة بسلالمها الطويلة، والكمساري عادةً كان من (مالطة)، كان يتعذب من شقاوتي على السلالم، ويُرطُن كلمتين (إسكندراني)، وكان للترام –وقتها– مقطورة لونها أسود في أسود، لنقل الموتى، كان اسمها.. عربة الموتى.

يشخشخ (إبراهيم) قشاطين في يده كأنهما (صاجات) رقص، ثم يزعق:

- والكمساري المالطي يقول ساعتها: تذاكر تذاكر، ولا يقول وخدوووه.. وخدوووه!!

يضحك (إبراهيم) بمفرده على قفشته، يضرب بقدمه على الأرض، ويرتج كرشه البارز، ثم يعود لاتزانه (أوتوماتيكيا)، عندما لم يجدْ من يضحك معه. ويواصل (عم كامل) حَكيَّه بروح فَكِهَة نوعاً ما، بعدما أعاد تثبيت سماعة الأذن:

- أنا كنت مستقوي نفسي شويتين مع شباب(المِنشيّة) لما نلعب هناك، وكنت غاوي أدهن شعري فازلين، وأقلد تسريحة (كلارك جيبل)، و(حسين صدقي)، كنت (دون جوان) حَبّوُب.. فاكرة يا ست الكل؟.

(يحرك رأسَه بين كتفيه، يتذوق لذة الذكري، وتشير له (الأم) بعلامة الإيجاب، وهي ترجع رأسها بارتياح للوراء).

انقلب اللعب بينهما، وصعُبَ الفوز على (إبراهيم)، فيسخط على حظ (عمه)، عندما قَرَص الزهر بطريقه ماكرة:

- (دُوبَارة) !! كل شوية (دُوبارة)، " أيّوُووه" على قَرصك ياعمي... (يعطي له الزهر مرة أخرى، ليعيد رميته).

فيستجيب له، كأنه يراضي طفلَه:

- ماشي يا مُتعب، لكن من غير ما تعمل هَيْلَمان.

يعود، فيسأله:

– قضية الشقة شغالة؟

يبدو الضيق على (إبراهيم):

– القضية واقفة.. لأن الشركة فيها تغيير، وخَصْخصة، ومجلس إدارة جديد، وقُطران، وسياسة استثمارية على حسب الكيف.. المهم أن المحامي قال لي: إننا لو أرضينا المدير المسئول، بدفع مبلغ له في الكتمان، وارد بعدها يخفض القسط، أو يلغيه...

– إذا أردت أن تُنْجز.. فعليك

يكمل (إبراهيم) المثل بسرعة، كأنه يرد على القافية:

– فعليك بالوِنّجْز (يشير بإصبعيه بما معناه الرشوة).. البلد كلها ماشية بنفس المثل، وإلا يقف الحال. لكن أنا مستحرم بيني وبينك، أدخل في رشاوي، إلا إذا اضطررنا نحمي حقنا، قبل ما نصبح في الشارع.

– الوضع كله مقلق!! يا ترى الكتابة ماشية تمام؟ ولا اعتزلت يا أديب؟

تنفرج ملامح (إبراهيم):

– كتبت قصة لكن مجرد مسودة، وكتبت قطعة شعرية صغيرة إنما متردد. وناوي أضم مجموعتي القديمة، وأنشرها في كتاب، إذا سمحت الظروف.

يُنهي (عم كامل) الدور بطرقعة القشاط في الخانة القاتلة، فيغلق إبراهيم (الطاولة) وقد زايله هوى اللعبة... ويعود (عم كامل) للنظر للأم، يتأمل في مآل الدنيا، وجنون تقلباتها، ثم أراد أن يُغيّر من الجو النفسي، فرفع صوته قليلًا:

– فادية هنا يا إبراهيم؟..

– خرجت من ساعة، هي محتاجة انك تقعد لها، وتسمعها يا عمي.. من السهل تقبل كلامك، من غير ما تشتم، أو تلخبط.

– بإذن الله أكرر الزيارة، وأقابلها، وأغلبك بعدها في الطاولة يا غَشيم.

هفا لخاطر (إبراهيم) أن يكتب عن (عمه)، وبدأ يراقبه في طريقة وقفته، وإيحاءات عضلات وجهه، ومفرداته المتكررة. بحث في مخيلته الجوانية، فتولدت في ذهنه علامات، تبدو له، مثل خطوط بناء أدبي، تؤكد طزاجة الفكرة، في تأليف قصة شائقة عنه..يوماً ما.

ـ35ـ

لم يتوقع (إيهاب) القابع في غرفته، أن يدخل عليه (عم كامل) فجأة، رغم علمه بزيارته من صوت (أبيه)، وضجة لعب (الطاولة)، فاعتدل في جلسته على سريره. وجلس (عم كامل) بجواره، وهو يتفرس في وجهه، فيلحظ طول شعر ذقنه، ويقارن بين ما كانت

حالته، وطموحه في حبه -كما التقاه آخر مرة داخل (الترام)- وما يراه من انكسار، يظهر عليه الآن.

حيا (إيهاب) ضيفه مخذولا، ثم نظر لشنطة صغيرة، يرفعها أمامه، ويخرج منها (الراديو) الذي أثار إعجاب (إيهاب) من قبل، ناوله (عم كامل) إياه، كأنه يستودعه ثروته، ثم أشار عليه قائلاً:

- مُضْرب عن العمل!!

يُقلبه (إيهاب) بين يديه، في حين يقص عليه (عم كامل) قصة (رفيق أيامه):

- لَف، وسافر في شنطتي بلاد وقارات، ركب طائرات، ولَقط موجات إذاعات العالم من سطح البواخر، هو مصدر معرفتي بمصر في أيام غربتي، أنا اشتريته من محل كبير في (كازا) -كازابلانكا- في أول يوم أوصل فيه (المِغرب)، وبعد أسبوعين أو أقل، فتحته في يوم إجازتي، فسمعت منه قرار قطع العلاقات المصرية المغربية، واستدعاء المصريين فورًا للعودة، وفضل بعدها ملازمني -رغم الخبر الشؤم- في كل رحلاتي لغاية ما تعب، لما تعبت...

يفتح (إيهاب) الراديو، فتصدر منه أصوات مشوشة ومتداخلة، يفتش في طريقة تركيب هيكله الخارجي، بالرغم من صدود نَفْسه عن العمل. ويحوم حوله دخان سيجارة (عم كامل)، مع صوته العميق، مستطردًا:

- في (السودان) كنت أجمع أصحابنا، ونقعد طول الليل نسمع (نشرة الأخبار) من محطة (صوت العرب)، وساعات كنّا نحول المؤشر، ونسمع الأخبار من صوت - بنت الكلب- (إسرائيل)، ولما زرت (السعودية) كنت أسمع خطب (عبد الناصر)، لكن بصوت خفيف، لإن كلامه كان فيه تهديد، ويوم ما قررت أرجع مصر على الباخرة، اشتريت له جلد واقي يحميه من رطوبة جو البحر، وعند المرور والتفتيش في الجمرك، قبضوا على الزبُون (يشير للراديو) بحجة أنه جهاز غريب، ولا بد يتحققوا من طبيعته، وكانت مشكلة لكن عَدّت..، وعلى حالته وتقفيله من لحظة ما اشتريته، وما انفَك منه مسمار!!

انتظر (إيهاب) أن ينهي (عم كامل) كلامه بفارغ الصبر، لعدم تحمله سماع أي كلام، تحامل على نفسه، ليبدو أمامه لطيفًا:

- في أقرب وقت يرجع لك صاحبك في بيتك، وصوته يهز بيت الجيران.

نهض (عم كامل)، ثم وضع فوق الراديو مبلغًا ماليًا:

- لزوم قطع غيار وخلافه، والمهم إنك تشتغل، وتنشغل!

فهم (إيهاب) ما وراء كلمات (عم كامل) قبل أن يُكمل، عرف أنه استنتج سبب اعتصامه في غرفته، خاصة عندما وضع يدَه على ذقنه الطويلة نسبيا، ناظرا له بإشارة دالة، كأنه يقول له:

-"عُد لطبيعتك"..

لم يجدْ (إيهاب) الرد الملائم، فمكثَ ساكتًا ينشغل بالنظر في جهاز (الراديو) بين يديه، وعندما رفع عينيه، فوجئ باختفاء (عم كامل) من الغرفة، دون صوت، تتبعه سحابة دخان سيجارته من فتحة الباب الموارب.

-36-

دخلت (فادية) من باب الشقة في بدايات الليل، تحمل على ذراعها فستانها، ولا تهتم بالرد على لهجة (إبراهيم) التأديبية، عندما مرت أمام غرفته:

- ناوية كل يوم تتأخري من غير سبب؟!

وكأنها لم تسمع شيئًا، تواصل تقدمها، فتمر على (إيهاب)، قبل توجهها لغرفتها:

- باركْ لي يا إيهاب.. بارك لي.

يرى (إيهاب) الفستان، فيكتفي بابتسامة، دون أن يقول شيئًا، تستدير بسرعة إلى غرفتها، وهي تقول له بنفس الإحساس:

- لازم تشوفه عليّ، وتقول رأيك.

غاص في أسرار (الراديو) المعقد التركيب، تتناثر مكوناته على سريره، يفُك ثم يجرب، كأنه يقوم بعملية جراحية، نظراً لصناعة الراديو المتأخرة، يخشى ألا يجد له في السوق قطع الغيار المتاحة. يعيد تركيب ما حاول إصلاحه، ثم أداره، فأخرج أصواتًا تجيء وتختفي، وتعود

بقوة، ثم ينطلق منه صوت صفارة مزعجة، إلى ان اضطرَّ بعدها لترك غرفته، ليتوجه إلى (فادية) بعدما نادت عليه بإلحاح.

تدور حول نفسها أمام المرآة المستطيلة، لاح الفستان عليها مستديرًا على قدها النحيف، والأهم أنه أضاف لها لمسة حيوية، فانبسطت معه ملامحها.

– لذيذ.

تضغط عليه قائلة:

– صحيح؟! احلف على المصحف، والنبي؟

– والله رائع، وشكلك أصغر.

تسعد (فادية) بهذا الوصف، مما حفزها لأن تلف نصف لفة أخرى أمامه:

– الخيَّاط زَود لي بنستين من الجنب، وسمكتين.

(تقصد قطعة القماش المضافة تحت الإبط)

فردّ (إيهاب) بسرعة:

– سمكتين؟ بالطحينة، ولا من غير!

ابتسمت له، وهي تفتح باب الشرفة، ثم طار ذيلُ فستانها أول ماوطئت قدماها الشرفة، وضعت يديها على الجدار، متعمدة أن تنظر بعيدًا عن اتجاه نظرات (جارتها) و(زوجها)، تلتفت (جارتها) الحسناء نحوها، تهمس لزوجها، وعيناها عليها، فتمتلئ نفس (فادية) بكبرياء

الأنثى، وهي تلمح حملقة جارتها لها، ثم تنتبه للنجوم فوقها، صار لها وقت مديد لم ترفع فيه رأسَها، صوب بريق السماء العجيب. بقيت في وقفتها بشرفتها العالية تحلق في ذاتها، وتقتنص لحظات من صدق الإدراك، بأن نصيبها من الحظ والجمال لم ينضب بعد.

تضع فستانها الجديد في الدولاب، تجهز نفسها، وروحها، للقاء الغد. حلمت بذلك الموعد الذي كان في رحم المحال. لا تدري ماذا تفعل الآن من شدة عُنْفوان الفرحة، تعيد فتح الدولاب، لتطمئن على ثنية الفستان، ثم تتلفت حواليها، تستحضر أطياف النجوم، فتمس الأرض مسًا، كأنها راقصة (باليه)، وهي تتجه نحو جهاز التسجيل، لتملأ فراغ السكوت، بأغنية (أحلام) السارحة في خلاء الدفء:

– (يا حَمَام البَر سَقِّفْ، طِير وهَفْهَفْ، حُومْ ورَفْرَفْ...)

تفتح علبة (المرهَم) الحمراء لتلطيف البشرة، وبدأت تدعك بشرتها البيضاء بلين، ولكن سرعان ما تُوقف تنعيم بشرتها، لأنها نسيت أنها لم تغسل وجهها بعد، وتعجبت.. كيف فات عليها ذلك؟! فانفرجت شفتاها عن ثناياها مُتَبسّمة، لأنها تعرف أنها في حالة غير الحالة، فقررت أن تؤجل مهمة ترطيب البشرة للصباح الباكر بعد الاستحمام، و دون مقدمات يومض في بالها التوجس من لون الطلاء الذي لم تختره بعد، فجربت لونًا على ظفر إصبعها الصغير يتوائم مع لون الفستان، ثم اختارت لونًا آخر، فأعجبها.

عادت تفتح ضلفة دولابها، في حين يتوالى صَفيرُها المرنَّم مع نغمات الأغنية، تحاول أن تتأكد أمام المرآة من عدم ظهور عروق

رقبتها المائلة للزرقة، فارتدت (طرحة الحجاب) كما لو أنها ستنزل للشارع في الحال. رجعت تُدَنْدن، في حين تفتح مجلة (حواء) النسائية، فقد تستفيد من نصيحة مبتكرة، لكنها لم تجد ما يشبع تشوقها. رمت المجلة على السرير، ومدت ذراعَها، لتسحب بعدها مجلة (نصف الدنيا)، تفتش واقفة عن باب (التجميل- الماكياج)، تَفرّ الصفحات في تعجل. دفعها التركيز لأن تجلس على الأرض، تستلقي المجلة فوق حجريها، فتهيم في صور الجميلات، يأخذها التفكير لما سيكون عليه صباحُها المرتقب. كانت تنام كل ليلة، ولا تنتظر صباحًا، فما جدوى نور النهار لعمَاء يومِها؟! ما الذي تنتظره من شعاع اليقظة، بعكس الأخريات المتزوجات، فاليوم في حياتها (هي)، مجرد يوم، تليه أيام، تَكرّ سلسلة صدئة من السنين المتعاقبة.

- "لكن الليلة هي.. ليلتي!!".

ردَّدت الجملة في سرها، كأنما تُغنيها، تتفتح لديها شرايين الروح، للتجدد واستقبال يوم مختلف. أغلقت نور الغرفة، لتنام، قبلما يسرقها السهر. تقلَّبت على الوسادة، بعدما انزوت بكل جسمها تحت الغطاء، أنامت جفنيها على طَيفه، تمثلت زقزقة السعادة في وجهه عندما يجدها في عينيه، وسيكون قراره وقرارها، فلن ترضخ لأي ضغوط من أخيها وأمها، تَحُول دون الاقتران به. لم يبق في زمنها إلا بقايا قوس قزح، تخشى أن تنتهي بدورها إلى الذوبان، فتتركها عارية بلا حلم. رفعت الغطاء بسرعة، بعدما تذكرت أسورتها الفضية، فانتفضت خائفة، تزّن الهواجس في عقلها، فتحت درج ماكينة

الخياطة، يُوَسْوس صوت القلوب الفضية المعلقة في ذؤابتها مع حركة يدها، وهي تخبئها تحت الوسادة، خشية أن يسرقها (إبراهيم)..كما تتوهم!! لبثت تترنح بين الصَحو والكَرى، حتى قامت مع بياض الشفق متشوقة، كما لو أنها تستعد لاستلام أكبر جائزة.

يغُط كل البيت في النوم، أثناء عودتها من الاستحمام إلى حجرتها، أكملت هيئتها واستعدت، ونظرت لنفسها، لتراجع أي خطأ ما في شكلها.

جَدَّدَ هواء الشارع من جرأتها، وإن راودتها التساؤلات.

– "سأبدأ أنا بالكلام؟ هل سيذكُرني دون حرج؟ كيف سيكون تصرفي لو لم يكن استقباله كما أتوقع، وهل تغيَّر ما بداخله نحوي، هل...؟".

أمتار معدودة وتكون أمامه، فهو موجود داخل المحل، كما تراه بعينيها، وهي تدنو.. رغبت أن تجري عائدة للبيت من قلق اللقاء الأول بتناقضات مشاعره!! ارتعشت أطرافها، دقات شاكوش نجار الكراسي في الزقاق تنهال على إرادة قدميها، توشك أن تصيبها بالشلل اللحظي، فكرت مره أخرى أن ترجع.

–"ما هذا الذي أفعله.. أنتِ مجنونة يا فادية!!".

تستبق تخيلاتها فكرها، ستترك نفسها له، فترتمي على صدره، ستبكي أيامها التي جنت منها صراخ المرض، ستَحكي له ما لم تقله طوال عمرها، تتوسله أن يخطفها، ينقذها، يداويها، ستعض كتفَه من

التعب، ليؤويها في كَنفه، فينشلها من دناءة الدنيا، ويعيدها للحياة.. إنسانة!

اقترب خطوة، ثم توقفت.. تعللت بمسح الحذاء الذي علاه غبار قش التنجيد الهائش على الرصيف، ثم تجاسرت بالتقدم إليه، وهي تُمنّي نفسها بأنه آن الأوان لشفتيها أن تنفرجا عن كلمة.. (أحبك)، ستنطقها له، وهي التي لم تنطقها أبدًا منذ فراقهما، ستُخرجها من قلبها لعينيه ومَسْمعه، بعدما كانت تقولها سرًا تحت سواد الغطاء، لكن لا تعرف كيف ستخرج الحروف منها؟ كَتُومة.. خجولة؟ واضحة، أو ربما مجروحة كثيراً؟!.

تقف بالضبط أمام باب المحل.. واتتها شجاعة لم تفهم كيف انبَجَسَت من قُمقم النفس، طالت وقفتها، حتى التفت إليها، وجدها تواجه عينيه، تنظر له نظرة الغريق الذي يأس من مد اليدين، تميل رأسُها على كتفها ببطء، تحدق فيه بنظرة مهزومة، نظرة المسافر الذي اهتدى لمحطته بعد انتظار كاسر!! تمس عيناها تقاطيعه، وتنهم من ملامحه، يديم هو بدوره نظراته في وجهها، فتهز رأسَها له، لتريحه من تِيه التَذكر، فنطق فاغرًا فاه غير مصدق:

- فادية؟.. مستحيل؟!

ردت، وهي على نفس النظرة الثابتة نحوه:

- لا مستحيل ولا حَاجة.. يا يُسْري.

سحب كرسياً، وهو يستجمع وعيَه، أشار لها بالجلوس في ترحاب. جلست قبالته يسودها الارتباك الجميل، ويصلها صوت وسوسات القلوب الرقيقة في أسورتها، ثم سألها بصوت ذاهل:

- سألت عنكم، وعرفت أنكم في بيت جديد.

- صَحْ، في العطارين جنبك.

ينظر لوجهها:

- الدنيا فعلاً غريبة، أغرب من الأفلام!!

همَّت للأمام قليلا نحوه، لتقول له شيئًا، ولكنها امتنعت، وانتظرت أن يكمل هو كلامه، وهو يشير للشاب الصغير الذي بداخل المحل:

- ابني شريف هو الوحيد عندي، مع أخواته البنات.

ارتبكت أكثر، مما جعلها تعبث بأصابعها على قلوب الأسورة، تسأله عن اسم أصغر بناته التي لا تعرفه، فأجابها:

- سامية.. كان أمنيتي أن يكون اسمها على اسمك، لكن...

تلخبطت مع نظراته لها، كأنه سيضرب كل اعتبارات وجودهما بالشارع على ناصية المحل، ويختلس منها قُبلة الفَرَح باللقاء المفاجيء.. لم تجد ما تفعله في بحر هذه الثواني الحرجة، فرفعت يسيراً ذيل الفستان حتى لا يحف بتراب الرصيف، ولتلفت انتباهه، لعله يتذكر هديته، أو يطريها بتعليق معسول، كما تعودت منه في السابق.

أتى لها بعلبة عصير صغيرة، ثم قَرَبَ كرسيه منها، واعتذر لها عن عدم جاهزية المحل بالداخل. لم تطق الانتظار، لتتحقق من خَبَر طلاقه لأم أولاده، كما سمعت:

- كلكم في البيت مع بعض؟

تنَحنح، واستَرق نظرة نحو (ابنه) داخل المحل، فشرح لها:

- كلنا في بيت واحد من حوالي سنة، أنا كنت وحدي لما طلقت أم الأولاد، لكن راجعتَها، وقلت الطيب أحسن، خصوصاً أن (سامية) تعبت نفسيًا، ولَمّا تقدم لها زميلها للخطوبة، لقيت إن الصلح أفضل، ومن العيب إننا نكون منفصلين قُدام أهل عريسها، انت عارفة الناس طبعاً يا (فادية).

- يخرب بيت الناس!!

زَلّ لسانها من شدة أسفها، لرجوعه لزوجته، ثم استدركت باتزان:

- ربنا يوفقها، وتفرح بأولادها... وبَسْ.

راحت تهدئ من ارتعاشات توترها الداخلي، برشفات متتابعة من علبة العصير، وعاد يحدقُ فيها، ويحدثها كأنما يحدث نفسه:

- لكن أول ما شفتك استغربت جدًا، كأني ما عرفتك قبلها!

ثم ابتسم لها ابتسامة بلهاء، قبل أن يُخبرها، بيقين العارف:

- كبرتِ يا فادية!!

فزعت واقفة، كأنما مسها سلك عريان، فانطلق لسانها زاعقاً:

– وانت يعني لسه عيّل، خلّ ابنك يدهن لك صبغة على شعرك، تداري بها شيبتك.

تركته، واستدارت لتعبر الطريق في الحال. لا تنتظر منه أي رد، في حين ظل واقفًا في مكانه مبهوتًا... انحنت قامتها، عبرت الطريق، ثم انزوت تحت عمارة كبيرة، أرادت أن تُفرغ ما في جوفها، فتجشأت العصير، سال على صدر فستانها فتوسَّخ. تنهج بشدة، تطرق مطرقة الحقيقة فوق رأسها الهش. تفتت جنين الحلم فيها، تنسحق ببطء، وهي تطرد من داخلها آخر نقاط العصير، وتمنت لو تفرغ –من بوتقة ذاكرتها– كل أحداث المشهد.

ارتَجَّ البيت بصرختها، هبّت في جوانبه كالحريق، يجري نحوها (إبراهيم) مذعورًا، يكابد كي يسبق يدها، قبل لحظة غلقها باب الغرفة، يعتلج صوته الزاعق مع صيحات (أمه) المرتعبة، ولكنه لم يفلح في اللحاق بها، لا يعرف ماذا يمكن أن تفعل في نفسها؟!! فهذه المرة ليست ككل مرة، كانت صرختها صرخة واحدة فقط. صرخة طويلة بطول ممر صالة البيت. صرخة ملتوية أتَت من مغارات النفس المجهولة، صرخة كالسهم المنطلق ترشق القلب!! لا يَكف (إبراهيم) عن خبْط الباب، والتوسل لها، لتفتح له، أو على الأقل ترد عليه، ثم اجتهد باستماتة كي يدفع بقدميه الباب. يحفزه صوت (الأم) المتواصل. لم تفتح (فادية)، ولم تعترض أو تشتم كما اعتادت.. لم تبكِ أو تصرخ... لم يأت منها أي صوت!!

ماج البيت بالهلَع، لم يقدر (إبراهيم) على ثقل المسئولية، رجا أخته رجاء العبد لسيدِه أن تتكلم كَلمة، استحلفها بحياة أمها المشلولة، تخبط يداه على الباب بلا كلل. يأتي (إيهاب) مهرولًا من الخارج، لم تفلح نداءاته أيضًا لها، نزل بنظره، ليتَلصص عليها من فتحة الباب، فلم يجدها في حيز الثقب المحصور، تنهال على أذنيه أصوات أبيه المتشنجة، ويصله صوت (جدته) كمواء قطّة تَنْجرح، يطالبه (أبوه) العاجز عن التصرف، بإيجاد حل قبل أن تضيع، فقد ترمي نفسها من الشرفة. ظل (إيهاب) يلصق عينه في ثقب الباب، يُدَاخله شعور من الندم، لأنه لم يبتْ ليلتَه بجوارها، لكن أنىَّ له أن يُخمّن، وهي التي كانت في ليلتها تتألق بإكسير الحياة، دارت مُقلته تحاول العثور على ملمح أو خيال لها، إلى أن قُدر له أن يراها، تروح وتجيء بظهرها عبر حدود مستطيل رؤيته، لا يقدر أن يرى منها أكثر من ذلك، ليعرف ماذا تفعل، وما الذي بين يديها تَعكّف عليه؟!!

لم يرَ (إيهاب) الفستان على سريرها، تُمزق أكمامَه تمزيقاً، تجَز بالمقص أكتافه، كما جَزّ (هو) بجملته الأليمة شريانَ قلبِها:

-(كبرتِ يا فادية)...

تقرض عقلَها جملتُه، فتقتلها حسرات، يأكلها (بُعْبع) القهر، فقَطّعت المجلات، كسّرت زجاجات الطلاء، تقضم أظافرها، توشك أن تُدْمِي أناملها متعمدة، لعلها تنسى ألمها الباطني، ثم تُحدث نفسها بصوت مسموع بالكاد، وهي تكمل تقطيع بقية الفستان لتحوله إلى فتلات:

– قتلتوني كلكم.. ذنبي في رقبتكم.. حياتي راحت من غير ما يكون لي ذنب، حراااام..!!.

تطلق صرخة جديدة حادة، تكوِي فؤاد (الأم) في غرفتها البعيدة، ذكرتها بنفس الحالة، التي كانت عليها ابنتها يومًا... تدلُق المياه الساخنة على جسم (أمها) العاري، أثناء استحمامها على الكرسي، وتهرس بالليفة الخشنة جلد (أمها)، وتؤنبها:

– انت وابنك السبب يا ظَلمة، (بابا) أول، وآخر مخلوق أنصفني... صَح؟ أنا خلاص عَديت الأربعين سنة.. فاهمة إحساسي ياست.. ؟!!

لم تتأوه (الأم) في تلك الليلة، وهي على الكرسي عارية بين يدي ابنتها بالحمّام، كتمت معاناتها، كي لا تزيد اهتياج حالتها المَرَضيّة، تلطش (فادية) وجه أمها بالمياه من كل اتجاه. تعب جسم الأم الضعيف، لا تنطقْ بحرف، تتحمل بمشقة ضربات ولطمات المياه، تصبها عليها (فادية) كأنها تعاقبها، وبعدها جففت لها جسدها، وهي لا تكف عن التقريع والإيلام، ثم وضعتها في قميص النوم، كأنما تُلبسها عارَها.

دخل (إبراهيم) على أمه في غرفتها ليهدئها، ويخبرها أنها نامت، كما استطاع (إيهاب) أن يستنتج من فتحة الباب، فسكنت ظنون الأم، وإن أَرّقَها الصُداع بسبب عدم قدرتها على البكاء. جربت أن تخلد للنوم، وهي تريح ذراعها بجوار ذراع (إبراهيم) الذي سُرعْان ما غَفا من الإنهاك.

جَنّ الليل على البيت، وجثمَ على نفوس أصحابه، وبالمثل في الليلة التي أعقبتها، كل غرفه منعزلة عن الأخرى، كل غرفة يأكل صاحبها بمفرده، لم تخرج (فادية) من غرفتها إلا للحمّام مرة واحدة، أَبَتْ نفسُها أن تلقي أي طعام في معدتها، ولم يتكلمْ (إبراهيم) مع (أمه) إلا لِمَامًا، لانشغاله بصياغة نهائية لمقطوعته الشعرية، أما (إيهاب) فظلت أخاديد الغم تخالط وجهه، مثلما تخدش مخالب الحزن قلب (فادية). ذاقا الاثنان لتوهما من نفس إناء السُم الغادر.. لم تكن قصة الحب هي الغاية الأصلية التي سعى الاثنان إليها، فليس هو أو فادية (مع الفارق) من الباحثين عن الحب، أو من العالمين ببواطنه، وجنون أحواله، إنما كانت قصة الحب لهما مثل القشة، التي اتكأ كل منهما عليها، لتنقذ حياتهما من بشاعة العُقم، مما جعل (إيهاب) –رغم ما فيه– يخشى على (فادية) من الانتحار المتدرج، فهو الوحيد الذي يعرف سبب ثورتها، ولا يعرف كيف تقرر صروفُ الغد مصيرَها، فهي لا حَوْل لها ولا قُدرة، كأنها عروسة من القماش معلقة على أحبال بالية، في مسرح يحترق.

يمر بعض الوقت، تراوغ (إيهاب) أفكاره مستلقيًا على سريره، تحس أعصاب يده برودة زائدة تشيع في الجدار، فكر أن يقوم ويتسلَّى بالانشغال في اصلاح راديو (عم كامل) المرْكُون، لكنه رجع يتأهب للنوم في ملل، فأتاه صوت (أبيه) يُغَمْغم.

فطِنَ (إيهاب) أنه سيلقي قصيدة، فصرخ بداخله ممتعضًا:

– "يا بابا، خفّ علينا من وجع الدماغ!!".

قام في ضيق، ليغلقَ الباب، فسمع (أباه) يُحَدث (جدته):

– أقول لك من الأول، من غير ما تسرحي مني، لأني كتبتها من مدة، وأجلّتها.

أشارت (الأم) لابنها أن يقول قصيدته، بدلاً من هذه المقدمة الطويلة.

فبدأ يقرأ لها باضطراب:

– عيناها.. عيناها.. لقد رَأَتني بالأمسِ عيناها.. فأقسم غَدي..

انتبه (إيهاب) للكلمات، وقرر أن ينتظر واقفًا، بجوار بابه المجاور لغرفة أبيه، ولكن (أباه) توَقّف، كي يشرح لأمه لماذا اختار بعض المفردات، وسبب تفضيله لها عن مفردات أخرى، ابتسم (إيهاب) رغمًا عنه، عندما سمع (جدته) تُسكت حديثَ أبيه المرسل عن جماليات اللغة في الاستثناء، وأدواته. ونَهَرتُه بصوت ملول، ليستكمل قصيدته، وينتهي منها بسرعة. في الوقت نفسه فتحت (فادية) جفونها بصعوبة داخل حجرتها. ترى على الحوائط الأربعة حولها انعكاسات أضواء، فتغلق عينًا وتفتح عينًا، لا تفهم من أين انبعث دوران هذه الأضواء بحركتها الدودية اللولبية! أحست أنها تحلم بمكان جديد يتَعشَّش بداخله السحْر، ثم عاد لها الشعور بلسع السياط، عندما وجدت بضع خصلات من شعرها متساقطة جنبها، سحبتها ببطء. مضغت علقم الحقيقة، وتمنت أن تعودَ للنوم، لكنها ظلت ساهرة مفتحة العينين، تنظر للسقف بتبلد، يتسلل إليها حس أخيها

(إبراهيم)، لكنه لم يكن واضحًا بالقدر الكافي، بسبب صوت قَرقرة مياه تتساقط من ماسورة تالفة بالعمارة...

عاد (إبراهيم) يستعد لإلقاء قصيدته، وهو يكرر التنبيه على (أمه) بأن قصيدته قصيدة عادية تقليدية، من وَحْي الوجْد المباشر، تمهيدًا -من وجهة نظره- لعدم صدمة أمه فيما كَتَبه، فتوقف (إيهاب) بجوار الغرفة بعد خروجه من الحَمّام، عندما عاد يسمع (أباه) يستهل قراءة قصيدته مجدداً، ورافعا صوته:

- عَينَاها.. عَينَاها.. لقد رَأَتني بالأمسِ عينَاها.. فأَقْسَمَ غَدي أنَّه غَوَاها.. تُغْمض رمُوشَها، فيَسبَح كياني جُواها.. تملَكَتني فَأماتَتني، فأَحيَتني.. بهواها. عَينَاها، عَيناها.. عَشِقَ العشْقُ معْناها.. تُعَاتبني، فتصالحني، فلا يرقص الفَرْح لسوَاها...

تَعايش (إيهاب) بألمه العاطفي الملتهب مع الكلمات الشاعرية، يختلس النظر في وقفته المتوارية، نحو ظل (أبيه) على الحائط المقابل، وهو يميل بجسده الممتلئ، ويرمي ورقته، بعدما فاض إحساسه، ليقرأ عن ظهر قلب بقية القصيدة، فيرفع ذراعيه الاثنين أمام (أمه)، منفعلًا على سجيته:

- سبحان من أهداها.. صلَّى القمرُ لضحَاها. عينَاها.. عينَاها!! عَيناها..بحرٌ يتَحلَّىَ، شوقٌ يتجلَّىَ، قلبٌ يتلَّوىَ، حلمٌ يتَدلَّىَ، لا يبدأُ العمرُ إلا برؤيَاها.. كيفَ ينامُ من اشتهاها؟!.. هفَا النسيمُ لها، وغنَّى، علىَ سحابة تَتَثنَّى، عينَاها لا تُشبه الدنيا، عَينَاها هيَ.. الجنة!!

أنهى مقطوعته القصيرة، وهو ينظر لأمه فهي كل معجبيه، يخاف أن يكون عدم رد فعلها السريع علامة عدم الإعجاب، بَيْدَ أنه فوجئ بالرضا على وجهها، وهي تفكر فيما سمعت، ثم أومأت بتعبير وجهها المنشرح، بما يدل أنه كلام يستحق الإشادة، فاقترب منها خافض الطرف:

- جميلة يا أمي؟

كانت أحلى سعادته لما طلبت منه أن يعيد إلقاء قصيدته، فانبرى متحركًا في خط منحني، يحس بأنه يطير في واحة إبداعه، منغمًا صوته من طبقه أقل حدة:

- عَينَاها.. عيَناها.. لَقدْ رأتني بالأمس عينَاها، فأقسمَ غدي، أنَّه غَوَاها...

سار (إيهاب) دون أن يشعر به أحد نحو حجرته، يريد أن يرجع للوراء، ليدخل على أبيه يصافحه، ثم يسأله:

- "هل أنت أبي..؟!"

دخلت معاني وشحنات كلماته في وجدانه العَطِش فألهبته جمرا، صَدّق مشاعر أبيه، فدبَّ فيه الحنين لعينيها، وهي تقبل عليه أول مرة بملابس (المدرسة)، وشقاوة الضَفيرة، عاد جُرحه يئن، وما اندمل، ثم دخل غرفته يقطع صرير الباب استغراقه، لكن صوت (أبيه) الهائم يحُوطه، ومرة أخرى سأل نفسه باستغراب حقيقي:

- "أهذا أبي؟!!"

عاوَدته في وحدته الحيرة، وطغَي عليه نكء الجرح. نَبْش الذاكرة يهتك فيه أغشية الروح، بغيةَ أن يقبض على القلب المختبئ، فيدفنه... وما تعجَّب له، أنه قد اجتاحه خاطر، لا يمت بصلة لإحساسه العاطفي المفجوع، حيث تغزوه رغبة عدوانية في الحَسَد، والمحسود هو.. (أبوه) الذي وجده يتمتع بنعمة قُربِه من أمه التي تعشقه، ولا يكُن أبوه كائنًا دون وجودها، فاستشعر (إيهاب) وطأة فَقْد (أمه) الغائبة، التي كانت له ما كانت، وتمثلت لذاكرته مُنمنَمات العلاقة بينه وبينها، والتي تقترب - في زمن سابق- من تفصيلات علاقة (أبيه) مع (جدته)... تجدد بداخلِه شعورُ اليُتْم، رغم محاولاته أن يتملَّص منه دون فائدة، فكم يؤلمه ألا يجيء اليوم الذي يُشبع فيه شوق الذات لأمومة الاحتواء؟! بَيْد أنه أغلق صفحة أمه، ورجع يسترجع آهات الحُرقة، عندما انتبه وَعيُه على صوت (أبيه) يختم قصيدته:

- كيفَ ينامُ من اشتهاها؟! هفَا النسيمُ لها وغنىَ، تحت سحابة تَتثنَّىَ.. عينَاها لا تُشبه الدُنيا، عَينَاها.. هي الجنّة!!

من صوته اللاهج يحس (إيهاب) أن (أباه) سيُغمى عليه من فرط الإجهاد، بعد ما نحت كلماته بأزميل يجرف من لحم قَلبه، وقَلبِه هو أيضًا.. حل الصمت الشامل على البيت، ونام الجميع إلا هو، تئز في طبلة أُذنه قَرقرة ماسورة العمارة بوَقعها المستفز، ونباح كلب. حاول أن يعطل حواسه، ويرضخ لسلطان النوم، لكن كيف له ذلك وصورة عينيها لا تتوقف عن مراودته. في ناظريها تلك النظرة الميتة

التي لا تكذب، ولا تَعْطف، كالتي طعنته بها قبلما تتركه لاهية، دون أثر من شوائب عاطفة حامية سابقة. (عينَاها.. عَينَاها) ردّدها الابن بجوانح متكسرة، يولج في دغْلها قَنُوط مفترس، وقالها (الأب) بخفقات الوَتين الشاعر، من مرفأ النفس الصافية، يأمل بها بزوغ نهار مقبل... ثم وضع (ايهاب) أخيرًا، مخدتَه فوق وجهه، كأنما يطمع أن يسد عن خياله، مزيدًا من التصورات الجارحة التي هاجمته، فلم يعد يحتمل، وانخفض صدره وارتفع، وهو يكبس بيديه على طَرفي المخدة، يحاول أن يكتُم بها عن الأسماع.. نَشيجَه المر.

ـ37ـ

مضت بضعة أيام متشابهة مع ما سبقها، إلى أن أتى نهار يوم مختلف، موسوم بميلاد متن النهاية، وهامش البدايات الناقصة، تتداخل فيه حوادث متغيرة، ومشاعر تتضافر، ويطول نهر إيقاعه بلا حاجز، في حين تلتهب جَذوة زمن ينقضي.

في البَدء.. يستيقظ (إبراهيم) متحفزا، يتأنق في ملبسه، تراقبه (أمه) وتفهم وجهته المبكرة، يرش على رأسه وجسده ما يقرب من ربع زجاجة عطر.. حيّا أمه بإيماءة متفائلة، وردت عليه بما يشبه الدعاء. زَفَر قلقاناً، وهو يضبط الحزام على بنطلونه، ثم انطلق..

– صباح الخير.. أنتِ سحبتيني يا مُنى!

قالها بابتسامته الساذجة داخل المصعد، بعد ما تعمد أن ينتظر نزولها، وهو يتسمّع خطوات قدميها، عند خروجها من شقتها العلوية. ردَّت (منى)، وعلى وجهها علامات تنبئ بنوم غير منتظم:

– أسفة.. صباح النور.

– من حسن الحظ أن أبدأ يومي بطلعتك.

لون (الرداء–التَايير) الأبيض الذي ترتديه بأزراره السوداء اللامعة أضاف لها الكثيرَ من الرونق، فكاد (إبراهيم) من شدة انجذابه أن يتلو لها ما كتبه عن (عينيها)، لكن (منى) أسرعت لتدوس على زر النزول، بعدما أحست بتلكؤه في المبادرة، ثم أرادت أن تقطع عنه شروده في وجهها، فسألته بلهجة روتينية:

– (تانت) صحتها بخير؟

– لا بأس.. مشغولة بتوضيب الأكل، لأن عندنا غداء حافل لإعادة لَم الشمل مع عمي (كامل)، والقعدة تحلو بوجودك.

– ممتاز، لكن عندي مشاوير بعد المستشفى.

– بالمناسبة.. أنا مسافر (القاهرة) الأيام الجاية، لأشارك في مسابقة كبيرة في وزارة الثقافة، عندي أمل إن قصتي الجديدة تنال التقدير، لازم نحاول، ونسعى.. أي خدمة من هناك؟

– ربنا يوفقك يا إبراهيم، أنت حساس، وموهوب.

تهلل مُحيّاه، وشجعه كلامها على مواصلة حديثه بطلاقة، مع إنه يفتقد فن الحوار المباشر مع الجنس الناعم. وقرر أن يواصل السير معها حتى أول الشارع، ليفرغ ما بداخله تجاهها، أو على الأقل يلمّح إليه، لكن عند وصول المصعد للدور الأرضي، وقبل أن تفتح (منى) الباب للخروج، سُحِب المصعد لأعلى!!

– يا ساتر على قلة الذوق (قالتها منى في تذمر).

– لأن (الأسانسير) ملكهم، وعلى كيفهم، كأنها عمارة أهلهم!

(يغير لهجته فجأة، ويُحول دفة الكلام، فيسألها ببعض التكلف):

– تَعوَّدتِ على حياة الوحدة يا منى؟

– ساعات.. وساعات.

دارَى عينيه عنها مترددًا، قبيل أن يلقي عليها السؤال:

– يا ترى ممكن تخوضين حياة جديدة بنمط متجاوز.. لكل ما فات؟

خرجت منها ضحكة قصيرة، لكلماته الفصيحة دون مبرر، وقالت له:

– تَخُوضين ونمط متجاوز (ثم عادت لطبيعتها اللطيفة المجاملة) طبيعي أن لغتك في الكتابة تؤثر على طريقة كلامك.. عموماً في الحقيقة... (تحاول أن تجيب، لكنها تعود فتسأله):

– غَرض سؤالك إن..؟

(تحرك رأسها علامة عدم فهمها، أو كما لو أنها تريد أن توقفه عن المضي في التحدث عن حياتها الشخصية).

حَكَّ (إبراهيم) أرنبة أنفْه، واستجمع شجاعته:

- أقصد الارتباط، حياة زوجية مع شريك مناسب؟.

يتوقف (المصعد) عند مكتب الشركة، فيُدخل العمال صناديق ضخمة، وكراسي مكتب قديمة، تغطي أغلب مساحة المصعد، حيث سيتسلمها عمال آخرون أسفل العمارة. فيختفي جسم (إبراهيم) إلا من نصفه الأعلى مزنوقًا في زاوية ضيقة، في حين تبدو (منى) منزعجة من تعطلها، ويضطر (إبراهيم) المزنوق أن ينظر في مرآه المصعد، لكي يوجه كلامَه لها، بسبب وجود خابور أسفل كرسي مقلوب أمام وجهه.

- منىَ.. فاكرة سؤالي؟

ترسل (منىَ) بصرها بتملل لأسفل، نحو الدور الأرضي، مع هبوط المصعد، ثم تنظر له، لتريح باله قائلة بوضوح:

- إبراهيم.. أنا جرّبت وعرفت، ثم أنا على وشك الهجرة إلى كندا عند (شريف)، محتاج إلى وجودي جنبه..

فوجئ (إبراهيم)، فرَدد:

- كندا..!!

- شايفة إنه أحسن لمستقبلي العلمي والطبي... بعد إذنك.

يتوقف (الأسانسير)، ويبقى (إبراهيم) بمفرده داخله، لا يشعر بجلبة العمال، وهم يقومون بسحب الصناديق، والكراسي القديمة، فأنزل رقبته نحو صدره، لكن الخابورَ كان له بالمرصاد، فنَطَرَ رأسَه بسرعة، ومكث متسمرًا لا يقدر أن يتزحزح خُطوة، ولا يدري متي يُسْمَح له بالخروج؟!

في تلك اللحظات كان (عم كامل) يقوم بتنظيف بيته وتنسيقه.. يمسك جرائده القديمة، ينفض عنها طبقات الغبار، كما يفعل بقفص العصافير الموضوع على حافة الشباك، فينظف أسلاكه بفرشاة صغيرة، ويزيح بها بقايا الريش الميت، الذي طار عاليًا خارجاً من النافذة، يلقى (عم كامل) نظرة متمهلة على الريش الهائم قبل أن يختفي عن مدارك بصره، ثم شرع يُقّلب الطين في أُصُص الزرع، ويغرس نبتة صغيرة بمهارة وسرعة حاذقة، ثم مسح كفيه، ونظر في الساعة، وهو يرفع المفرش القطيفة الأحمر، ليغطي به كل المنضدة... تملأ جنبات نفسه راحة، لأنه سيتسلّم (الراديو) اليوم، كما أخبره (إيهاب) مؤخرًا في الهاتف. تأهب للخروج، لممارسة جولته اليومية، حتى يأتيَ موعد ذهابه للغداء في بيت (العطارين)، مذكرًا نفسه بشراء بعض الفاكهة قبل الزيارة. نظر لبيته بعد التغيير، وهو ينوى تكملة ما تم عندما يرجع. هَفَّ على باله أن يسحب نسخة من جريدة (البلاغ)، ليتصفحها في مشواره الطويل داخل الترام، بعدما سئم قراءة أكاذيب الصحف السيَّارة، ثم أدار ظهره لمغادرة البيت، وتذكر أنه نسيَ الشباك بالداخل مفتوحا، لكنه لم يجد في الأمر ما يستحق، فأغلق البابَ وراءه...

شمس ذلك النهار تتسلل أشعتها غرفة (فادية) من أسفل (شيش) الشرفة المغلق. يدخل عليها (إيهاب) بعدما وجد الباب مفتوحًا لأول مرة بعد أزمتها الأخيرة.. تمر عيناه على الفستان الملقى في ركن بعيد، ودون أن يتكلم حَنَىَ قوامَه لأسفل، يلصق ركبيته على الأرض، فيَرفع ورقة كوتشينة وحيدة من على السجادة، ثم يعيدها على الطاولة، لم تنبس (فادية) الجالسة أمام الطاولة ببَنْت شفَة. لُغة ملامحها تغني عن الكلام. يرص الورق، وينظر لها، فتبادله النظر دون رغبة في الإفصاح. يفرد ورق اللعب فيستطيل من بين يديه، ثم يشير لها على صورة (الولد)، فتفهم (فادية) دلالة إشارته، تهز رأسها بالإيجاب، وهي تتحاشى النظر إليه مباشرة. يبتسم لها مخففًا عنها، ثم يتوجه إلى مكان (المسجل- الكاسيت)، ويدير أغنية للمطربة (أحلام)، ثم يتركها بمفردها، وينصرف مع استهلال الأغنية العذب :

-(كلامك حلو.. خَلّاني... أعيش أيَّامي بالثانية. كلامك حلو.. قُول تاني، قُول تاني).

لَمّت (فادية) خصلات شعرها المختبئة تحت الوسادة، ووضعتها في جيب قميص النوم، ثم دعكت عينيها المرهقة، ولبثت تستمع للغناء، ورنين البيانو.

لا يطوي اليوم نهارَه، بل يحلو له أن يمد في حكاياه، ولا يسعه أن يبدأ جديدًا من الأحداث، قبل أن ينهي أسطر ما حدث مع (إبراهيم)، عندما عاد لأمه، يفك أزرار قميصه الواسع، يقُصّ عليها ما أخبرته به (منى)، جالسًا على مقدمة السرير، ومُوليًا ظهره لها:

– مسافرة كندا.. هجرة!

يسكت لحظات، وهو ينظر للا شيء، ثم يكمل:

– وأنا بغباء لساني سألتها: ممكن يا (منى)، (تخوووضين)...!!

يعيد الكلمة، وهو يُفخّم حروفَها، ويُمطها، ثم يعنف نفسه قائلًا:

– أنت كنت واقف – يا حمار– تتقرب من أنثى جميلة بشاعرية، ولا واقف مع لُغَوي فَحْل، تجادله في لامية (الشَنْفَري)، وتلاقي (منى) أول ما سمعت (تَخُوووضين) بطريقتي المفزعة.. قررت تهاجر فورًا!!

ضحك بصوت ضعيف ساخرًا من خَيبته، وهو يلقي قميصه على السرير، ثم حرك رأسه تلقاء أمه، فأشارت بيدها تجاه السماء البادية عبر زجاج الشرفة، فأكّد على مقصد إشارتها بلهجة من يُوَاسي نفسه:

– فعلًا، النصيب!!

جزّ على أسنانه، وظل مُوَليًا ظهره.

ـ38ـ

يعلن (الطفل) عصيانه، وهو يسأل أمه عن سعر المسدس الذي ينير فور الضغط عليه، كما رآه عند البائع:

– المسدس رخيص يا ماما؟

تجيبه أمه:

- رخيص.. اشتريه أول الشهر.

يمسك (الطفل) بذراع أمه، ويزداد إلحاحه:

- أرجوك اشتريه الأسبوع الجاي؟ أنتِ قلت إنه رخيص، كل أصحابي في المدرسة عندهم مسدسات جديدة!

ابتسم (عم كامل) للطفل الصغير، الذي يجلس أمامه مع أمه داخل الترام، ينظر (الطفل الصغير) نظرات متتابعة بركن عينه تجاهه، كأنه يتعرف عليه، فيفرد (عم كامل) إبهامه وسبابته نحوه بمثل شكل المسدس، فينكمش (الطفل) في حضن أمه، حتى يقترب الترام للمحطة التالية، فتحمل أمه حاجياتها لتستعد للنزول، ومع تزاحم الركاب على الباب والاستعجال، تقع الشنطة الكبيرة منها، فيبادر (عم كامل) بحمل الشنطة، فتتأسف له:

- لا مؤاخذة يا حاج..

ظل (عم كامل) ممسكًا بالشنطة عن طيب خاطر، حتى تنزل السيدة مع (طفلها) على رصيف المحطة، فيناولها إياها من على الشباك، في حين يبحلق (الطفل) نحوه، فيُحييه (عم كامل) من الشباك، ليفاجئه (الطفل) بأداء تحية (سلام عسكرية) له بكف يده الصغيرة، ثم يختفي تمامًا عن عينيه، كما اختفت في طيات السنين أمنيتة القديمة أن ينجب طفلاً.

انتعش مزاجه بعدما حلا له النهار، مع اتساع دائرة الشمس، تبسط أياديها بكرم من الأشعة الذهبية. وبدأ في تصفّح بعض

العناوين من جريدة (البلاغ)، التي تشير ترويسة العدد لعام 1933، وتبدو ابتسامته البسيطة عندما يقرأ إعلانًا:

"افتتاح الأسبوع الثاني من ديسمبر بالرواية الهائلة وأعظم روايات العالم (أنا.. كنت جاسوسة)، التي تفتح بها أبوابها لجمهور المصريين (سينما وهبي الكبير - المصرية البحتة)".

يَقلب الصفحة، وهو يرمُق اقتراب الترام من محطة (الرياضة الكبرى) عند مدخل سباق الخيل في نادي (سبورتنج)، ويعود يستشعر سيادة الروح الوطنية المصرية، التي كانت تغلف بقية الإعلانات في الجريدة مثل:

"نحن في عصر جديد يفاخر المصري بمصريته، وينتسب الأجنبي للمصرية، ليحظى بثقة المصريين، فشجعوا كل ما هو مصري صميم.. (آمون) هي فقط السيجارة المصرية الصميمة".

استرخى ذهنه، واستمر يطالع باستمتاع إعلانًا آخر عن:

"(شركة بيع المصنوعات المصرية-الشركة الأولى من نوعها في القطر المصري)."

يحوّل وجهُه عن هذا الإعلان، ليجد خبرًا في الصفحة المقابلة، يندد بقرار منع ألمانيا - بزعامة (هتلر)- استيراد القطن المصري، ثم يتوقف (الترام) لاستقبال ركاب جدد عند محطة نادي (سبورتنج)، حيث يشاهد أمامه جمهور المتراهنين في مدرج السباق. لغة أجسادهم تنضح بالانفعال، وهم يتوسلون أقدام الخيول الرشيقة التي ترمح،

وتستبق، بلا هوادة في المضمار.. يترك الترام المحطة، في ذروة السباق، وهوس المقامرة. ويثبت يده تحت ذقنه، تحدوه الرغبة كي يطلقَ العنان للتذكّر، خاصة أن المحطة التالية (كليوباترا الصغرى) تعيده لأيام شقة (زميل) دراسته الذي كان ينتظره في الشرفة، فيطلق له صفارةً طويلةً متعارفًا عليها بينهما، ويأمره بالنزول فورًا، ليلحقا ميعاد حفلة السينما، فينزل صديقه في الحال، ثم يستقلان (الترام) الذاهب لمحطة الرمل متعطشين لقضاء سهرة تنتهي في الصباح! لم يعد للعمارة أثر.. تهدمت، وبُني مكانها برج سكني ضخم، يحول دون نظر العين المتطلعة للبَراح. تمنى (عم كامل) في نفسه لو يشير للركاب، نحو مكان بيت صديقه:

-"هنا كان بيت أعز أصحابي، كنا طول الوقت نُعربد، ونضحك، ويغطي صوت ضحكنا دَوْشة الترام"..

ترن صفارة الكمساري، فيواصل (الترام) السَيْر المنضبط، يتطاير بعض الشرر من احتكاك عجلاتها بالقضبان، وقبل أن يعاود الانكفاء على صحيفته، التقطت عيناه سريعاً جملة بلون الطلاء الأخضر (الاتحاداوي) على سور المحطة:

"أنا باحب ليلى علوي، ويسرا، وحسني مبارك".

تلك الجملة الهازئة التي كتبها مجنون إسكندرية الشهير (جمال الدولي) يسخر فيها من الحاكم مع بعض التَورية، ولكن رجال الأمن طمسوا -كالعادة- اسم الحاكم، وإن ظل الناس يرددونه سرًا كلما صادفتهم عبارة (جمال الدولي). سأل (عم كامل) نفسه عن العلّة في

ارتفاع نسبة زيادة المجاذيب، أو أشباههم، في شوارع إسكندرية على نحو لافت، بات يعتقد أنها صارت سمة مميزة تستفحل في الشوارع، بل تكاد تلك الشخصيات تُعد من الشخصيات الفلكلورية في مجتمع المدينة المعاصرة، مثل: الشاب (الهندي) الذي يطوف الشوارع حاملا (المسجل) على كتفه، ويغني متمايلا مع الكلمات، والموسيقى الهندية فوق دراجته، وكذلك تلك الشمطاء التي تتراقص بجلبابها الأسود بين السيارات، في أثناء توقف حركة المرور، طمعًا منها في (بقشيش)، أو أنفاس سيجارة، فتجد صدَى لحركاتها الراقصة من الشباب، الذين يعرفونها بحكم العادة، وكثيرًا ما تتبادل معهم التلميحات الجنسية.

- تذاكر.. ورق.. دَفَعت ولا لسّة؟

قالها الكمساري لشاب جلس بجوار (عم كامل)، فما نال (عم كامل) سوى انقطاع تجوالات خواطره المنطلقة، وعاد يقرأ من جريدته، ينغمس في عصرها البعيد، فلم يستسغ أن ينهل من غزارة مقال صاحبها، ورئيس تحريرها (عبد القادر باشا حمزة) عن التاريخ المصري القديم، ونوَى تأجيل مطالعتها وقت الرجوع، ثم لفت نظرَه ديباجة متقنة من الجريدة، تقدم بها قصيدة عن فلسطين، قبل نكبتها عام 1948 بخمسة عشر عاما فكتبت:

"صيحةٌ عاليةٌ يرسلها الشعر الحيّ في ممالك الشرق وشعوبه، رحمةً بفلسطين الجريحة، وعظةً لها ولغيرها من هذه الأقطار الوالهة، والممالك الحزينة، تلقَّاها البلاغ من ناظمها الأستاذ أحمد محرم شاعر الوطنية

المصرية، والجامعة الشرقية، فنحن نذيعها كعنصر قوي من عناصر الأدب والتاريخ والسياسة".

- سيدي جابر الشيخ يا حضرات..

نظر (عم كامل) من الشباك، فوجد المحطة تَغُص بالبَشر، فانزعج على نحو أكبر من انزعاجه من الشاب الذي يتلصص بمكر على جريدته، فطواها مؤقتًا تحت ذراعه، وراح يُوجه نظراته تلقاء أغصان الشجر المتراكب قرب الوصول إلى محطة (مصطفى كامل)، قفزت في مخيلته شجرته الصغيرة، وهو يحارب لكي يستزرعها في فناء المدرسة، وقت إعارته للسودان في الخمسينيات. يقف حوله الطلبة ببشرتهم السمراء، مرتدين جلابيبهم وعمائمهم المحلية، يشفقون على أستاذهم الناشئ في علم الزراعة، وهو يدعو ربه كي يداري فشله الذريع في تجربة زرع الشجرة بفناء المدرسة، مما جعل الممثل الكوميدي (أبو لمعه- محمد أحمد المصري) بصفته ناظر المدرسة، يشخط بجدية وتجهم في الطلبة السودانيين، وهم يقترحون على مدرسهم الحلول الهزلية، وبدا الهرج يسود بينهم، فيستعيد (الناظر) النظام والهيبة للمدرس الجديد (كامل)، الذي تمرَّغت ملابسُه في التراب ممسكا بجذر الشجرة، يحاول غرسها دون جدوى، فيقترب منه (أبو لمعه - الناظر) بوجهه الحاد القسمات، وإن لم يمنعه وقاره المعهود في المدرسة من إطلاق قفشته، مشيرًا على الطلبة السودانيين:

- فضحتنا قُدام الخواجات!

تخفت ملامح المدْرَسة السودانية رويدًا رويدًا في عيني (عم كامل)، وإن ظل يذكر وقفته أمام رئيسه العزيز في مكتبه، ينظر له في احترام، مع ما أصابه وقتها من خصم وعقاب، خاصة بعد عدم قدرته لحظتها على منع ضحكاته أمام التلاميذ، الذين صاروا -لاحقًا- أوَفى من عرف في غربته. يتعَالَى شجر المحطة فوق شباكه، فرفع رأسه، يميل بصره على أغصانه المتشعبة، ثم يمرر كفُه على رأسه، ولسان حاله يردد:

- " أيام..!!".

يقترب (الترام) مزمجرًا، ليرسو عند محطة (مصطفى كامل)، وكالمتوقع في تلك الساعة ينقض طلبة مدرسة (عبد الله النديم) راجعين من مدرستهم، ليجتمعوا بالطلبة الذاهبين في الفترة المسائية، بالإضافة إلى أعداد مماثلة من بنات مدرسة (الرمل الإعدادية)، فأزعج (عم كامل) ضجيجُهم، وهم يتقدمون، يتسلقون عربات الترام، ويحدفون في هياج شنط الكتب على الكراسي، فقام بفَك سمّاعة الأذن، ليرتاح من لوثة صيحاتهم، لا يسمع سوى أصوات تبتعد وتختلط. يرى أفواههم تنفَتح، وألسنتهم تخرج، وتدخل، وتلعب، يتداخل (الكمساري) معهم في شجار لفظي حول: من دفع؟ ومن لم يدفع؟... يتفرج (عم كامل) عليهم، كأنه يشاهد فيلمًا صامتًا. لعبة مسلية تَسَلى بها بلا قصد، وإن غامت صورُ أشكالهم، وحركاتهم في ناظريه بعد ما كبَس النُعاس على جفونه، فحاول أن يقاومه، لئلا تغلبه نوبة نوم طويلة، ولا يقدر على الذهاب لموعد الغداء المرتقب...

ينشغل من جديد بمتابعة الأولاد، إذ يتجمعون عند قدميه أمام الشباك بغية النظر باهتمام، نحو أعلى بناية. لم يفهم فيمَ يتناقشون حوله، ويتجادلون بكل هذه الأهمية، ولِمَ تتعلق عيونهم وعقولهم بالمبنى؟! كأنما يقرأون غيبَ مُستقبلهم، تتحرك رؤوسُهم بمحاذاة المبنى، وهو يبتعد عنهم، ويوجهون أصابَعهم، نحو هذا العمود الحديدي الأصم الذي يتم تركيبه أعلاه، مما جعل فضولَه يعيد وضع السماعة في أذنه، في حين لا يزالون يرفعون أذرعتهم خارج الشباك مع سيْر (الترام) الهُوَيْنى. يَشي منظرُهم، كأنهم يتطلعون لكائن فضائي هبط على كوكبهم، فعرف (عم كامل) في النهاية أن هذا العمود، وما حوله، لغرض تركيب شبكة هوائية، وبث إشارة التشغيل لأجهزة (الهاتف المحمول)، ذلك الاختراع الوليد في مصر، الذي حدثه عنه (إيهاب) من قبل.. تساءل بينه وبين نفسه عن شكل وأسلوب حياة هؤلاء التلاميذ عندما يكبرون، ويَصلون لعُمْره؟ هل سيكون الترام ملاذهم مثله؟ أم سيكون وقتها شيئًا منقرضًا؟، وكيف ستكون تنقلاتهم في الزمن القادم، بعد عدة عُقود؟!

رمى عُقب سيجارته، ثم فتح جريدته بعدما ابتعد عنه الطلبة، لكنه انتبه لفَوْت محطة (محفوظ) بسرعة، تلك المحطة التي كلما مر عليها تعود أن يختبر ذاكرته، فيردد في نفسه:

"محمد محفوظ هو خطاط الملك فؤاد، وصاحب الخط التاجي".

فلم يكن من المعقول ألا يعرف أصل تسمية المحطات التي يكحل عينيه بأسمائها، في ذهابه، وإيابه طوال سنوات، لقد ظل اسم

هذه المحطة المنسية بين محطتين رئيسين مجهولًا له من وقت قريب، حتى أدرك ما يجهل، وإن ظل لا يتذكر الإجابة إلا نادرًا، فيرجع السبب لضعف الذاكرة العام لديه، ثم يسترجع المعلومة من المصدر ليحفظها مرة أخرى، حتى صارت عادته التي يداوم عليها أن يردد اسم صاحب تلك المحطة وصفته، لأجل فقط أن يتحقق أن عافية ذاكرته بخير. نظرَ في ساعته، فوجد فسحة من الوقت، فعاد لصفحات جريدة (البلاغ) الداخلية، مُطلعًا على رأي، واقتراح للمترجم الباحث/ (محمد لطفي جمعه)، يشدد فيه على ضرورة عمل نصب تذكاري للجندي المجهول وقتذاك، ثم أجال نظرُه، نحو عرض لمقال طويل عن أحوال الإسكندرية، بتوقيع وشهادة السياسي والكاتب المؤرخ/ (فتحي رضوان)، الذي كتب عن زيارته للإسكندرية عام (1933م)، وهو يتألم غضبا لمصريته، بعدما رأى المدينة في سطوة الأجانب، ولا يملك أهلها المصريون إلا الفتات، مما حفز (عم كامل) ليعيش في أجواء المقال بنَص حروفه:

" أهذه الإسكندرية من بلادنا، أهي من مصر، وأهلها مصريون؟ فإنني لم أر مصريين، بقدر ما رأيت أجانب، ولم أسمع لغة عربية بقدر ما سمعت رطانات رومية، وفرنسية وإيطالية، ولم أر متاجر مصرية تحمل أسماء مصرية بقدر ما رأيت متاجر أوروبية لتجار أجانب".

استكمل القراءة، وهو يرى فتوة شبابه، وزهوَ مدينته التي عاشها، وخَبَر نكهتَها في ذلك الحين:

- "ولقد كنت أركب الترام، فأعُدّ الطرابيش والعمائم، وأعُد القبعات، فإذا أصحاب القبعات أغلبية ساحقة ماحقة، وإذا المصريون أقلية مسحوقة ممحوقة.. ولقد سمِعت أن العطلة الرسمية في المدينة عن الناس هي يوم الأحد، حيث تمتلئ الحدائق مثل: (أنطونيادس) بالإفرنج، وتخرج السينمات أجمل أفلامها الأجنبية، تلك السينمات الأجنبية التي عَرفَت أنها تضم المصريين في جانب والأجانب في جانب، كما يُفصل العبيد عن السادة..".

ينهض (كامل) فوق رأسه طربوشه المكوي، يناطح (الكمساري) المالطي، ويفضحه بصوت عال أمام الركاب، بأنه سمعه يلعن المصريين في سره، يهيج عدد من الركاب بدمهم الحر تحرضهم طبيعتهم السَكندريَّة، في حين يجفل (الكمساري- الخواجة) من عصبية هذا الشاب، بطول قامته وصوته الجهوري، فيدافع عن نفسه:

- أنا لا شتمت مصري، ولا عربي.. انت شارب خاجة، يا صاخبي؟ (ينطقها بالخاء).

يرد (كامل)، ناظراً في شزر، ويفتح قبضتيه على أهبة الاستعداد للفتك بالخواجة، ثم يواجهه صائحًا:

- لا.. أنت شَتمت، و(شَخَرْت) يا خواجة، أنا سمعت شَخْرتك، وهي خارجة كأنها صاروخ من (مناخيرك)، فاكر نفسك إسكندراني يا خواجة؟!.. الشَخْر والفخر لنا بس ولّا..؟!!

لم يمر وقت يذكر حتى حمل الشاب (كامل) الكمساري المالطي، وهو يضحك مع ضحكات الركاب الواقفين حولهما، ففطن (الخواجة) أن الموضوع مجرد دعابة، فيبادل الجميع الضحك وهو محمول بين ذراعي (كامل) الطويلتين، يكاد رأسه يخبط في سقف الترام، ولا يتركه (كامل) أو ينزله، بل يلف به السبع لفات، في حين ينفخ (الخواجه) في صفارته، ممارسا عمله من دون توقف عند مغادرة (الترام) من المحطة، حتى تدور رأسه حول نفسه، فيرجو من (كامل) أن ينزله من بين ذراعيه، وبعدما لمست قدماه الأرض، إذا به يطلب منه أن يهدأ ويستكين، مراعاةً للميت الموجود في (عربة الموتى) الخلفية، فيتبدل لون وجه (كامل) من الهزل للجد والاحترام، بعد ما أخذ كفايته من التهريج والاستعراض، ثم يسأله عن الميت، فيخبره (الخواجة) متأثرًا:

- ست يهودية مسكينة، لقوها مقتولة في بيتها، ورأسها بعيدة عن جسمها.. يا خرام!!

طَأطَأ (كامل) رأسه، وعاد لمكانه في اتزان، في حين يتمتم بعض الركاب بلطف الله، وهم يمصمصون الشفاه، لبشاعة الجريمة، وعندما استعد للنزول إلى محطته، جعل يسوي بذلته، ويميل الطربوش فوق حاجبه الأيسر (لزوم المنظرة)، ثم يتجه للباب، ولا يَفوتُه أن يصالح الكمساري (المالطي) الذي يقبل مصالحته، لكن (الخواجة) بعدها يمد رأسَه كلها خارج الشباك، فيطرقع صوته مكايدًا (كامل) الواقف على الرصيف..

- ضحكت عليك يا صاحبي، لا فيه ميت، ولا يهودية، ولا مُلوخية.. شربت المقلب يا (كُوروديا)!!، أنا خواجة صخيخ، لكن راضع من بزّ العفريت..

يضحك (عم كامل) بصوت مسموع، مما يجعل من حوله يحسبونه مختلًا، ولكنه لا ينطر إليهم، فكل أنظاره تتجه إلى تلك الصفحات التي وَمَضت سطورها وصورها في باله، فجعلت الماضي يأخذ طورا مستقلًا في نفسه، يقلب في أحداثه، وشخوصه، ويتحرك في محطاته، كما لو أن عقلَه يلعب لعبة (شَقْلَباظ) في فراغات زمنية بعيدة المدى.

(بولكلي- إيزيس).. هكذا تقرأ عيناه على واجهة المحطة، فيحس أنه في حاجة للفُرجة، والكَف عن القراءة، بَيْد أنه أراد أن يكمل فقرة أخرى من نفس المقال، عن زيارة المؤرخ/ فتحي رضوان للإسكندرية، بأول الثلاثينيات:

"ولقد ركبت الترام، ورفعت رأسي، فإذا بي أقرأ على لوحة صغيرة أحكامًا صادرة من محاكم مصرية على مجرمين سرقوا لمبات الترام، أو زوَّروا في تذاكر الترام، فإذا هم جميعًا خواجات أجانب وليس فيهم مصري واحد، أليس يكفيهم أن لهم المتاجر، والمصانع والشوارع حتى يأخذوا لمبة كهرباء، وماذا تركوا في مصر حتى يحاولوا تزوير تذكرة ترام ثمنها خمس مليمات".

طرأ في ذهنه أن مقال هذا (الكاتب)، مع غيرها، من كتابات المفكرين، وأصحاب المواقف الوطنية الشريفة التي اعترضت على فرنّجة

البلاد، قد ساعدت في الحاق أسماء مصرية خالصة مثل: (إيزيس/ رمسيس/ الكرنك....)، لأسماء محطات الترام الأجنبية مثل: بُولّكلي أو (بُوكْلا) كما ينطقها السكندريون، أو جليم نسبة إلى (جليمو نوبلو)، لكنه لا يجد سببًا لعدم إيجاد اسم عربي، أو فرعوني مرادف لمحطة (سان استيفانو) إلى يومنا هذا؟!

دهمته الصيحةَ المفعمة بالانتماءِ من (قريبه) الطالب -حينئذ- بالمعهد الديني، الذي حلَّ عليه ضيفًا من بلدة (كفر الدوار)، وهو يقف أمام تلك المحطة، ينصب قامته عاليًا كأنه يطمح ليزيل اسمها، شارحا له:

- معقوله تكون أجمل محطة عندكم بهذا الاسم يا كامل، عارف أصل التسمية؟ هو اسم معاهدة بين الروس والبلقان مع الدولة العثمانية، بعد موقعة حربية انتصر فيها الروس على الأتراك، وكانت أكبر هزيمة سياسية للدولة العثمانية، والخلافة الإسلامية في أوروبا... أيّ هوَان أكثر من أن تضحك علينا شركة الترام الأجنبية، وتخلد هزيمة المسلمين في أهم أحياء بلدنا!! وتقيم أشهر فندق بنفس الاسم، ونقبل نحن بمنتهى الجهل والخُنوع، ولا نُغيّر الاسم؟ ألسنا مسلمين يا بَشَر؟!!

اهتزت قضبان الترام تحته، فتعجب من هذه الهزة الغريبة، لأنه صار بحكم العشرة يعرف موقع كل اهتزازة للترام بين فواصل القضبان، عبر المحطات. لكن لأول مره يهتز الترام بهذه القوة، في أثناء قرب

وصولها لمحطة (سان ستيفانو)، مع ترديد الكمساري لاسمها مرتين لتنبيه الركاب، فسأل نفسه:

-"هل خُيّل له ذلك، عندما نخزت كلمة (سان ستيفانو) في قلبه نخزًا جارحا؟!!"

حاول أن يتناسى هذا الاسم، وينشغل بالقراءة، لكن.. هيهات، إذ طغت الضغوط على منارة ذاكرته، لتتوهج، ليس لأنه تذكر أن (سان ستيفانو) لها علاقة بهزيمة المسلمين الأتراك، لكن لأن هذا الفندق كان شاهدًا على آخر لقاء بينه وبينها:

- "فريال".

تتكون تعبيرات وجهها في نسيج الوجد وَصفًا وَصفًا. صورة وراء صورة، فهي عنده نزْف النفس، وبؤرة الحقيقة، وسر الانعزال، وكل الاكتفاء...!

على أول سور الفندق تقف، أمامها (كامل) متأنقًا. أضواء الفندق واهنة وراءهما، ينكشف في موضع وقوفهما جانب من البحر، ناشرًا عتمته في الخلف، تزأر أمواجه كأنها نذير.. تضطرب (فريال) أمام حبيبها، وتسأله: هل سيتزوجها أم لا؟ بعدما راودها بفتون كلامه ووعوده، حتى احترق قلبها، ولم تر من قادم أيامها سوى العيش في بيت يضمهما هي وهو. ملأ عينيها، بعدما غَمَر قلبَها من حنان معاملته، ورومانسيته التي افتقدتها تمامًا في زوجها. أأخطات عندما تركت مشاعرها نحوه؟ فليكُن..لكن هذا لا يجدي الآن، فقد انغرز

الرمح في مسكن الشعور، ولم تعد تطيق أنفاس زوجها، فعندما تحب المرأة لا يملكها، ويحرك خلجاتها إلا حبيبها، لذا طلبت الطلاق، كي لا يلوثها الإثم، وانتظرت في هذا اللقاء أن يحسم (كامل) موقفه، لتعرف إلى أي اتجاه ستكون محطة حياتها الآتية. انتظرت أن يجيبها، وهي تتعشَّق في وجهه، تتعشم في هَوَاه، لكنه أطاح بكل آمالها، وأمرها أن ترجع للبيت، وتلوذ بالزوج، فقد وجد أن الاقتران بها أمر لن يقدر عليه...!

حاولت معه أن تفهم الأسباب وتفندها له، وهي تحس أن مع كل كلمة تنطقها، تتهاوى كرامتها عند قدميه، في حين ظل يرفع رأسه، يكلمها من الحنجرة الغليظة، ملقيًا عليها درسًا في إعمال العقل، وتوخي الرزانة، بعدما ألهبها في الأمس القريب بلظَى الغرام وأمانيه، فشَلّ عقلها... لبث أمامها ثابتًا على وقفته، وموقفه، وعلى اتجاه نظرته العابثة نحو سور الفندق العالي، لا يجد كلامًا آخر ليقوله...

هز هواء البحر الرطيب جأشها، كادت تقع أمامه، لا تعرف لها سبيلا بين الرجوع لزوجها تعانق حيوانيته الرخيصة، أو تتوهم حُلم الحياة مع من أحبت؟!! تتدغدغ أعصابها، تتوه نظراتها، ثم تلملم ذيول كبريائها، فتقول له:

- أنت ظَلمتني يا كامل.. ظَلمتني!!

أبعدت بعزم وجهها عن وجهه، وولّت في اتجاه البحر، خلخل همها حركتها، فسارت بجوار سور الفندق، تتسَنّد بيدها عليه، وتتراص فوق رأسها المنكس مصابيح السور الصفراء..!

يراها من شباك (الترام) وهي تروح من أمام عينيه، تختفي تدريجيًّا أمامه كنقطة ضوء في أحضان الذبول. شعر أنه يريد أن يرجع لها، فيهدئ من روعها، لكن (الترام) قد تحرك.. وانتهى الأمر.

وَدّ الآن، وبعد كل هذا العمر لو يضرب رأسه في زجاج الشباك.. أدرك بعد فوْت الوقت، أنه ظلمها بغواية مشاعرها الأنثوية، لم يحمها من انفلات عواطفها المحبوسة، أرخي العنان لها فسحبها معه كالموج المحتال. ضحت بكثير من مالها، لكي تساعده. كانت تجري لتبحث له عما يطلبه، ارتسم في عقيدتها القلبية أنه رجلها فانضوَت في كينونته، ولطالما عانت لتحافظ على عفتها، قاومت، وقاومت حتى اكتوت من فكرة المقاومة، كأنها خلقت لتقاوم، لا لتعيش!! صبرت لليوم التي ستنتطق فيه علنًا أمام كل الناس أنه زوجها، حيث وعدها بإمكانية الزواج العاجل، فصدقته. لكنه جاء في الوقت المحتوم، وفك حبل الوصال، فهوَت على الأرض، لا تعرف متى، وأين ستقوم؟

انطوى على نفسه، بعدما أحس بجُرمه، عزل من حينها عالمه عن بقية العالم، ليعيش في صورتها لاغير، ولم يجدها بعد هذا اللقاء الجارح، ولم يعرف لها مكانًا. اختفت كالمحار في القيعان الداكنة، ما الذي جرى لها بعدما تخلى عنها؟ يحلم بها في يقظته قبل منامه، وهي تذبحه بكلمتها الأخيرة:

- "انت ظلمتني، يا كامل".

تَجمَّع الندم يعصر قلبه، يحرمه من النوم أوقاتًا كثيرة، خاصة أنه لا يعرف إن كانت سامحته.. أم لن يكون؟

- "اعترف لك.. أني فهمت بعد ضياع الأمل أنك نفس كبيرة، وأنا النفس الشرهة التي تدور في دائرة الأنا.. اعترف يا أغلى من قابلت أني ظلمتك.. لم أظلم إنسانًا في حياتي، فلا أعرف كيف ظلمت حبيبتي، كسرت قلبك، وبحثت عن نفسي، رغم أني تمنيت أعيش معك، كما تمنيت أنت، سامحيني يافر...!!".

ربتت بيدها على كتفه، فجفل فزعاً لينظر وراءه، فوجدها (بائعة المناديل) بالترام الذي صار خاليا تقريبا، فأخذ منها، وأرضاها، لم يرغب في النظر من الشباك، أو فعل أي شيء إلا أن ينزوي في أعماقه. استسلم لبَدء النعاس، ثم لمح إعلانًا جديدًا عريضًا بالألوان الساخنة في واجهة المحطة لصورة طفل جميل، يأكل نوعًا جديدًا من البسكويت، فامتزجت صورته بالطفل الذي حيّاه (بالتحية العسكرية) على الرصيف، بأول النهار.

- وصلنا ياحضرات ..الترام داخلة المخزن بعدها.

هكذا نادي من بعيد (الكمساري)، وهو يراجع نقود التحصيل في شنطته الجلدية.. لم يسمع (عم كامل) ما قاله الكمساري الذي لم يجد بُدًا من أن يتقدم إليه لينبهه:

- يا حاج اصح. آخر محطة. وصلنا. يا حاج!!

اضطرب (الكمساري)، وأُرتِج عليه، فور اكتشافه أن (عم كامل) قد نام.. إلى الأبد.

صعد السائق، وناظر المحطة يساعدان (الكمساري)، بعد علمهم بما حدث. قاموا بفرد جسد (عم كامل) على أريكة الترام الممزقة، خَلعوا السماعة من أذنه، فتشوا أوراقه، ليعلموا بياناته الشخصية. أغلق (الكمساري) الشباك بجواره. لا صوت سوى ضوضاء الشارع البعيدة، وصوت مفتش الترام يردد شهادة التوحيد، والآية القرآنية:

- إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ.

غطوه بأوراق جريدته القديمة، فسترت كل جسده الطويل في حين امتدت ساقاه للأريكة المجاورة.. يقبع وحيدًا في عربة الترام ينتظر الدفن، وتخروش الجريدة بفعل الهواء على جلد وجهه المستكين عليها إعلانات (سينما وهبي الكبير، وسيجارة آمون المصرية البحتة)... يبدو كأنه أخَبْت إلى قَدَره في هدوء مطيع.

يا تُرى هل يفتش عنها الآن؟ ليلقاها، أو ينتظرها ليسترضيها، فيسعد معها في حياته الأخرى، بعدما أخفق في السالفة؟ أم تراه يتعرف على إجابة سؤاله، الذي قرأه من ضمن ما قرأ، وطالما ما كان يناوشه:

- " أفي الحياة موت بداخلنا يحيا؟! أم في الموتِ حياة، قد تكون أحلى؟! ".

أو لربما يحلم في هذه اللحظة بتكّة زر (الراديو) عندما يفتحه، فيأتي له في سكوت القبر صوتُ (المذيعة)، باسمًا:

-"هنا الإسكندرية...!!!".

ـ39ـ

تدعك (مبروكة) ذراع (الأم)

- عرفنا الحمد لله مكانه أخيرًا، وعملنا له زيارة في النطرون، وكانت زيارة ما يعلم بها إلا ربنا، (آلاء) قَطّعت روحها أول ما هَلّ أبوها قصادها.. المهم يا ستي، عندي لك خبر يسعد!

تعطي (الأم) لها أذنيها، فخفضت (مبروكة) صوتها، تسألها عن وجود(إبراهيم) بالبيت، فأشارت لها بيدها، بما يدل أنه على سَفَر، فتشَجَّعت (مبروكة)، واقتربت منها، لتُبشرها.

ـ40ـ

قام (إيهاب) من جلسته على صخرته المفضلة ليسلم عليه:

- أهلًا يا دفعة!!

جلس (عسكري البحرية) المجند، وزميل (إيهاب) القديم في الكلية، يحمل (لفافة ورقية)، وشنطة جلدية، ثم أخبره:

– باقي ساعات، وبعدها أقلع (الميري).

– فاكر لما كنت تحسبها بالدقيقة ؟!

انشرح وجه (العسكري)، الذي تدل سمرته أنه من أرض الجنوب:

– كله مقدور عليه إلا خدمة الساحل في سواد الليالي، برودة الجو كأنها (سُنكي) تُنْخر أصلب بدن، وعهد الله..، لكن أي حاجة لها نهاية.

يفتح (العسكري) اللفافة الورقية، فتَهب منها رائحة السمك المشوي الطازج، ينظر لصديقه بوجه طلق:

– بسم الله يا أبو إسكندر.

– لكن الواجب علينا، نحتفل بنهاية مدتك.

– لولا وقوفك جنبي يا بن الطيبين، في مركز التدريب، لقضيتها ضنك، وتكدير مع الأكل (الميري).

– لأني لما كنت أطلب منك أي محاضرة، ألاقيها عندي، إنما الغريبة يا أخي، إني في الآخر كنت أنجح، وتسقط أنت، وتعيد السنة!!

يضحك (الاثنان) في مودة، ثم يُقْدمان على الأكل، ويشاركهما الطفل (عثمان)، بناء على دعوة (العسكري) الذي يقول له، مشجعًا:

– شد حيلك يا عثمان، يومك واعر..

يجيبه (عثمان)، وهو يحشو نصف رغيفه:

– كلها أيام، يا حضرة الصول!

يستظرف (العسكري) اللقب الذي منحه إياه (عثمان)، ثم يتجه بنظره وراءه، فيجد مجموعة من (الشباب) يقومون بعمل تمرينات رياضية موحدة الخطوة والحركة، تصحبهم (فتاة) في العشرينيات، تتولى تصوير التمرينات بكاميرا (فيديو) صغيرة.

يُبدي (إيهاب) إعجابه بطزاجة لحم السمك الطري، ويتعجب من المصادفة، التي جاءت بزميله العسكري إليه، كأنه يعرف أنه سيقابله، فيرد العسكري في بساطة:

– رزقك يا بركة.

– ناوي تشتغل لما ترجع البلد؟ أقصد لقيت فرصة؟

– أبدًا، لكن المعافرة على السفر أمر لا بد منه، لأن الوضع العام يخلّ الواحد يهج.

يوافق (إيهاب) على كلامه، منشغلًا بنزع الشوك من قلب سمكته:

– لكن تفتكر أفضل مكان أو بلد مناسب هو..؟

– أرض الله واسعة (يشير تلقائيا بيده اليسرى في اتجاه مراكب الصيد).. فيه كلام واتفاق مع ناس، لكن المهم تتم، ولو إني بيني وبينك، كاره للترحال.

يبدو (الاثنان) كجسمين شبه معتمين (سلويت) في مواجهة لجُ َيْن الشمس ينصهر متأنيًا في رمادية السحب. يرفع (العسكري) رأسه صوب صفوف طيور النورس المهاجرة، وهي تتوغل في البعد الفراغي ما بين دفتي البحر، والسماء.

- نوة (المِكنسة) قربت؟

يرنو (إيهاب) نحوه مفكرًا، فيرسل بصره نحو سرب الطيور تلاحق السفن السارية:

- ميعاد النوة لغز!

- لكن النورس قدامك، رغم أن النوة تأخرت عن ميعادها.

ينظف (إيهاب) أنامله بقطرات من نصف ليمونة، ثم يستفسر منه:

- النورس له علاقه بالمطر؟

- النورس يسافر من أوروبا، ويزور بحرنا، يبشرنا بنوة المِكْنسَة، وبعدها.. يكنس المطر البلد.

يداعبه (إيهاب):

- الفضل للبحرية.. زَودت معلوماتك!

ظل (العسكري) يحدق مليًّا إلى البحر، يستطلع رموزه الجارية، في حين يرى (إيهاب) كما يرى النائم، أنهما يترنحان فوق (زورق مطاطي) في ثَبَج الموج، يتشاركان نفس المزاج، والظروف.

- القَعدة مع البَحارة في سهرات (الخدمة) بالسلاح، عرفتني مغامراتهم وخبرتهم.. مع ان الواحد يا أخي نفسه قرفت من العوم في البحر، لكن يفضل الشُوف في أمواجه أحلى حافز، يخلّ الواحد يعاند، ويخشوشن، ويقدر يُرفض.

ثم يكمل:

- تعرف يا إيهاب أن إسكندرية مُعرضة للغرق.. نهايتنا في بطن البحر، يعني.. نفس مصير أجدادنا!

- تكهنات علمية، و افتراضات.. أظن؟

حَرَّك (العسكري) رأسَه، يستطلع من وسط البحر ناطحات المدينة المتاخمة للشاطئ، وخرجت من عينيه السوداوين الواسعتين نظرة نفَّاذه، تحمل ثقة الاستشراف. شعر (إيهاب) وكأنهما يعومان في بحيرة من الزئبق، ويتنقل بهما الزورق الطافي ببطء نحو ستار من الغمام النائي. تلوح فوقهما أسراب الطيور، تفرد أجنحتها البيضاء الطويلة فوق مراكب البحارة. تأتنس بهم، وترحل وراءهم، ثم تفتح مناقيرها، وتضحك أصواتها بما يشابه النحيب!!

أعاد غمس يده داخل الماء، تراوغ عقله نبوءة صاحبه عن الفناء المرتقب، مما جعله لا يصغ باهتمام كاف للعسكري، عندما نبهه:

- صخرتك الأزلية مصيرها الردم التام، الاستثمار السياحي له سُلطته في بلدك، يا صاحبي.

يعلو فوق الصخرة الحماس في أصوات مجموعة الشباب الموجودة من قبل. يصل رَجْع أصواتهم لمسامع (إيهاب)، مع ولُوجه في العالم المائي البعيد، يشاهدهم وهم يؤدون تمريناتهم العضلية في نظام منضبط. سيقانهم عالية كالأعلام تجابه قوس الشمس، يندلق من جانبيه هالات الضياء.

قطع (العسكري) بصوت جازم حيرة (إيهاب) البادية على ملامحه، فيقرأ طالعه:

- فيه ضيق جواك، وخوف..؟!!.

تتمايل الأمواج بالزورق، بمثل ما تَتلجلج حيرته في نفسه. فيقر معترفاً:

- حقيقي...

امتلأت نبرات صوت (العسكري) عنادًا، يخبط معترضًا بيده على نتوءات الصخر البارزة:

- لا تتردد في قرارك، وإلا فضلت على الصخرة، تتسلى بالتفكير، وصدقني.. الخوف أخطبوط، اقتله قبل ما يهلكك.. فاهم؟؟... (ياااه).. خسارة بجد! (يقولها نادمًا، وهو يربط بإحكام رباط حذائه الأسود الميري).

يعود (إيهاب) لطبيعته، ودرايته بما حوله، يحاول إضفاء قدْر من المرح، وهو يضع في سنارته طُعمًا جديدًا:

– خسارة؟! نسيت كلمة سر الليل يا عسكري يا (بَعْكوك)؟!

– أبدًا سيادتك، لكن لو كان فيه هنا شوية شاي، بعد أكله السمك الجامدة !

يروح صوت قهقهة (العسكري) مع دفقة ريح تشتد برذالة، ويرتفع بعدها صوت بوق (عثمان)، مارًا ببضاعته بين مجموعة الشباب بعد إنهاء تمريناتهم. يقف بعدها (العسكري) متأهبًا للعودة لوحدته العسكرية، فيقوم (إيهاب) لتوديعه، يعانقه (العسكري)، ثم يواجهه بروح المقاتل:

– كل صعب له نهاية.

استقرت هذه النصيحة في ذهن (إيهاب)، أحس أنه يريد أن يتشبث ببقاء صديقه، ثم وجد لسانه يردد موافقًا:

– نهاية!

الزعيق الحاد من فريق الشباب يزداد، وهم يقومون بعمل أداء تمثيلي تعبيري صامت، بدا أنه نشاطهم الأساسي الذي أتوا له خصيصًا للتدرب، في حين تمدهم (الفتاة –المخرجة) بالتعليمات الفنية الموجزة، فيمتثلون لإشارتها، ثم يسلمون وجوههم ليديها، تضع عليها خطوط المساحيق البسيطة الموحية. وتتناوب المجموعة وهي تنتصب على الصخر، للتعبير عن كوامن ودرجات الغضب، وبعدها تقلد أصوات الرياح، ثم تُحاكي إقعاء الكلب الذليل.

في نفس الأثناء، لم يفهم (إيهاب) ما الذي حدث له، كأنما صحا من حُلم نهاري مغلف بالتشوش، فأراد أن يجري ليَنشَب أظافره في منكبي (العسكري)، ليسأله متى، وأين رآه من قبل؟؟، فهو لا يتذكره! أويتذكر شبيهًا له، لكنه ليس هو.. فكيف خضع لعظاته الفجة؟ وكيف انطَلى عليه تقمصه الخائب لشخصية العراف الحكيم؟! لَمّ حاجاته في غيظ، لا يجد رغبة في المكوث أكثر من هذا، ونهض يحمل بوصته، مارًا بين صفوف الممثلين، وهو يشعر بتهاويل الغموض تسربل أركان وعيه!!

ـ41ـ

جَادَ الغيثُ ليلَ المدينة مدرارًا، ليُشبعَ نهمَ اليابسة، ويغسل النفوس من أدران الضجر، وكذلك لينهالَ على (إبراهيم) تحت البيت بعد عودته من العاصمة، فيوقظ فيه أهازيج الطفولة، وينعش حيويته، وهو يستقبل ضيفَ السماء، ويغمر جسده في بحر مائه المنهمر. يهف شوقه الظامئ ليقفز على الرصيف عدة قفزات نَزِقة، ثم يلف رافعًا ذراعيه، تاركًا سوانح نفسه تنساب مع خيال نغمات آلته الأثيرة (الأَكُورديون)، فتنثال الموسيقى على نافذة مخيلته، فيرى نفسه في الجو محلقاً – على الرغم من بدانته– يُطوح ذراعيه وساقيه في ذُرَى الفراغ، يتجرع من ثُمالة النغمة، ويسعد قلبه بمسرة اللقاء.. وكفارس الأحلام لاح أمام عيني (أمه)، بعد ليلتين من الغياب، تتساقط من شعر رأسه حبات المطر، وهو يهلل:

- زُوزو حبيبتي، أخيرًا رجعت لك.

يجري عليها ليقبلها، فتنشرح لمِقدَمه، بعد ما يئست من حضوره تلك الليلة.. يعلو صوتها بحروف تناضل للإبانة عن شعورها:

- مم أ أوو يييي

يجد في وجودها أمام عينيه عالمه يرتد إليه، راح يستمع لما تود قوله، وهو يهز رأسه، ثم تركها مسرعًا، ليناولها حلوى (اللَدِيدَة) المطعمة بجوز الهند، التي اشتراها لها أثناء توقف قطاره بمدينة (طنطا)، فسعدت بها كثيرًا، ثم أشارت له على وسادة السرير، لتلفت انتباهه.

- كيس مخدة جديد، فرشتيه بنفسك يا شقية..؟!

وقف أمامها، وهو يسحب فوطته من على الشماعة، ليجفف شعره وملابسه، وهو يحكي لها عن رحلته للقاهرة، التي سلّم فيها قصته للجنة (المسابقة)، وبقي ليلتين مُرغمًا، لتكملة الإجراءات، وزيارة بعض المكتبات، ثم سكت برهة:

- يا سلام يا أمي على القاهرة... مدينه لا تعرف الرحمة، تراب وتوهان، وناس تعارك دخان السكك، ومنظر السحاب يفكرك بهباب الحَلّة.

اعترضت (أمه) بلين على تقبيحه المبالغ، مسترجعة ذكرياتها في (القاهرة)، بأحيائها الرائعة، ثم تشير له، لتوقفه قبل أن يذهب عنها، فينظر لها:

– المسابقة قصدك؟ لا يا ماما.. أنت عارفه جوائز اللجان كلها (بَلامِيْطُو)، يعني ..مطبوخة. وأنا علاقتي بالناس هناك ضعيفة، لإني لازم أحضر سهراتهم، وأكون واحد من الشلة، وأوافقهم على أفكارهم.

يَرنّ (التليفون) بعد نهاية كلامه مباشرة، فيتعجب عندما يجد المتصل..(مبروكة) في هذا الوقت، على غير العادة!!

ـ42ـ

لم يَسمح دويُ الرعد، وزَمجرةُ الريح، بمساحة من الصمت تسري ليلاً بين جدران البيوت، فنضا السُباتُ عباءته، منتظراً هدأة الطبيعة، بتسرية وقتهِ مع ثرثرة ليالي الشتاء، التي تحبس الناسَ في البيوت مُذعنين، فتتحرر ألسنتهم في طلاقة، تفرغ ما في صدورهم من جد أو هذر، مثلما يحلو لـ(فادية) في تلك الليلة بغرفتها الدافئة يرقد فيها (إيهاب) قبالتها، منصتًا لكلامها:

– والمصحف ما تخريف، ولا كلام من دماغي، الإمام ابن سيرين في كتابه قال.. بُص يا سيدي.

تفتح (فادية) بسرعة كتاب (منتخب الكلام في تفسير الأحلام)، ثم تتجه به لإيهاب المستلقي على سريره.. تتلو له من الكتاب:

- المنديل في المنام دال على الرفيق أو الزوجة أو الولد، خصوصاً إذا كان مطرزاً، فإنه يدل على ذي المعاني اللطيفة، والفضل الكثير، وهو أمان...

يقاطعها (إيهاب) وهو لم يزل على حالته من السَرَحان، لا ينفك عن وعيه لقاؤه الملتبس مع (العسكري) على سطح البحر، كأنه حدث في زمن ليس له توصيف؟!..

- عندك لابن سِيرين تفسير عن.. العَسكري؟

تتعجب (فادية):

- عسكري؟! زارك في الحلم عسكري؟ أنا أعرف إن العَسْكر دليل المطر، والنُصرة.. يعني بشارة خير.

لا يتوافق مع اتجاه كلامها، وتتدافع خواطره، وهو يتفرس في الكتاب الضخم بين يديها.

- والسَفر؟

- السَفر.. مغفرة وتوبة، لكن على حسب الوسيلة.

يشخص بصره متذكرًا تنقله مع (العسكري) على الزورق المطاطي.

- مركب في البحر؟

- السفينة غِنَى بعد فقر، وإيمان بعد كُفر، ونجاة من الكرب.

- و.. السمك؟

– مَقْلي.. إجابة دعوة، والمشْوي سَفر في طلب علم.

تنهد (إيهاب) مواصلًا أسئلته:

– البحر؟

نظرت (فادية) لحبات المطر المنسالة على زجاج باب الشرفة، وهي تجيبه من سطور الكتاب، كأنما تقرأ من اللوحِ الأزلي:

– البحر سلطان وجَاه.. قوة وملك، دنيا وفتنة، أمواجه أهوال وشدة، وممكن يكون معناه نار.. نار جهنم والعياذ بالله، لكن رؤية البحر تحقيق أمل، وتلبية رجاء في أغلب الأحوال. ويُحْكىَ عن تاجر... رأىَ كأنه يمشي في البحر، فخاف وفزِع لهيبتة، فقصَّ رؤياه على مفسر، فقال له: إن كنت تريدُ السفر، فإنك تصيب خيرًا.

برقت السحائب بانفجار ضوئي خاطف، إيذانًا بدفعات جديدة من الأمطار، ثم انبرى (إيهاب) يسألها بكثير من الريبة، والتهكم:

– لكن سيادتك... بأي طريقة الواحد يعرف إنه حلم، أو تَقَاوي كابُوس؟

تهتم (فادية) بسؤاله، ولا تبالي باستهزائه:

– أقول لك يا سيدي (تربت على ركبته، كي يفسح لها مكاناً أوسع على حافة سريره)... أنا أغمض عيني قبل ما أروح في النوم (تغمض عينيها أمامه، كأنها تقدم له شرحًا عمليًا)، وأفكر.. أفكر، أفكر بكل وسعي في شيء، وأكون مصممة إني أعرف جوابه، وبأمانة

ألقى التفسير في المنام بالليلة نفسها، أو بعدها، يعني مثلاً.. أقول لك على سر؟

لا تنتظر رد (إيهاب)، وتقوم من جواره، وتتجه لسريرها مشغولة بما ستروية، ثم تخرج كلماتها، كأنها من عقلها الباطن:

– لما أحب أعرف (بابا) مستريح في رقدته، يطلع لي بضحكته، ويحط كَفه على كتفي (تضع يدها اليسرى على كتفها الأيمن)، زمان.. كان يحن عليّ، ويطبطب على كتفي في الفرح والزعل، افتكر لما كنت عيّلة نروح كلنا الأحياء المائية، اتفّرج على السمك الملون، وأسأله عن كل سمكة غريبة، ويشرح لي عنها، كان يضحك من أسئلتي لأني كنت صغيرة طبعًا، ولما تخلص الفُرجة والزيارة، يطبطب على كتفي بطيبة، ويقول لي: (فرحانة يا حبيبتي!)... ولما كبرت، ويلاقي عيوني زعلانة، يقرّب مني، ويسأل، ويعرف السبب، ويروّق لي بالي... ولَمّا تعب، ومَرض، كنت أَسنده في مشيته، وأسهر على سريره، وأناوله أَكْله بنفسي، ولما حَس إن الأجل قرّب، بص لي، وكان نفسه يكلمني، لكن التعب قيد كل حركته، وبالعافية أصر أنه يطبطب عَليّ كعادته... (تضع مرة أخرى كفها على كتفها، كما لو تتذكر لمسته الحانية، ثم ساحت دموعها غزيرة على خدها الأسيل، وهي تُكمل كلامها):

– ومن بعده كرهت الدنيا.

قام (إيهاب) من رقدته المسترخية والتف لها:

- دعواتك له أنفع من العِياط.

مسحت دموعها بكُم قميص النوم، ثم قالت دون أن تنظر له:

- أنا عَوّدت روحي من زمن على الدموع، لغاية اليومين الباقين لي في الدنيا المفترية.

- مفترية؟ ويومين؟؟ قررت عُمرك، وقَدَرك؟!

- إحساسي إن عمري قصير (تخفي وجهها بكلتا يديها، وهي تمسح بهما ما تبقي من دموعها).

بصوت بين التبرم والمرح، قال:

- أهلاً وسهلاً.. وبدأت هواجس الليل الكئيب، بدأت أخاف والله من فيلم الغم والنكد، من إخراج سعادتك!

لا تلتفت لسخريته، أو تهوينه من الأمر، فتسأله بنبراتها المنهكة:

- المهم إنك يا سيدي تفتكرني في يوم من الأيام، تفتكر عمتك الغلبانة، وبس.

أصرَ أن يظل على حالته المرحة، ولا يطاوعها:

- لو طردتِ لونك الغامق، ممكن وقتها افتكرك يا ست يا غلبانة.

فاجأته بصوت متحسر:

- عم كامل مات، يا إيهاب!!

زمّ (إيهاب) شفتيه، وعاد لوضعه على سريره، بعد ما غاب عنه الرجل الصديق، وانطبع بداخله قبْض الموت، وعناء الفقد الأبدي لأول مرة، ثم أشاح بنظره بعيدًا عنها، وهو يستمع لها...

- يحزّ في نفسي إني لا شُفته، ولا كلمته من مدة كبيرة، لكن استحالة أنسَى في العيد، لما كان يحط في حِجري- وأنا صغيرة- (نُصّ فرَنْك) يبرق، و(النُصّ فرَنْك) — أيامها- كنا نشتري به حاجات ومحتاجات، وكان يحب بنفسه يلف بيّ على محلات (البُونبون)، ويشتري لي أي طلب أطلبه، ويزَغْزَغني في جنبي، لما كنت أناديه بصوتي المسَرسَع: يا عم (كوكو).. يا عم (كوكو).

تحبس بقية كلامها فجأة، عندما ترى (فَراشَة بيضاء) تحبو فوق غلاف الكتاب، فتفهمه بصوت واثق، منخفض:

- شايف، كأنه سامعنا وشايفنا.. (دلالة على إيمانها أن الفراشة تحمل رمز الروح).

تطير (الفراشة) وتتموج بين الاثنين ذهابًا وإيابًا، وتحلق حول دائرة النور، فيطول الصمت... ثم تنهض (فادية) من رقدتها، وتمسك بقلم رصاص وجدته على الطاولة، فتفتح غلاف الكتاب، وهي تنكفئ برأسها، يبرز صوت خربشة القلم على الورق، يتواءم مع هَسيس السكوت الدائر في فضاء الغرفة المستطيلة، فيسألها (إيهاب) بفضول عما تكتبه أو ترسمه، فندّت عن يدها اليسرى حركة لا معنى لها، ثم تجيبه وعيناها في الكتاب:

- شوية شخبطة!!

فقام متململًا من طول الرقاد نحو الطاولة ، يطل بنظرة خاطفة لما تفعله بقلمها، فلم يجد ما يقوله، وهو ينظر حواليه، فسألته، وهي تحدق في شخبطة قلمها على صفحة الكتاب:

- ساعات تحس إني عَيّلة؟ قل لي بجد يا (إيهاب).

فَرَك يديه، ليستجلب بعض الحرارة في أثناء وقفته، ثم ردَّ باستغراب:

- عَيّلة.. انت؟ (يبحث عن إجابة مناسبة)

لا تدعه يكمل تفكيره، وتقفز على كلماته، كأنما تذكرت شيئًا:

- تعرف.. أنا كنت في مدرسة ابتدائي كلها عيال نقاوة.

عادت لها الحمية دون مقدمات، وتخضب خداها بالبشْر، وجلست على حافة سريرها، تربع رجليها، تتدفق الحياة من انفعالاتها، في حين عاد (إيهاب) يستلقي كما كان على مسند سريره، يتابع حكيها:

- مَدْرَستي.. كان اسمها (أبناء النيل) كانت بصراحة (جَراج) أصلاً، وفيها 5 فصول، إنما أنا، وأصحابي كُنّا أولاد شياطين: (عزة عكاشة) بنت البواب، و(محمد رأفت) و نقول عليه النمرود، والبنت (تهاني صهيوني) تموت في المذاكرة، وكان ترتيبها الخامس في كل مدارس إسكندرية، وأهم واحدة كانت (أبلة.. خَيْليَّة)

يُصحح لها:

- قصدك.. خَيريَّة!

- لا.. (خَيْليَّة) كنا عيال ونقولها (كدة)، المهم يا سيدي كانت أي واحدة نشوفها ماشية مع واحد جنب المدرسة، لازم نهلل لها من شباك الفصل، ونغني:

(غَطِّي وِشّك يا وليّة.. أبناء النيل معَديّة)

تكررها له (فادية) وهي تصفق بيديها، كأنها عادت تلبس المريلة في مدرستها (أبناء النيل)... يتأملها (إيهاب) وهو يعتدل في وضعه، ثم يحول دفة الموضوع لوجهة أخرى، مذكرًا إياها برغبتها في زيارة (شاطيء المعمورة)، فرفعت يدها معترضة:

- أنت نويت وأنا رفضت؟! وبصراحة قلت أقْصَر الكلام، لإني لما أفكرك، ألاقيك تهب فيّ مرة واحدة، وانت يا (إيهاب) عصبيتك نار، مع إن ساعات ألاقيك مكتُوم كتْمة العَدْس.

يستنكر (إيهاب) الوصف، وإن كان من داخله يملأه روح التَفَكُه:

- كَتْمة العدس.. أنا؟! شكرًا، إنما هو لازم المعمورة بالتحديد؟

تمرر ظهر كفها على عنقها:

- المعمورة بحرها مريح، وسهل!!

- سهل أو صعب، أنتِ -أساسًا- عندك فكرة عن السباحة؟!

تنظر له نظرة عتاب لأنه أساء فهمها، ثم ترفع رأسها لأعلى كمن ترى صور كلماتها:

- أنا أتمنى أروح، وأقعد على الرمل، أتفرج على البحر من غير ما يقيدني الوقت، وقدام عيني البرميل الأحمر البعيد يطلع ويغطس. وحاجات كدة صعب أني أعبّر عنها، أحسها لوحدي، و بَسْ.

لم تتكلم بعدها، لكن حركت جسدها حركه تلقائية عابرة، فصدرت طقطقة خشنة من السرير.

- الجو ساكت زيادة عن اللزوم، أفتح لك (الكاسيت)، وتسمعي (أحلام)، خصوصا إن الليلة كلها أحلام؟

قامت (فادية) من سريرها مشيرةً له بعلامة النفي، وفي نظرتها تداعيات هزيمة القلب.. دعكت عينها، ثم قالت بصوت لا يزال فيه آثار الحلم:

- تشرب (يَنْسُون) قبل ما تنام؟

يوافقها دون أن ينبس ببنت شفة. لكنها توقفت، لتبحث عن فوطة المطبخ، ثم اكتشف (إيهاب) بعدها أنها أخذت طرحة الصلاة معها، فأراد أن ينبهها لخطئها، وهو يمازحها لإخراجها من الحالة، ثم صفّق بخفّة، مهللًا بتنغيم:

- (غَطّي وشّك يا وليّة، أبناء النيل معديّة).

يتَورد خداها، ثم تقول له:

- أحلى أيام عمري، والله..!!

قللت إضاءة الغرفة كما طلب منها، وهمّت بالخروج من الباب نحو المطبخ، لكنها توقفت، كأنما تذكرت شيئًا مهمًا:

- إيهاب؟

- يا نعم...؟

- ممكن أسالك عن حاجة.. يعني؟

- اسأليني، لكن بسرعة قبل ما أغيّر رأيي.

لاحت ابتسامتها الوضيئة له، على الرغم من خفوت الضوء حولها:

- أنا غالية عندك؟

يخرُج صوتُه، مرتاحاً:

- الإجابة بعد (اليَنْسُون).. يا غالية!

-43-

غاص (إبراهيم) في أرجاء طريقهِ نحو صلاة العصر بمسجد (العِمري- نسبة إلى عمرو بن العاص).. راحتا يديه مفتوحتان، لا تكفان عن الحركة المستقيمة للأمام والوراء على نفس محورها كريشة (الكَبَابجي)، ويترنح رأسه تارة يَمْنة وتارة يَسْرة. لا يتحول نظره عن بوز

حذائه، ولا يرفعه إلا إذا عبر الشارع، فتتعطل عندئذ ذراعاه أو مجدافاه، لكن سُرْعان ما يعود الجسد الضخم لحركته المنتظمة البطيئة كالجسد الآلي، الذي لا يُظن أبدًا أن ما يعتمل في فكره، ووجدانه، في تلك اللحظات هو التقريع والمحاسبة لنفسه التي كثيرا ما ترضخ للكسل، فتهمل الذهاب إلى مقر الصحابي جامع القرآن (عُويمر بن زيد الخزرجي الأنصاري) المكنى (أبو الدَّرْدَاء).. هذا الصحابي الذي وطئت قدمه الإسكندرية محارباً، في أثناء تحرير مصر من عَسْف واحتلال الرومان، ثم قعد في ربوع المدينة، ينشر تعاليم الدين الجديد، ويغرس أصول العقيدة في نفوس أهلها الراغبين، إلى أن رحل عنها، بعدما ملأ أرضها من مَعين علمه، ودعوتِه مع باقي صحبه أمثال طود المعركة: (عُبادة بن الصامت)، و(الزُبير بن العوام) وغيرهم، من مدد أمير المؤمنين (عُمر بن الخطاب)، فاستقرت رسالة الإسلام بالتدريج في قلوب الناس، منذ يوم فتح المدينة الأول في نحو: 19 رمضان عام 21 هجرية -642 ميلادية، ليعتنق أغلبُهم -فيما بعد- دين (الإسلام) طواعية، وتصير العربية -كسائر البقاع المصرية- لسان المدينة، وثقافتها الأم، ويستقبل تاريخها فصلاً حضاريًا مميزًا، بالرغم من الإهمال العمراني أحيانًا، لصالح قاهرة (المعز).. وكما يذكر الثقات من المؤرخين، أن وفود العديد من (الشيوخ) و(العلماء) في القرون اللاحقة على تحرير المدينة، كان سببًا وثيقًا، للنهوض بحضارة الإسكندرية (الإسلامية) في ثوبها الفكري، بل كان بعضُهم حصنًا علميًا وروحانيًا، أدى إلى تشبث (أهل الإسكندرية) المستميت بالمذاهب السُنية المعروفة، بالرغم من المذهب (الشيعي) الرسمي، الذي

كانت تعمل به البلاد إبان الدولة الفاطمية. وقد هَرَع هؤلاء العلماء في محبة إلى الثغر السكندري المأنوس من : الجزيرة العربية، والحبشة، وأصبهان ببلاد فارس، وشمال إفريقيا، والأندلس، ليصبحوا من علامات الإسكندرية، وشموسها العلمية على مدار تاريخها. سُميت بأسمائهم أهم أحيائها، ومساجدها العامرة، وتمتلئ المدينة بأضرحتهم، فهؤلاء هم من جَدّدوا وأرسوا رسالة وجهد المعلم الأول.. (أبي الدَّرْداء) الذي تَتَابع وصاياه المتواترة في عقل (إبراهيم) مثل: (تَفكّر ساعة خير من عبادة ليلة)... (اذكر الله في السَّراءِ يَذكرك في الضرَّاء).. (يا بُنيَّ كن عالِمًا، أو مُتعلمًا، أو مُستمعًا، ولا تكن جاهلًا فتَهلك). هكذا استَرَوَح (إبراهيم) شذى أفكار (أبي الدرداء)، وهو يدخل باب المسجد العِمري (أول مسجد أنشئ في الإسكندرية، ومعقل الجيش الإسلامي وقت تحرير المدينة، والبقعة التي سكن، وعاش حولها أهم الصحابة.. حينذاك).

صلىَ (إبراهيم) في إيوان المسجد بمفرده، بعد أن فاتته صلاة الجماعة، ثم أخذ قسطًا من التدبر، تناوشه نفسُه اللوامة مرةً أخرى، لتقصيره بزيارة بيت الله، حتى خَلص إلى عبارة عتاب موجزة، رَددها بينه وبين قلبه:

- " أيَا قلب؟..ألم يَأنِ الوقت، لتَتعلّق حبًا في المساجد! ".

لم يطل المكوث ناويًا أن يعوضه في يوم قريب، فخرج إلى الشارع، وعاد لمشيته المترنحة، ثم مر على المقام أو الضريح المعروف، فوجد الناس يتبركون، ويتمسحون فاستنكر في نفسه، وهو يضحك بداخله

على خُزعبلاتهم، لأن (أبا الدَّرداء) لم يلق ربَه في الإسكندرية، أو في مصر بأسرها..!!.

واصل طريقه تجاه البيت، يشغله طوال السكة أمر (ابنه)، بعدما أبلغه صباح اليوم بعزمه على السفر، وحاجته لبعض المال، وإلا سيضطر للاقتراض، حتى لا تضيع فرصة العمل المتاحة بالخارج، وفي تلك اللحظة كان (الكارت- بوستال) يلمع في يد (إيهاب) منزويًا في غرفته الصغيرة عن العيون، ينظر لصورة جبال الثلج، فلا شيء في الصورة غير الثلج. فهذا هو ما أهدته (أمه)، وأرسلته له مع بضع كلمات في ظهر (الكارت)، معتذرة له عن تأخرها في السؤال عنه، ثم طلبت منه أن يرسل لها أخباره.. فلم يجد ما يستحق من الجهد ليرد عليها، وإن وَد لو يلقي إليها كل ما في جعبته تجاهها، بما مضمونه:

"هل هذا أقصى ما سمح به وقتك؟ فماذا أكتب لك؟

كلمة شكر وأنا بخير، والسلام؟

أحكي لك عن سفري المحتمل؟

أو أشكي لك قلة الفلوس؟

فأشغلك عن حفلاتك وسهراتك، ورحلات التزلج مع زوجك، وابنتك، فوق جبال الثلج المدهشة!!"..

غمر شعوره، وهو ينهي بقية حروف رسالته (الوهمية)، أن (أمَّه) صارت لديه كائن تتلاشَى ملامحه من لوحة حياته، مثلما تزيح أذيال الموجة رسْم الرمال... على النقيض بَعثرت ظنون (إبراهيم) تركيزه بعد

رجوعه البيت، كما يبعثر هو الصناديق القديمة في غرفة (السُفرة) يتصدرها مائدة الطعام الطويلة، التي كانت تلتم حولها كل الأسرة، وضيوف العائلة في الماضي البعيد، ثم بعدها لم تعد تُفتح تقريبًا، إلا عندما أراد (إبراهيم) أن يفتش فيها عما يستحق بيعه، فها هو.. يرفع صندوقاً، ويُفرغ ما فيه على الأرض، ويفتح حدقتيه بأقصى طاقتهما، يأمل أن يجد ضالته، وعلى كرسي قديم تجلس (أمه) في وسط الصناديق، التي تملأ مساحة الغرفة الفسيحة. يتوه ذهنها مع القفاز الذي سحبته من صندوق مفتوح بجوارها، تحاول بقدر ما تتيح لها حركة أصابعها، أن تلبسه كما كانت، لا تلتفت لصوت (إبراهيم) يعبّر به عن إحساسه المخنوق:

- رصيدي في البنك لوحده، من الصعب يكفي مصاريف سفره، واقامته. لو لقيت حاجة تستحق أبيعها، و(ألبوم) الطوابع ينفع شوية، فيه طوابع أثريه جدًا!

يضع (دفتر الطوابع- الألبوم) على الأرض، ثم يرفع وجهه لأمه، فيخبرها في غلّ:

- المهم أني أكبر في عيون ابني قبل ما يلجأ لأمه، ويطلب منها، وتشمت فيّ.. فاكرة لما تخلّت عني، ورفضت ترجع البيت، ولخبطت حال الولد، وكَرّهته في سيرتي!..

تهز (الأم) رأسها هزات ميكانيكية لا تنم عن متابعتها لما يقوله، خاصة أنها استطاعت أن تلبس قفازها، وتلف يدَها أمام عينيها، فيتهافت زمنها حولها، لا يقدر أحد أن يخمن مدى دقة، وتشابك

الخواطر، التي تُزجي بعضها بعضًا في ساحة ذهنها. لكأنما عِزْ ما فات يتبختر مختالا في شعور (الأم)، في حين يبث البؤس فحيحه الآن في جمجمة ابنها!

– ماما.. اعذريني مضطر إني أفك البرواز الفخم من على صورتك، محتمل أبيعه لمحل (أنتيكات).. سامعة؟.

لا تنشغل أمه إلا ببقعة اللون الأرجواني تشوه قبضة القفاز الأسود، فتحاول أن تتذكر في أي مناسبة وقعت عليه. وكيف لم ترْها من قبل؟.. ويعود (إبراهيم) لسرد تخوفاته لها، دون أن تستمع له، يصف رغبته المشتعلة في استباق الأيام، لرد اعتباره أمام (إيهاب)، فيلقى احترام وقرب ابنه الذي بَعد كثيرًا عنه، بالرغم من وجودهما في بيت واحد. ثم بضربة مفاجئة يطرقع (إبراهيم) ظهر (الشبشب) على صرصار كبير، يندس بين الصناديق الكرتونية، فيُنَفّس عن هواجسه، وهو يقضي عليه، صارخًا فيه:

– يخرب بيت أمك..!

ـ44ـ

يستبدل مفتاح النور القديم بآخر جديد، تدخل عليه (فادية) بصينية الشاي:

– شاطر يا أُسطى.. بس يا رب أجرتك تكون مريحة!!

يثبت المسمار الأخير في فتحة الإطار، وهو يرد عليها في تباسط:

- أنتِ دماغ !

تضع السكر في أكواب الشاي، ثم تردف ضحكتها بقولها:

- أنا فظيعة في الضحك والمقالب، تحب أَجنّ لك (إبراهيم) وأكلمه من الشارع، وأعاكسه بصوت واحدة أُلعبان، أقول له مثلا (تقلد لهجة صوت أنثوي مائع): ألو.. ألو.. حضرتك أستاذ إبراهيم، أنا معجبة جدًا جدًا بقصص وأشعار حضرتك، رغم إنك كاتب مغمور على آخرك.. يا عَمو!!

تسترجع صوتها الطبيعي، وهي لا تزال تضحك:

- أظن ساعتها حواجبه تطلع لفوق، وتفضل معلقة من الغيظ.

يقترب (إيهاب) ليأخذ كوب الشاي متجاوبًا معها بابتسامة خفيفة، ثم طرأ على فكره أن يصارحها بأمر سفره الوشيك، بَيْد أنه تردد لوهلة، وإن شجعه مزاجها الصافي، وهي تتفنن في تخيل حالة (أبيه) عندما تعاكسه بالتليفون، فانتظر، ريثما تنتهي من كلامها، ثم أطلق لها الخبر، فتوقفت بغتة عن التعبير.. امتقع وجهها تشوبه حمرة الجزع، دارت حوله لتواجه وجهَه، مَسَكته من ذراعه، ثم تلعثمت كلماتها دون ترتيب:

- تسافر؟!! أنا قصرت في حاجة يا إيهاب؟ كل طلباتك هي شغلي الشاغل.. مسافر؟!! يعني محتاج فلوس، أنا أساعدك والمصحف.

ثم استكملت كأنها تحدث نفسها، وهي تنظر حواليها:

- لا.. إنسَ... إنسَ..

يحاول أن يبسط الأمر عليها، قائلًا:

-كلها سنة أشوف فيها الدنيا، وأدبر حالي.

يعلو حسها، وهي ترجع للوراء:

- وأنا؟ أعيش لوحدي؟!

تهذي من الصدمة، ثم تجرب أن تحدثه كطفلها، فتقترب منه وتلاطفه:

- تفتكر تلاقي هناك بني آدم يطبخ لك، ويغسل لك هدومك، ويفتح نفسك على الأكل بالليل لما تكون زعلان.. الغُربة قَهْرة صدقني، ثم أنا ضايقتك..؟ قل لي!! صارحني..؟ أنا أوعدك يا سيدي، إني لا يمكن أطلب منك أي طلب.

سكتت من دون مقدمات وهي تقف أمامه، بعدما أَفضَيتْ بما يجيش في قلبها، في حين جلس (إيهاب) على سريره، يهز المفك المعدني فوق ركبته، لا يعرف ماذا يفعل أمام ثورتها، فحَدَّجته بكل بصرها لتستقرئ ما بداخله، فانهالت عليها مطارق الخوف، لتزيد ثورتها:

- لا.. أنت منظرك واضح.. أنت مصمم، ونويت.

تهرول خارج الحجرة عارية القدمين، تهمهم:

- ربنا يحرق السفر على الفراق...!!

تشوح بيديها كثيرًا، تحركها عصبيتها، وتوترها الناشئ من خبطة الضربة النفسية، احمر وجهها كامل الاحمرار، وعادت الارتعاشة لأصابعها النحيلة، تنوي اللجوء لأبيه، ليوقفه عن مشروعه بعدما فشلت، في حين قام (إيهاب) ليغادر الغرفة، يلُوم نفسه أنه كشف لها سر سفره في هذا التوقيت، رغم عدم الوُثوق من تدبير المصاريف المطلوبة. تجرّع في جرعة واحدة بقايا الشاي الفاتر، وطاف في رأسه سؤال وحيد:

-"ماذا ستفعل بعد سفري؟".

لكنه طرحَ مشاعره جانبًا، وهو يحفز نفسه على البعد عن التوترات النفسية التي لا قِبَل له بها، لكن ماذا يفعل في تدفق تعاطفه وتفهمه لغضبها، صارت بمرور الأيام بمنزلة أخته الكبرى، أو هي.. أمه التي أضفت ملمحًا إنسانيًّا على وجوده بهذا البيت، بعد ما كان يأنف العيش فيه من وقت قريب!!

اقترب من باب الغرفة خارجًا لا يلوي على شيء، فأحس بوقع قدميها المسرعة، يواجه وجهُها وجهه، أخذه الذهول حيث تحورت ملامحها من النقيض للنقيض، انتفى مطلقا تعبير الهلع والامتقاع إلى الفرح الشامل، ومع أن حمرة بشرتها ظلت كما هي، إلا أنها حملت معنى مناقضًا رَوَى وجنتيها ريًّا جَذلًا!! مسافة قصيرة قطعتها من غرفة إلى غرفة، لكن نقلت حُمرة وجهها من ضنك الشعور، والسخط العاجز، إلى حُمرة المباهاة، ووَثير الإحساس.. فما الذي جَدّ في الأمر، بهذا التحول المثير للفضول؟

أمهلت نفسها برهة، كي تقدر على الإفصاح، يدقُ قلبُها في صدرها عاليًا كمزمار بلدي يحتفي بخبر صاحبته، ثم بأمارات عدم التصديق، نطق لسانها:

- إيهاب..!! أنا (تشير بيدها على صدرها).. تاجر كبير طلبني للـ..... والمصحف!!!

فسألها بلهجه مستريبة:

- متأكدة؟

فتخبره بأنها سمعت الخبر -خِلسة- من (إبراهيم) وهو يتحدث في تفصيلاته، وفهمت بقدر ما أتاح لها سمعها، أنه من مدينة (دمنهور)، وجاء من طرف (مبروكة). لم تستطع (فادية) أن تقف في وضعها الثابت، شعرت أن الشمس تدور معها، وأن السقف الشاهق يرتفع، فيرتفع كي يفسح لفرحتها الطيران، نظرت لإيهاب وكأنها لا تنظر إليه، ترفع ذراعها يكسوه باقة من أشعة النور، تتحدث عن أنها ستملك بيتًا، سيكون بيتها، وأثاثها، وأشياءها.. أبانت عن قمة سعادتها، لعدم الرجوع لزيارة طبيبها الذي تكرهه، وستتعافى نهائيًّا من ألم غرز الإبر في العروق.. يقف وراءها (إيهاب) ناظرًا لها بعاطفته، رَنّ وتر الحس لديه من صدق ما تُدلي به إليه. يتحرك خيال وجهه على لوح زجاج الشرفة، ويقترب منها عندما أسرَّت له بأنها لن تختبئ عن عيون الناس، لأنها ..(عَانْس)...!!! راح عهد الإشفاق الكاذب، الذي كانت تراه تجاهها في الوجوه، فكثيرًا ما سحق جوانحها الدعاءُ السخيف المكروش من الأفواه السمجة: "ربنا يعوض عليكِ يا فادية"،

كأنها تحولت إلى حالة إنسانية ميؤوس منها، تنتظر رحمة كل من هَب ودَب!!

لم تَسَلْ نفسها عن شكل الزوج المنتظر أو عُمره، لم تفكر إن كان موائمًا لظروفها أم لا؟.. يصلح، أم هي التي قد لا تصلح؟ لم تلتفت إلى أن (مبروكة) التي لا تنعتها إلا (بالخدّامة) هي من أهدتها إياه.. لم تخطر تلك التساؤلات عليها في حمية استقبالها للخبر البلسم، البلسم الذي يرطب الروح، فيحيي وجدانها الخَرِب. لبثت تنطلق بالتعبير، والإبانة بصوت عال يداخله شجن، بكلمات مثل:

– ربنا كبير.. ربنا أنصفني يا (إيهاب)، كنت مكسوفة من نفسي، من غير ذنب،..أنا....

تستدير تجاه الشرفة المفتوحة، كأنها تواجه الناس:

– كنت حاسة بالنقص من كل ست، وشاعرة أن أفضل مكان لي هو.. السرير، أدراي فيه قهرتي من سؤال الناس: "اتخطبتي يا فادية ولا...؟"، والله والله يا إيهاب، أمنيتي أكون زوجة، لمجرد أحس إني إنسانة عادية قدام الناس، وبس.. يخرب بيت الناس!!

تضحك.. تسرح.. وتنقبض عضلات وجهها، عندما تتذكر جملة حبيبها السابق (يُسْري)، فترد عليه كأنها تصفعه:

– أنا لسّة صغيرة يا يُسْري، ومرغوبة، ومطلوبة... فاهم؟ أنا موافقة على طلب العريس يا يُسْري. موافقة لأني كرهتك يا غبي.

لانت انفعالاتها، وقل اضطرام هوس الفرح بدواخلها، ثم أرسلت طرفها السارح نحو (إيهاب) الذي لزم مكانه، ثم قالت له، وهي تزفر الآهة، لتزيح بها عَنَت القلب:

- أنا فَرحانة.. فرحانة!!

أحست بالإجهاد بعد زلزلة انفعالاتها، إثر شظايا السعادة غير المتوقعة. وجدت رأسها يميل على كتف (إيهاب) لتستريح، تحسو من دفء المشاركة مع الإنسان الوحيد الذي اقترب من جُواها، فوثقت به. اهتز (إيهاب) مع لمسة رأسها الصغير على كتفه، أسَرَته حاجتها لحنانه، فرفع يده، وطبطب عليها، أراد أن يمنحها ما بخل به عليها فيما مضى، فحوَّطها بذراعه، ووشوشها بإحساس من يعرف فجيعة الفقد، متعمدًا تكرار ذكرى أبيها، وجملته لها في زمن طفولتها:

- فاكرة السمك الملون..؟!

تنعكس صورتهما على الزجاج، ترتسم على سطحها الأملس مع حزمة أشعة شمس تتنفس، وطفت على لوحة ذهنها صورة أبيها، ثم رفعت رأسها تنظر لابن أخيها في امتنان، وفكرت فيما ستقول، حتى دخل عليها (إبراهيم) ووقف على باب الغرفة بوجه كقالب الطوب، يخبرها بخبر الخِطْبَة المفترضة، ثم أبلغها محذرًا بنبرات الجدية، التي يفرضها عليه شعوره بالمسئولية، كأخ أكبر، ورب الأسرة:

- موافقتي النهائية لَمّا نطمئن على كل حاجة، وعمومًا أنا سألت عنه مبدئيًا، يوم الخميس زيارته هنا، تشوفيه ويشوفك.. والله المستعان.

لم يتخيل (إبراهيم)، وهو يولي ظهره تجاه غرفته، بعدما استعار لهجة مذيع الأخبار الكئيب، أن يصلَه تعليق (فادية)، بالصوت الحَيّاني، المنشرح:

- سَعْيكم مشكور يا حاج!!

ـ45ـ

- يا مبروكة يا أحسن خاطبة!

تُبدي (مبروكة) شكرها لمديح (التاجر) المتقدم للزواج من (فادية)، بعدها أجاب (التاجر) على بعض أسئلة (إبراهيم) في بداية التعارف، ففَطِن (إبراهيم) أن أخته -إن تمت الزيجة- ستعيش لا محالة في (دمنهور). رمت (الأم) الرجل بنظرات فاحصة، وهو كما تنطق هيئته وقسماته، في عمر يناهز أواخر الخمسين، في عينيه حَوَل ملحوظ، ولا يحمل قدرًا من وسامة، وتعكس لهجته، وأسلوبه في الكلام عصاميته، وتجذره من الطبقة العاملة الدنيا، كما يفتخر هو في حديثه مع (إبراهيم) بصراحة، في حين يتناول كأس (الشربات) من يد (مبروكة)، التي تقوم بمهمة تقديم المشروبات، وأطباق الحلوى الفاخرة، ثم تطرق

للحديث عن ظروف حياته، بعد وفاة زوجته الأولى، وبعدما تركت له ثلاثة من الشباب، يعملون عنده في محلاته الخاصة بدمنهور. فشاور (إبراهيم) عقله:

- "هذه النوعية الثريَّة بعد جوع أو تعب، وفي هذا السن، تشتهي فتاة صغيرة، تجدد له فورة الإحساس لأعصاب فحولته قبل أن تشيخ، ولكن (فادية) ليست صغيرة..؟؟".

أسند (إيهاب) بذراعه ضلفة الدولاب المكسورة، ليساعد (آلاء) في إنهاء اللمسات الأخيرة لضبط الفستان أمام المرآة الطويلة المثبتة في ضلفة الدولاب، وتجميل وجه (فادية)، التي تشعر بالتوتر الممتع المصاحب لمقابلة (العريس). تتبادل النظر مع (إيهاب) الذي شجعها بإيماءة مُطَمئنة، فوضعت ظهر يدها على خدها، تجس حرارة سخونته، وإن كانت قد نَوت بينها وبين نفسها أن تقبل بأي عيوب شكلية، في مظهر رجلها المنتظر، ما دامت لا تمس جوهر شخصيته.

أغلق (إيهاب) ضلفة الدولاب، حيث انتهت (آلاء) من عملها، وبدأت (فادية) في التوجه نحو حجرة الصالون بردهة الشقة، وراءها (آلاء) تتمعن في وجهها، فتوقفها في منتصف ممر الصالة، لتزيل بالملقاط شعرة زائدة أعلى حاجبها، ثم تذكرها بما أملته عليها من عدم التكلف في أثناء كلامها أمام الحضور. انصاعت (فادية) لنصائحها، ثم بحثت عن (إيهاب) الذي أتى مهرولا من غرفتها، ليحضر لها خاتمها الثمين المِنسي.

قرأت آية (الكُرسي) على عتبة حجرة الصالون، بأثاثها الكلاسيكي، تعلوه نجفة كريستال كبيرة. تدخل، فتسلم أولاً على (أخت–العريس)، ثم تمد يديها بسرعة إلى (العريس)، الذي يقف من فوره أمامها، في احترام متعاظم، فكادت أن تضحك من طريقة وقفته المتشنجة، ثم لم تعرف ماذا تفعل في يدها، بعدما خطفتها من يده، فشبكت أصابعها في أصابع يدها الأخرى، ثم لمحت أول كرسي بجوارها، لترتمي عليه، لَمّا أحست وطأة الموقف، لكنها قبل أن تجلس وجدت (إبراهيم) ينظر لها، فمدت يدها له بسذاجة، فسلّم عليها في ارتباك جراء لخبطتها، خاصة أمام نظرات (أخت العريس) بعيونها الراصدة، لكل تفصيلة تصدر منها، حتى رحبت بعروسة أخيها:

– ما شاء الله نورك شَقْشَق يا عروسة!

سعدت (فادية) بالمجاملة، ثم وضعت ساقًا على ساق، فانكشفت ساقيها، فأعادتهما بسرعة، وهي تقول بصوت خجول:

– شكرًا.. من ذوق حضرتك.

– أنت خريجة تجارة؟

ردت (فادية) على سؤال أخت العريس، بنفس الصوت الخجول:

– أنا خريجة خدمة اجتماعية بتقدير مقبول، كنت أحب أحفظ وبَسْ، لأني كنت رافضة الكلية، وربنا ستر، ولولا المراقب في الامتحان فوّت لنا، لا يمكن كنت أنجح بصراحة.. وبَسْ.

رفع (إبراهيم) حاجبيه، يسخر في سرِه من بشاعة ردها:

- "أول القصيدة زفت.. وبَسْ!!".

عقبت (أخت العريس)، فقالت بلهجه أليفة:

- ابن صاحبتي الوحيدة، خريج خدمة اجتماعية، لكن دفعة جديدة من 3 سنين تقريبًا.

نَطّ لسان (فادية) من مرقده:

- لا.. أنا دفعة قديمة سنة 52.

خبطت (مبروكة) على صدرها،بانزعاج

- يا خيبتي..!!

كتم (إيهاب)، و(آلاء) ضحكة طويلة، وهما وراء الباب يراقبان ما يحدث، ثم أشار (إيهاب) برقم (7) لفادية، فصححت بدورها سنة التخرج، وهي تخفي جانب وجهها بيدها معتذرة.

- قصدي دفعة سنة 72 يا (تانت).. أسفة.. قصدي يا (مدام).

فقال (إبراهيم) للضيوف، يعالج الموقف:

- ربكة العروسة كالعادة.. هاهاهاها.

لم تلق ضحكته المصطنعة استجابة من الجلوس، فتململ في مقعده، وزاد من غيظه أن (أمه) تركت الاهتمام بالضيوف، ولبثت تحملق نحو صورتها المعلقة بفستان الزفاف مع زوجها بالبذلة

(الردنجُوت) و(البابيون)، فاضطر أن يغمز لمبروكة الواقفة بجوارها، كي تلفت نظرها.

-46-

يضُم (محمود) ذراعيه على صدره داخل المخبز، في ليل قارس البرودة، بجواره يجلس (إيهاب)، منتظرًا أن يزول صوم صديقه عن الكلام، وخلفهما يعلو حَسِيس شعلة النار في غرفة العجين الداخلية.

– مالك؟ مقلوب حالك من مدة؟

يرد (محمود)، دون أن يحرك ساكنا:

– على رأي (أمي).. كل حاجة لأجل تتحقق، يلزمها لَطم الخدود.

– وأنت لَطَمت؟

– ووَلْولْت..!!

– والنتيجة؟

– صفر مخروم!!

حاول (إيهاب) أن يجنحَ بالحوار إلى منطقه أخرى:

– لأن معرضك تأجل عند (ببير) ولّا....؟

– المعرض نسيته... مااااضي (يشير بيده للخلف فوق كتفه ليؤكد نسيانه الأمر)، وآخر مرة كنت هناك من مدة كبيرة. لأن الجو العام خنقني.

أومأ (إيهاب) لصديقه ليكمل كلامه، وإن خشي أن يستغرق كثيرًا في حديثه عن المركز الثقافي، الذي شهد بداية النهاية، لقصته مع (بوسي)، فيثير ذلك شجونه، وذكرى حبه التي طواها بمشقة.

– (بيير) بعدما أجل لي المعرض لأجل غير معلن، وخان اتفاقنا، طلب مني شوية صور جديدة، وأنا رفضت بعد تفكير.

حرَّكَ (إيهاب) كفَ يده، بما يفيد أنه لا يفهم:

– من غير فلسفة، وحياة أهلك؟

– كل شوية يقترح لي أفكار، إما لأماكن بعينها، أو تنويعات قديمة للطبيعة الصامتة الجامدة، أو يغير تفكيره فجأة، ويقول لي: "صَوّر لنا ناس فقيرة جدًا".. انما أنا قررت أني أصور من عقلي، اعتزلت الاتباع الأعمى، مهما كانت المغريات، محتاج أكون حُر نفسي، وفَنّي.

– فهمتك.. لكن صوَرت حاجة جديدة؟

يرن التليفون على الكرسي الموضوع بين الاثنين، فيرفع (محمود) السماعة، ثم يعيدها في لحظتها، ويغلق التليفون، من غير أن يعرف شخص المتصل. يستغرب (إيهاب) من تصرف صاحبه، ثم يقترح عليه في تلطف:

- ما دامت الحالة واقفة عندك في الفرن، جَرّب بَخْتك، وسافر بعدي، محتمل إنك تلاقي نفسك.!

يعود (محمود) ويضم ذراعيه كما كان، ويرد عليه بلهجة من يُلقي شعارًا وطنيًا:

- أنا (أُكسُجيني) إسكندرية!!

فيرد، بلهجة الاحتجاج:

- كلام واحد كسلان، وجبان.. افهم الدنيا يا أخي.

- خلّ لك أنت الدنيا، أنا غاوي الأخرة... (أُوُووه)!

أثارت صرخة (محمود) بصوت مفاجئ ضحكات كل من في المخبز، قلبت هدوء ورتابة الجو المحيط، وجعلت (محمود) يخرج من حالته، حيث هبّ واقفا وهو يشير لإيهاب، كي يقوم معه في جولة ليلية بالسيارة في شوارع (كرموز) القريبة من المخبز، لتجديد أعصابه المحترقة في صهد نيران الفرن، وارهاق العمل اليومي، فهكذا أكرَهته ظروف الحياة، على الرغم من طبيعته الفنية المتحررة.

تُوغل سيارة (محمود) في الأزقة، التي تبرق بومضات باهتة من مصابيح الإنارة عند مداخل البيوت، تطَرْطش عجلات السيارة مياه المطر الراكدة، وتَنترها على الرصيف، فيهدئ (محمود) من سرعته، ويضبط سرعة السيارة، لتسير بسلاسة أقرب إلى الإبطاء في تلك الساعة المتأخرة من الليل... ثم بدأ يجول بعينيه في بداءة، وفقر البيوت، والحارات. يشير لـ(إيهاب) من وراء زجاج نافذة السيارة، كأنه

يرشد سائحًا على سمات منطقته، فكان أول ما أشار إليه هو الكشك الخشبي الصغير المغلق بلونه الأحمر القاني:

- كشك المعلم (جَلَّطْ)!!

يتعجب (إيهاب) من الاسم:

- (جَلَّطْ)؟!

- المعلم (جَلَّطْ)، و(مسعد هَيَّص) وأصحابهم، أكبر تجار مخدرات في شبابهم، حياتهم كانت من السجن إلى السجن، لغاية ما تعبوا وتابوا، خصوصا المعلم (جَلّطْ)، وأول شيء عمله أنه فتح الكُشك، كان كل نشاطه هو بيع البْلي، والنبال، والبالونات للعيال، وكُنا نشتري منه، ونلعب قدام الكشك عنده، ولما كبرنا كان ينظم لنا دوري الكرة على حسابه، ويهدي الكأس للفائز على حسابه، ويعمل لنا احتفال، وهو وسطنا يشجعنا، كأنه عَيّل في عمرنا.. لا يمكن تتخيل أن نفس الإنسان صاحب كشك لعْب العيال، كان بيته قبلها أكبر مخزن للأسلحة، والمخدرات.

تطلع سيارة (محمود) شارع (جبل ناعسة) المرتفع، وهو يكمل الشرح لصديقه، لكن وقع نظر (إيهاب) على (شاب) يسير بخطوات متكسرة مخنثة، ويسلم على مجموعة شباب واقفين على قمة الشارع، يبادلهم الشتائم، وهو يحرك لهم وسطه، مفتخرًا بأنوثته.

– (علية).. اسمه الأصلي (علي)، ويشتم أي واحد في الشارع لو ناداه باسمه الأصلي، وغالبًا يقلع له البنطلون.. طردوه من الشركة الأهلية للكتان، لما سيرته فاحت.

يعلّق (إيهاب)، في تهكم خفي:

– كل المعلومات عندك جاهزة.. من أين لك هذا؟

– الفرن عندي ملتقى الأسرار يا ذكي. بُص، بُص.

أدار نظرَه تلقاء (شخص) يجلس على (كرسي متحرك) فوق الرصيف، يخرج وجهه من فتحة (البطانية)، التي يغطي بها جسمه الهزيل.

– يا كَتكُوت؟

رد (كتكوت)، وقد بَانت زجاجة (بيرة) في يده!

– حُودَة.. ليلتك فُلّ!

يتابع (إيهاب) طريقة (كتكوت)، وهو يرفع زجاجة البيرة عاليا، ويَكرع منها في نهم!

– شغلته في شبابه كانت في (حارة الهوَىَ) أول شارع 12 في بيت دعارة معروف.. قبل ما يطلع الزبون، يتفرج على صور البنات مع (كتكوت) في الكتمان تحت باب البيت، ويختار منها، ويدفع قبل ما يطلع.. ولما البيت راح لحاله، فَضّل (كتكوت) يمارس هوايته في شرب

الخمرة من كل نوع، وينام ويصحَى في الشارع على كرسيه، ومع إن عنده سكن، لكن مزاج أهله إنه يعيش على الرصيف، لغاية ما ينتهي.

أحس (إيهاب) أنه يشاهد أشباحاً في جنح الظلام الممتزج بأضواء متقلبة، مثل ذلك المحل الذي توقف عنده (محمود)، والمضاء أعلى سقفه بمصباح ضخم.. على أرضية المحل يجلس رجل عريض الصدر، مفترشًا بضاعته من أكوام من جميع الأنواع والأشكال :(بقايا قطع نحاس، أواني بلاستيك تالفة، ألمونيوم، زجاج مكسور،....).

يرفع (محمود) ذراعه من داخل سيارته لصاحب المحل، وهو يأكل (الفَلافْل)

- أحلى فَلافْل يا عم هَلاهِيلُو.

يرد (عم هَلاهِيلُو) عليه بصوت خشن:

- تعالَ كُلْ..

تتحرك السيارة، ويزول المحل الغريب بمحتوياته من أمام عيني (إيهاب)، يستمع لـ(محمود)، وهو يسرد عليه حكاياته القديمة مع عم (بشارة)، أو عم (هَلاهِيلُو) كما كانوا يطلقون عليه، وتدور السيارة حول منحنيات، تطلع مطالع، فتهبط بسرعة داخل شارع أضيق، وتعود لتلف بحدة، وهكذا، مما جعل ذاكرته تميل بعيدًا نحو طبيعة شوارع (الإبراهيمية) الداخلية، التي كان يتتبع فيها (بوسي) وهي عائدة من المدرسة، في أول لقاءاتهما عند منزلها.

- مُسيو ناجي.. مُسيو ناجي.

ردد (محمود) الاسم مناديًا، وهو يقف بسيارته أمام شباك مغلق في الدور الأرضي، فينبعث صوت صديقه من وراء الشباك:

- محمود؟!!

oui c، est moi - ...
tu vas dormir?

بكلمات فرنسية رَطن (محمود) مع مسيو (ناجي)، الذي لا يظهر منه تقريبًا سوى نبرات صوته، ومكث يسأل (محمود) من وراء الشباك بالفرنسية عن أحواله، وعن (المركز الثقافي الجديد)، ويستمر كلاهما في تبادل الحوار، مما زاد من دهشة (إيهاب) الذي لبث يتفرج، لا يصدق أن يجري هذا الحوار الباريسي القُح بين اثنين يسكنان في قلب (حارة الهوى)، وبجوار دكان عم (هَلاهِيلُو).. لم يسترسل (محمود) كثيرًا مع (مسيو ناجي) الذي يعده أستاذه في الفرنسية. كما أنه أول من دَله على طريق القنصليات الأجنبية البارزة، للعمل بها، كمصور لحفلاتها، أو اصطحاب بعض زائريها الفنانين من المصورين الفوتوغرافيين، للتعرف على معالم المدينة، فضلًا عن الاستفادة من خبراتهم الفنية.

ودون سابق إنذار توقفت السيارة فجأة، عندما لمح (محمود) على أول الشارع الداخلي (عربة خشبية) مغطاة بالخيش. يقف أمامها (رجل مُسن) بجلباب بسيط، وله وجه طيب مريح، سحب محمود (الكاميرا) وهو يخرج من سيارته، متوجها اليه باستعجال، خلفه يسير (إيهاب) لا يفهم سر كل هذه الاهتمام، نحو تلك العربة العادية وصاحبها البسيط، الذي يرحب بصديقه. وبقى في وقفته أمام العربة الخشبية لا يفهم شيئًا، ثم

راقب يد (محمود) تسحب الغطاء الخيش فوق العربة شيئًا فشيئًا، فانكشفت للأعين نماذج خشبية صغيرة دقيقة الصنع لـ.. (وجوه شعبية، مراكب، ومآذن مساجد، وكرسي هزّاز مزين بالخرز) تتراص كلها بجوار بعضها في ترتيب.

تأمل (إيهاب) منها وجه عجوز أسمر مائلاً برأسه، كأنه يهم بالبكاء، يرتفع وجه التمثال في يد (محمود) كأنه يريد أن يُنطقَه، ولا يفوتُه أن يمتدح موهبة الرجل (صاحب العربة، وصانع القطع الفنية) الذي يستمع له بتواضع، لكن لم يكمل (محمود) كلامه حتى ارتمت بعض النماذج الخشبية فوق بعضها جراء تيار هواء جارف، فالتصقت الوجوه الشعبية بالمراكب، التي مالت بدورها على ظهر الكرسي الهزّاز، فأعاد (محمود) كل القطع لوضعها، وظل يضغط على زر (الكاميرا) ليلتقط عدة صور من عدة زوايا، يساعده (الرجل) في تلبية طلبه، بضبط وضع القطعة الفنية بالكيفية التي يريدها (محمود). وَخَزَت تكْتَكات (الكاميرا) الصمتَ المحيط، واستمر (محمود) في التصوير، يضغط طرف إصبعه سريعا على الزر، ثم سرعان ما يرتفع صوته مع (صاحب العربة)، فيذكره بالليلة التي صور فيها خِطبة (ابنته)، ويستعيد معه مواقف ظريفة حدثت لهما، في حين اختلى (إيهاب) بنفسه على جانب من الرصيف يرفع رأسه عاليًا، فيرى الملابس المتواضعة المعلّقة في منشر الشبابيك، والشرفات، تطوي الرياحُ أطرافَها وتُقلّبها، ثم تعود الملابس لحالها، وتستريح هُنيهة، فتهجم عليها مرة أخرى موجة ريح عاتية، فتلمّها في قبضتها، وتكورها، تكاد تنتزعها من بين فكي المشابك.. ظل كما هو في مكانه، واضعًا يديه في جيبي بنطلونه، تنسل خواطر التفكر لتدهمه، وعلى الأخص في مسألة

(زواج عمته) الفجائي من غير إعطاء مهلة كافية للخِطبة، مثلما تم الاتفاق في نهاية زيارة العريس لهم.. هل سيكون قرارًا مُستحبًا أم ..؟، هل يقول لها رأيه بضرورة الانتظار قليلا؟ أو أنه يجب ألا يعكر صفو ما بينهما، قبل أن يسافر ويرحل عنها، ولا يعرف متى سيلقاها مرة أخرى؟

جَلْجَلَ صوت (محمود) يلقي قفشاته التلقائية غير مبالٍ بنوم أهل البيوت، يتبادلها مع صاحب العربة، وشخص ثالث من المنطقة انضم لهما.. يرى (إيهاب) هزات الرؤوس، تصفيق الأيدي، ابتهاج الروح، فسرحت الوساوس برأسه تساوره، عن سفره القريب فلا صاحب يرافقه، ولا حتى رفة جناح. يتسلل معنى الرحيل داخله ببطء مرير، فأخفض رأسه، وهو يردد في داخله قول (فادية) الساخط:

- "يخرب بيت الفراق".

ثم صرخ (محمود) بجنونه المعهود، يقتلع من جوانحه كل القيود اللزجة:

- يا هُوُوووه!!

رافعًا قامته الطويلة كالمنتصر، بعدما التقط صورة جديدة للعربة الخشبية من أعلى سيارته. شَعَّ في نفس (إيهاب) شعور بروعة الارتباط الحميم بصديقه، لَشدَّ ما سَيشتاق لرؤيته. يحسب بأنه سيختلي في غُربتِه، ويسترجع هاتيك الدقائق الليلية، فتهوّن عليه حصار النَأي، وتهبه قدرًا من الإحساس الداخلي بالحرية.

يبادرُ (محمود) بتشغيل السيارة. فينكمش (إيهاب) بداخلها، في حين يلفت نظره في طريق العودة قشر برتقال منثور على الرصيف، وحيطان عليها أسهم تشير إلى الخلف، ينطبع وسطها كُفوف صغيرة، مخضبة بالدماء... وتنسحب الشوارع والأزقة وراء بصره، وتتبلور في ذاكرته علاقاته، وأحداث شهوره الأخيرة، لا يهمه سوى أن يُلّم بأهم تفاصيلها قبل رحيله، من وجهة نظر أكثر نضجًا وتعقلًا، ليقتنيها في خزانة خبراته فيعتَبر، ويأتنس. انحدرت السيارة من أعلى، لتتجه إلى أضواء الشارع الوسيع. ويعود (محمود) للصمت متماشياً مع سَمْت الليل، حين يودع سُمّاره قبيل الشروق، وتنبعث من سيارته كالسنَا في مداه صوت المطربة الشعبية (بدرية السيد)، فيسدل (إيهاب) جفونه باسترخاء، وينساب في مَسمعه بداية الموال:

-(يا عين يا ليل يا ليل، الناس بتقول يا نهار، وأنا باقول يااا ليل).

-47-

فرغَ (إبراهيم) من صلاة الجمعة يصحبه (إيهاب)، وتوجها نحو سوق (راتب) على الصف الآخر، مكث (إبراهيم) يناور بالحديث المستفيض حول أخبار دوري الكُرة، وَوْضْع نادي (الاتحاد السَكنّدري) المتدهور، ثم يعرج لموضوعات أخرى تافهة، يصغي إليه (إيهاب) سائرًا بجواره في نهار معتدل، ولا يتعجله بالسؤال عن الفلوس التي طلبها لتدبير شئون سفره، وبعدما لم يجد (إبراهيم) موضوعًا

جديداً، كي يفلت به من المواجهة، والمصارحة، أيقن أنه لا مناص من أن يفاتحه، فسأله بصوت يشوبه الرجاء الخائب:

– ممكن.. سفرك... يتأجل شوية؟

فاستغرب (إيهاب)، ثم رد في حزم بالنفي:

– مستحيل.. بالمناسبة، أنا أنهيت ورق السفر، وتقريبًا يوم سفري في ليلة الفرح، أو بعدها بساعات، لأني لازم أحضر الفرح، والليلة تمر بسلام، من غير ما أضايق عمتي في ليلتها.

هزَّ (إبراهيم) رأسه مطَمئنًا، ولم يجد بُدًا سوى أن يدسَ يده في جيبه، ليخرج الفلوس الموضوعة في كيس مربوط باحكام. ناوله إياه، وهو يداري وجهه، ليتشاغل بالنظر نحو السيارات المارقة قبل عبورها الشارع، ثم سرق نظرة جبانة نحو ابنه، الذي يعُد الفلوس بدقة، فعرف (إبراهيم) أن مكانته الأبوية ستتعرى بعد قليل، فلبث يلعن نفسه المتعالية المتعجرفة، التي تسرعت بالوعد في تدبير كل المبلغ له..!! فكر فيما سيقوله له، عندما يستمع لكلمات التأنيب من ابنه، لوضعه في مأزق لا مخرج منه قبل سفره، لكنه فوجئ به يشكر له صنيعه، فسأله متعجباً:

– يعني.. أنت مرتاح يا إيهاب؟؟

– ألف شكر...

– لكن المبلغ ناقص عن اتفاقنا، وأنا زعلان لأني لو أقدر كنت زودته لك، إنما..

لمِحَ (إيهاب) اكفهرار وجه أبيه، ورأى ضعفَه أمامه، فأراد أن يزيل عنه حرج الموقف، لم يهُن عليه أن يتضاءل أبوه في هذا الموقف النفسي، فأجابه:

- أنا عندي مبلغ من شغلي وفرته للظروف، وعرفت من صاحبي هناك في جوابه الأخير، إن السكن متوفر بتكلفة أقل مما تخيلت.

تهدّج صوت (إبراهيم)، بعدما حمد الله في سره، ثم سأله في ارتياب:

-كلامك حقيقي؟ ولا أمك عملت بطلة، وساعدتك بأموالها؟

لم يكدْ ينهي سؤاله حتى لحقه (إيهاب)، يقاطعه:

- لا عندها خبر، ولا أي فكرة عن سفري، هي لها حياتها مع بيتها، وصدقني.. المبلغ مناسب يا (بابا).. ربنا ما يحرمني من خيرك.

أحس (إبراهيم) أنه يريد أن يرقص وسط الشارع، فقد أسعده دعاء ابنه له، لم يعتد منه على هذه اللغة القلبية من قبل، تمنىَ لو يُشهر صوتَه، ويعلن على الملأ في الميدان:

- "ابني مبسوط مني يا ناس، ابني دعا لي من قلبه، يا اولاد الكلب".

تأبط (إبراهيم) ابنه، وهو يتعجل العبور نحو محلات (الحلويات) وأوراق الزينة، وكل لوازم الفرَح، بعدما استرد أنفاسه ووقاره، ثم أردف:

– أصل إيجار البيت المتأخر بعد الزيادة، ومبالغ الصيانة الجزافية، ومصاريف المحامي، والقضية، هَدّوا وَسطي يا (إيهاب).. زمن مُقرف.

أحب (إيهاب) أن يداعب (أباه)، بعد ذوبان جليد العلاقة بينهما:

– زمن مُقرف، لإن الاتحاد كل شوية ينّهزم بالخمسة؟

ضحك (إبراهيم)، ثم رفع صوته الرنان، كعادته عند انفعاله:

– في داهيه الدوري والكرة، المهم إن (الاتحاد) هو سيد البلد في السلة، وبطل العرب.

برقت من (إيهاب) نظرة صافية يرنو فيها لأبيه، وهو يحرك ذراعه في حماس، كأنه يلوح بسيف الفارس المهزوم بشرف. ثم انخرط يراقبه، وهو يتجول بين محلات (الحلويات)، فيشتري من محل اختاره بعناية، بعد تأكده من عدم مغالاته في الأسعار..

لم يبعد (إيهاب) نظراته عن أبيه المنشغل بأمور الشراء. ساورته رغبة صادقة في أن يقترب من أذن أبيه، ويذكره بكلمات قصيدته البسيطة التي لعبت بفؤاده، لما سمعها منه سرًا، ولكي يُشعره، ويَبوح له بقيمة كتاباته، وجدواها في نفسه على الأقل، بَيْدَ أن لم تطل رغبته كثيرًا، بعدما فوجئ بالأكياس، والشنط من جميع الأصناف يحطها (إبراهيم) في يديه، ويعلقها على كتفه، وهو يستعجله للتقدم في زحام السوق، لشراء باقي ما يلزم لفرح (فادية)، بما يليق بمقام الأُسرة قدر الإمكان.

ـ48ـ

خلعت (فادية) أسورتها الفضية، ووضعتها على الرف الزجاجي فوق حوض الحمام. ينفلت ذراعها بصعوبة من كُم قميص النوم، فغدًا ليلة زفافها، يبدو تخوفها من مواجهة زوجها لوحدهما جسدًا لجسد. تجربة لا تعرف عنها إلا ما قرأته في (كتاب) محدود، خبأته عن العيون، إنما للأسف لم تقلل قراءة سطوره من حدة التوتر بداخلها. لم تندم على ضياع صوت (أمها) إلا هذه الساعة، ومع أنها حاولت أن تستوضح منها بلغة الإشارة المبسطة، ما يجعلها آمنة مع جسد غريب، وكيف تسترضيه؟ وما الذي ستفعله عند حدوث أي احتمالات غير متوقعة؟ لكن لم تفلح الأم في تطبيب كل هواجسها.

تفك رباط شعرها، ثم تنزع حمالة الصدر. صارت عارية تماما أمام المرآة، وأمام نفسها. تنظر لجسدها من أسفل إلى أعلى، كأنما تتعرف عليه بعد طول غياب. استدارة بطنها لها جاذبية بالرغم من ترهل بعض الدهون حول السُرة، امتلاء الفخذين سمة جسدها السفلي، تظل تتطلع في المرآه التي بدأ يغشى سطحها بخار المياه الساخنة. تستدير لتتجه إلى (البانيو) الغويط، فترفع ساقيها الطويلتين فوق حافته الرخامية الملساء، ينثني جسمها، وهي تدعك شعرها برغاوي الصابون يتضوع منه رائحة مغرية، تفوح حولها في بذخ. تنقشع رغوة، وتتولد رغاوي أخرى هشة تتزحلق على شعرها، فتنزلق على جانبي فقرات ظهرها. تتفاعل مسام الجلد مع دغدغة السائل الدافئ، وتتداعى في ذهنها رسوم (الكتاب) توضح طرائق وأساليب الجماع

الجنسي. كعب قدمها يخضع لخشونة (حجر القدمين)، تهيج حمرة بَشرتها، ترتخي أعصابها، فتسقط من يديها الصابونة على أرضية (البانيو)، وتختلط خطوط المياه الجارية مع رغاوي الصابون من يبن قدميها، وتتسرب بسرعة نحو فم البالوعة الصغيرة. دَفْق الماء الفائر يهدر قويًا بصوت يخترقها... ثم رفعت جذعها، لترتكز بيديها على حافتي البانيو بعد أن امتلأ بالماء، يغطس أسفلها ببطء، يتلمس سطح الماء الساخن بحذر، فتَقَشْعرت بلذة، ثم تنام بكامل طول جسدها، تترجرج طبقات الماء تحتها وفوقها، تتقلب فيها على جانبيها، ويتقوس ظهرها قليلا، وهي تحاول أن ترفع ركبتيها بقدر ما، كأنها تعد نفسها لاستقبال اللحظة المرتقبة. هل ستنتهي المهمة بنجاح؟ كيف ستنتابها اللذة الجسدية، التي لم تتعرف عليها إلا في قاع الخيال؟ هل ستبلغ أوج النشوة التي قرأت، وسمعت عنها؟! يخرج من زفيرها بخار كثيف، لا تحس بمرور الوقت في حومة تخيلاتها، تتكوم حولها من كل اتجاه طبقات البخار، تشعرها بالاختناق إلى حد ما.. تقوم لتجلس القرفصاء دون حراك وسط (البانيو)، بعدما أوقفت سريان المياه، ولبثت وقتًا تنكس رقبتها، إذ يطاردها هاجس باحتمالية انتهاء العلاقة الحميمة مع زوجها، دون أثر في النفس، فتتلاشى بعدها رغبتها في معاودة العلاقة الجسدية، كما تتلاشى فقاقيع الصابون فوق جلدها العاري.. سُدَى!!

شَخْلَلت حلقات الستارة وهي تفتحها، وبينما تنكمش دوائر البخار الهلامية على سطح المرآة تدريجيا، تقوم بتجفيف ثنايا جسدها

في اعتناء حتى نشف تماما، ثم بدأت ترتدي ملابسها الداخلية قطعة.. قطعة.

-49-

- (تُوب الفَرَح يا توب.. مَغزول من الفَرْحَة...)

تتواصل أغنية الفَرَح في سيارة (محمود) وقت انتظارها عند محل (الكوافير). تخرج العروسة (فادية)، برفقتها (آلاء) في أهم شوارع حي (محرم بك)، تميزه الأشجار على صفي الطريق، وتتوسطه قضبان الترام، وفور ظهورها بملابس الزفاف في الشارع، يرنّ جرس (الترام الأصفر) رنّات متتابعة، كأنه يرسل للعروسة تهنئته، تكش (فادية) في نفسها من الخجل، لشعورها أن الترام بسائقه وركابه، يلقون نظراتهم عليها. وبعدها رضيت بطيب خاطر أن تذهب -كعادة العرائس- إلى ميدان (المرسي أبو العباس) بالأنفوشي. ينظر بعض المارة للعروسة داخل السيارة الصغيرة المزينة بالورود، فتبتسم مرتبكة، أحست أن المجتمع يطيب خاطرها، بعد خصومة لا معنى له.. بقيت تتأمل الطريق، وفي يدها عُقد من (الفُل) تقربه منها، ليلطف من توترها. تتجه السيارة تلقاء أول الشارع المؤدي إلى (الكورنيش). كانت (آلاء) طوال الطريق تعدل من طرحة (فادية)، وتنظر لها، وقد أتاها حلم الزواج في وقت متأخر، في حين أنها تتمنى التهرب من زواج يحكم واقعه عليها، إذ لا تزال (آلاء) لا تعرف كيف تأخذ قرار الرفض في

ظل احتفاء (أبيها) الحبيب بخطبتها، بعد الإفراج عنه، وضغطه عليها للإسراع في إتمام الزيجة، ليطمئن عليها.

بان البحر حصيرًا رَهْوًا في جو شبه مخنوق.. تراه (فادية) من نافذة السيارة، فيدخل في نفسها مشاعراً متداخلة، لا يخرجها من تعقيدها إلا نظرات (إيهاب) نحوها، وهو يدير لها وجهه من مقعده الأمامي، ويخفي –بقدر الإمكان– قلقه العميق من رحلة سفره، التي ستبدأ بعد ساعات قليلة دون علمها. وضعت يديها على ذراعه المفرودة، لتستشعر نوعًا من الأمان، قبل دخولها حياة أخرى بعيدة عنه، وعن مدينتها.. لمحت (آلاء) صرخة الخوف في مقلتي (فادية)، فشعرت بدورها بغُصة في الحلق، وهاجت رغبتها في التحرر من ارتباطها العائلي.

صوت(الأغنية) يتواصل بطابعها المفرح، في حين يرمق (محمود) بعينيه الحساسة مآذن مساجد (أبو العباس)، و(البوصيري)، المضاءة بالأنوار الحمراء، والخضراء، تَسْري في غلائل غسق ينضوي تحت مهابة الغيب. وترجع بهم السيارة في بطء من الطريق نفسه نحو مكان الفرَح، من غير جديد يُذكر، سوى تلك الدمعة العزيزة التي طفرت من عَيْن..(آلاء).

-50-

تركع بفستان الفرح على ركبتيها. تحتضن أمها، لا تريد أن تفارقها، عادت طفلة لا تطيق قطع وصال القرب بينها وبين أمها، لو

رسمت تنهيد العصفور لَمَا عرفت أن تعبر عما يموج في صدرها في هذه اللحظة المشحونة... الاثنتان وحدهما في الغرفة التي تشهد قبلات غابت وتعود، فتذوب روح صغيرة تائهة في بقية الروح (الأم)، وتتألق معاني من روح السماء في الأعين والنظرات. تحاول (الأم) أن تزغرد لابنتها في ليلتها، بالإشارة، والإيماءة، والضحكة، يتخللها أسىَ الفراق القريب.

تقف (فادية) وهي تساعد (أمها) على النهوض من السرير، بعدما دخل (إبراهيم) يستعجلهما للخروج، ومعه (مبروكة) تلحق (الأم) لتقوم بالإمساك بها. رنا (إبراهيم) لأخته العروسة، وهي تتأبط ذراعه إلى الصالون، حيث ينتظرها (العريس)، تمشي بجوار أخيها كأنها مسحورة، وقد أنزل نظره في الأرض في تأثر، قائلًا:

- عارفة؟..أكبر خسارة، إني خسرت أطيب واحدة تناكفني، وأناكفها، وتضحك على كلامي، وعلى بنطلون (بيجامتي) لما يقع.. ربنا يبارك لك ياعروسة.

توقفا عن السير، وقَبّل رأسها، وهو يقاوم رغبته في الانهيار، كم كان يتمنى لو يداري نفسه، ويهرب إلى أي ركن حتى لا يرى مشاعرَه أحد. التفت وراءه يبحث عن ابنه، الذي سيفتقده أيضًا بعد دقائق معدودة، حَسب موعد السفر. كان (إيهاب) في غرفته، لا يزال ينهي وضع حاجياته في شنطة السفر. ولا يفوته أن يضع فيها راديو (عم كامل)، ثم عَنّ له أن يجرب حالته بعد إصلاحه، فانطلق منه صوتًا لابأس به من إذاعة.. (صوت العرب)، سحب شنطته لخارج الغرفة،

ومر وسط صخب الفرح. بدا البيت غريبًا عليه، وهو يرى كل الحجرات مفتوحة، يدخل منها أناس لايعرفهم من أهل العريس، ويخرج آخرون يتصايحون، وأطفال يتشاكسون، وهكذا.

وقف أخيرًا بشنطته أمام المصعد، تفحص (إيهاب) البيت من الخارج، يرى على بُعد (فادية) دون أن تراه، تبدو سعيدة، تَتلهَى مع مجاملات المدعوين، والتقاط الصور، اكتفى أن يشعرها بوجوده، حتى تحس أنه معها، ثم اختفى عن الناظرين، وهاهو.. يقف في انتظار الرحيل، حتى جاءه المصعد، يجاوره (أبوه) الذي سأله:

- سَلمّت على جدتك؟

أومأ إيهاب بالإيجاب، ولبث ينظر لأبيه الذي كان يكتم فيضان انفعالاته الأبوية، لم يرضَ أن يراه (إيهاب) متهاويًا، أصر أن تكون آخر ما تقع عليه عينا ابنه، هو ابتسامة ثقة، يبثها في ذاته، لتعينه في أول مشوار الاغتراب. فتح (إيهاب) باب المصعد الحديدي، ودخل وقد حنَى رأسه قليلًا، بعد أن تبادل التحية، وكلمات الاطمئنان المعتادة مع أبيه، الذي دس وجهَه بين فتحات باب المصعد الخارجي، وبقيَ صامتًا ساكناً يثبت نظراته على ابنه، ثم أدخل يده من فتحة الباب ليلمس كتف ولده، يطمع أن تشبع نفسه بحقيقة ابنه بين يديه، قبلما يتحول بعد طرفة عين إلى كيان معنوي، يتهافت في هالات الشعور، والخيالات فقط. ثم ..اختفى ابنه من أمام عينيه، لم ير من أعلى إلا صندوق المصعد المصمت، تجره حبال السَحْب السوداء جرًا صارمًا، فوجد نفسه يقول له، يصحبه صدَى صوته:

– اكتب لي أول ما توصل يا إيهاب..أرجوك!

-51-

سلة الورود الكبيرة تستند بسيقانها الثلاثة على الحائط أمام الغرفة، بعدما انتهى الفرح.. يخلع (بنطلونه)، ويلبس (البيجامة)، وهو يقول لأمه المنهمكة في قراءة المصحف:

– يوم غريب، كأن الواحد في عالم حواديت، (فادية) دخلت دنيا، وابني خرج للدنيا.

أغلقت (الأم) المصحف، تبدو عليها البَشاشة، لفرحتها بانتهاء ليلة فرح ابنتها في سلام، ثم أشارت لابنها بصوت متقطع، بأن يكتب خطابًا لصديقتها الإيطالية (أُونّدا) تبشرها بالخبر، فَردّ إبراهيم متأففا:

– أكتب جواب في آخر الليل؟!

تعيد عليه في الحاح، فيزعق في وجهها:

– الصُبح يا ماما.. الصبح!!

يفتح (التلفزيون)، ثم يتجه مهموما نحو السرير، فيرمي جسمه في كَدَر، لكن عادت تدفعه بكوعها بنفس الصوت المتقطع في أذنه، تطالبه أن يأخذها للحَمّام.

يصرخ بعصبية زائدة:

-"يُوووه".. كل شويه الحَمّام الهباب، أنا زهقت منّك،..زهقت!!!

تنظر له (الأم) واجمة، لا تعرف ما الذي سيفعله معها، تخشى أن يركبه العناد، خاصة أن احتباس البول يؤلمها بشدة، فاستنجدت بعاطفته. وبعد مرور دقيقة كاملة بَدَت عندها زمناً، قام ليسحبها بشدة نحو الحمام، يدفعها دفعاً، لتُحرّك قدميها، وهي تنظر له في تَرَجّي، ليُسرعَ بها.

-52-

مثل أي يوم آخر، لا يحمل أحداثا غير مألوفة، اللهم إلا فواتير الإيجار، يتسلمها (إبراهيم)، ثم يشير لأمه بها في يده، حانقًا:

- لازم ندفع بسرعة، لأنهم رفضوا نظام التقسيط على سنتين، والقضية حبالها طويلة.

تقوم (الأم) بطي بعض الملابس بعد غسلها، ثم ترفع رأسها له، تفكر معه عن حل!

- لازم نسحب كل الباقي من (البنك)، وربنا يدبرها في مصاريف علاجك.

فكر (إبراهيم) ماذا لو ألمت بأمه أزمة صحية، كيف سيعالجها؟ هل ينقلها إلى المستشفيات الحكومية الملوثة، التي تقتل الكثير من روادها المرضى بفداحة الإهمال، وفقر الإمكانيات؟ لم تَهُن عليه أمه،

وهو يحس أنها تفكر بمثل ما يراود تفكيره. جلس بجوارها، حيث تتشاغل بتكملة تسوية الملابس بين يديها، وبدأ يساعدها في هدوء، فيتناول ما تنتهي منه، ويضعه في صفوف مرتبة، حتى اقترب منها قائلًا:

- ربك عالم بنا يا أمي!

هزت (الأم) رأسها هزات روتينية، في حين تُناوله آخر قميص ليضعه في مكانه، ثم ترجع ظهرها لوسادتها، وتقلب البصر حواليها.

انسَل من الركام الراسخ في نفسه، آويًا إلى مثواه الروحاني وملاذه العقلي. يشعر بخلل اتزانه النفسي، مع توالي الظروف المحبطة التي تتعقبه. تحُدّثه نفسه بأن توفير نفقات المعيشة المجْبر عليها، يجب ألا يكون على حساب نفقة علاج أمه، ولاسيما تمارين العلاج الطبيعي التي تقوم بها والدته مع طبيب متخصص، يأتي لها كل يومين. ظل يُعاهد نفسه على الالتزام بنفقات علاجها، مهما كانت الضغوط... تنفس في ارتياح بعض الشيء، ثم رفع طَرْفه، فأبصر شارع (أبي الدرداء).

خَلعَ حذاءَه عند باب الجامع (العمري).. ارتكن على الحائط، لم يرتح لجلسته، فمدد كل جسده على البساط، وراح يُدرب روحه للانصياع لسلطان الفطرة، أغمض عينيه يحث النفس -بقدر وسعها- على الارتقاء إلى مسالك الزهاد، ومراتب العارفين.. هدوء المسجد يمنحه قدرًا من الانغماس، لا يزعجه كثيرًا صوت الترام، أو جلبة ماكينات الخراطة بالورش الكثيرة المتاخمة، بل سريعاً عَدِمِ الإحساس بما

حوله... حقاً ما أشهى العُروج إلى مدارج الروح، هو لا يعنيه أن يبلغ القدرة على الجَلد الصوفي في الارتقاء، يكفيه أن ينال راحة النفس ولو بقدر، لكن زاد عليه تلك المرة، أنه جَنَىَ عبارة اصطفاها عقله، من وحي ضياء قلبه. فأخرج من جيب البنطلون قلمًا وورقة صغيرة، ليكتب عبارتَه المكونة من خمس كلمات، ثم ينضم بعدها لصفوف المصلين، يؤمهم (إمام الجامع) الذي كثيرًا ما حرص على سماع خطبته، وحضور دروسه، كلما سنحت الفرصة..

- الله أكبر

عقود إيوان القِبْلة تصطف تحتها رؤوس المصلين المعدودين، بينهم (إبراهيم) يُشرق بداخله نور التَمنّي، بأن القدَر سيأتي له بما يرضيه. سَجدَ وهو يسأل مولاه، أن يجازيه خيرًا في المسابقة الأدبية، التي أُوشك الإعلان عن نتائجها، ثم تضرّع إلى ربه، مستعيذاً من ظلمِ الظالمين، وجهل الجاهلين، ومن دعاءِ لا يستجاب له..

- الله أكبر

لم يرفعْ رأسه مع الباقين، لقراءة التحيات فور تكبيرة الإمام الأخيرة، إذ أطال في سجدته، يتمسح في رحمات الله، لَشَد ما يحتاج إلى كِسرة أمل، وبعض الثقة، تعينه في الأيام القادمة..

- السلام عليكم ورحمة الله..

انتهى من الصلاة، ليجد من بجواره ينبهه بفظاظة، ألا يتأخر عن إدراك (الإمام) في القيام من سجدته، فأمسك (إبراهيم) لسانه،

وأذعن للملحوظة مُطأطِئ الرأس، يَلُوح الخشوعُ في مشيتهِ المتمهلة، ثم هَمّ بالخروج من باب الجامع، واضعاً يده في جيبه، يطمئن على وجود ورقته، بعدما أوجز فيها فحوَى مشاعره منذ قليل.

-53-

ينير الغرفةَ المصباحُ الصغير المحاط بهيكل رباعي من أسلاك الألمنيوم، ومغطى من الجوانب الأربعة بنسيج حريري شفاف باطنه من التُلّ، والموضوع بجوار الأم على (الكومودينو) حيث تقطع تحت إضاءته (الفاصوليا الخضراء) إلى قطع صغيرة، وهي ممددة الساقين على سريرها، أما (إبراهيم) فقد انتقل بطاولته المتحركة بجوار المصباح، ليوفر تكلفة الإضاءة التي باتت عبئًا عليهما، بعد زيادة أسعارها. شرع يستغرق في الكتابة والتفكير، وإن كان صوت تقطيع الفاصوليا الرتيب، يُلقي في نفسه إحساسًا أقوى ببلادة الجو النفسي حوله، ثم لا يمر وقت قبل أن يترك القلم، يحرك أصابع يده اليمنى المتعبة، ثم يلتفت لأمه بصوت يتلاءم مع هدوء البيت ، وملوحًا بالورق:

– قصه جديدة، كتبت منها صفحتين، عن ست طيبة وصالحة، يستهويني يا(ماما) الدخول في نفسية الشخصيات البسيطة، ووصف إنسانيتها، ورصد تفاعلها الدرامي مع الناس، ومع نفسها، كأنها نغمة سليمة في لحن جماعي نشاز.. النظرة السطحية تقول إنها شخصية

مملة، ولها بعد واحد ملائكي، إنما الحقيقة هي شخصية فيها ضعف إنساني، له جاذبية من نوع آخر.

لا ترد (الأم) على كلامه الصعب على فهمها، لكنها تشير له بوجهها، نحو (ساعة الحائط) المعطلة، فيقوم على مضض، ويبدأ في ضبطها، وهو ينظر لأمه، قائلًا بنبرات يغلبها السأم:

– جو البيت لا يُطاق، كأنه كائن حي، إنما ميت إكلينيكيًا!

لا تنظر له، بل تستمر في تقطيع الفاصوليا، وتقليبها داخل الحُلّة من حين لآخر.

– يجوز ..لأنه وسع علينا؟!

توافقه بحركة خاطفة، وهي تحول نظرها نحو ممر الصالة المظلم. يلتقط (إبراهيم) ما تفكر فيه، فيحلو له نكْش ما بداخلها، وداخله أيضا:

– فاكرة (فادية) لما تمر علينا بهوستها وعصبيتها، و(إيهاب) وهو خارج من البيت، ويسألنا لو محتاجين حاجة...؟!

تنغلق حلقة السكوت بينهما، حيث يرجع (إبراهيم) لقصته ليكمل محاولاته الكتابية، وتبقي (الأم) كما هي في عملها الآلي إلى أن تنتهي، وتنبهه لأخذ الحَلّة من يديها، فيتناولها منها، وهو جالس قبالتها، يهم بمعاودة حواره، فلا تُبدي له قُبولاً، فيرسم ابتسامة مصطنعة على وجهه:

– أقول لك نُكتة؟

تهز رأسها بالنفي، ثم تتثاءب.

-54-

– كل شهرين نتكلم في التليفون يا (دَرْش)، من غير ما نتقابل؟!

تنقطع المكالمة الهاتفية، التي أجراها وبادر بها (إبراهيم) مع صديقه القديم، فيغلق السماعة، منتظرًا من صديقه أن يُعيد الكَرّة، ثم يلتقط (مجلة) من طاولته الصغيرة في طريقه للحمّام، يغمره الإحباط من عدم إتمام المكالمة، كم كان يتشوق للخروج من قفص البيت، ويقضي بعض يوم مع صديقه، يسترد فيه متانة أعصابه.. مَط بُوزَه وهو يترك الغرفة، وعلى حافة السرير تحاول (الأم) أن تُعدّل من جلستها بنفسها.

صوت فرشاة الأسنان الخشن يتعالى، إذ يدعك أسنانه بغيظ، يرهف أذنيه لجرس التليفون الأخرس، فعَمّق من هوان نفسه أن صاحبه لا يتحمس للقائه، كما طلب منه، فاكتنفته حالة من التشاؤم. بَصق في الحوض، ليعيد غسل أسنانه مره أخرى، مقلداً (فادية) في وسوستها، ثم يصله صوت (أمه) تستغيث، فينفجر فيها بغضب من مكانه:

– أصبري، أصبري.. يلعن أبو القرف!

لا تتوقف صرخات أمه، فأنهى غسل أسنانه بوجهه العابس، حتى وصل لباب الغرفة متبرماً، فأوقفه الذهول عندما رأى (أمه) واقفة على قدميها، وتتحرك تجاهه، ألجمته المفاجأة.. رَمَشت عيناه.. رقبته محنية نحو رجليها، بقي بضع ثوان فاغرًا فاه، تنظر له (الأم)، وهي تحرك خطواتها مقتربة منه، انعقد لسانه، وقد احتوته كل معاني الصدمة، ثم يصرخ مدويا:

- ماما.. ماما..

يحضنها.. يقبل رأسَها، ووجنتيها، ويعود لعناقها.. لا يعرف ماذا يفعل!!

- الحمدُ لله.. الحمد لله، حَركي رجلك قدامي، ..

تستعيد (الأم) توازن جسدها، وتكرر محاولة الخطو دون أن تقع. يسرع (إبراهيم) نحو (التليفون) كالمجنون، تقفز من قلبه نبضاته:

- لازم كل الناس تعرف أن أمي ربنا عَافاها، مليون شكر لك يا رب.. ماما يا حلوة يا أحلى غنوة (يدندن لها،ويهز في نشوة سلك سماعة التليفون).

ثم تذكر أنه لا يمكنه الاتصال بفادية كما أراد، لعدم اشتراكه في خدمة الاتصال بالمحافظات، حاول أن يُكلم صديقه، ليشاركه فرحته، فلم يرد عليه... وضع السماعة، ومضى نحو (أمه) يحثها على التحرك خارج الغرفة، يحرسها بعينيه، تتحرك (الأم) بصعوبة بعض الشيء، ثم تقف لتأخذ أنفاسها، وتتماسك، يشجعها (إبراهيم) ويداه مرفوعتان،

تحسبًا لوقوعها فجأة، لكنها تكمل خطواتها، وتخرج بالفعل لممر الصالة أمام باب الغرفة، وتستمر في المشي، تجد الكرة الجلدية الصغيرة بجوار قدمها، فتشوطها. يصرخ (إبراهيم) ويهلل:

– الله أكبر.. يا جامدة يا زوزو!!

تضحك كما لم تضحك من قبل، يحوطها بذراعيه، يضرب الأرض بقدمه، يصرخ معلنا:

– لازم نحتفل بالمناسبة، وننزل الشارع، نتمشى في محطة الرمل، ونتفسح على راحتنا..؟

لا تعرف كيف ترد بعد ما جَدّ عليها!! فتكتفي بتحريك رأسها، وتخرج من حنجرتها المرهقة حرفي (الألف) و(الهاء)، تعني موافقتها، على مايقول:

– أه..

– وأشتري لك (جيلاتي أوكُلُوكْلُو) من جنب سينما (ريتس).. السينما اتهدت، إنما المحل لسة بحاله، فاكرة (الكُلُوكْلُو) يا زوزو؟

– أه

– ونشتري (هَريسة) بالقشطة؟

– أه

– نتفَسّح نتفسّح، ونتفرج على الدنيا.

يقذف بالكرة عالياً، وقد أصابه هَوس المفاجأة، ويعود فيحتضن أمه، ثم يحاول أن يحملها، ويرفعها مثل الأطفال، وتَدوي كلماته، كطلقات الاحتفال:

- كأني في حلم..، زَوّقي نفسك، والبسي حالًا ياماما، أنا قلت لك فيه أمل.. فيه أمل؟!

فجاءه صوتها، تجيبه من حَشايا الروح:

- أه.... أه !!

كَحّلت الجفون، ووضعت الحلق الذهبي في أذنيها، لكنها لم تخرج للخارج، حيث رفضت الفكرة خشية وقوعها في الشارع، تشعر أنها لا زالت تحتاج وقتًا لتمام شفاء ساقيها، فوافق (إبراهيم) على مضض، لكن كان الحل الوسط الذي اقترحه عليها، وقبلت هي به مرحبة، هو أن يصعدا لسطح العمارة، لتخرج من عُزلتها بين الجدران، وتهنأ بالفرجة على منظر (بانورَامي)...

- شايفة البيوت وهي مسنودة على بيوت، وكل واحد يقضي عُمْره فيها، وبعدها يرحل بحكايته..

لوّحت له بأن يقلل من استرسال حواره السائب، فَكَتم بقية كلامه، وأحس بتطاوله على خصوصية هذه اللحظات، التي تتماهى فيها أمه مع موجودات الأفق العريض. تنفرد بالمنظر، فتتراءى لعينيها الأسطح البعيدة، تعلوها الطائرات الورقية الملونة، تتسابق بأيدي الصبية فوق (جرس الكنيسة)، بعضها ينجح في الطيران لأعلى

مسافة، وبعضها تشتبك خيوطه مع خيوط طائرات أخرى، ثم تتهاوى، فتعود لنقطة البداية. تصب (الأم) جُل تركيزها للمشاهدة، لا يعنيها تعب الوقوف، ولا تشعر بوجود ابنها. تنقل نظرها تجاه سطح آخر عليه (شماسي) بحر موضوعة على الجدار، حيث يقوم شاب بتصليحها في دأب، يُبدل موضعها، ويجدد قماشها استعدادًا لموسم الصيف. تتحسس (الأم) ذقنها البندقي بأناملها مثلما تفعل دائمًا عندما يملكها التفكير، ويقترب منها (إبراهيم)، بعدما أشارت له، تسأله عن بعض الأماكن، والبنايات التي لم تعد تتذكرها، أو لم تشهد ميلادها. فلم يدخر جهدًا، ليجيبها بصوت خفيض، وهو يضع يده فوق كتفها.

-55-

لم تكن هرولة (آلاء) مع أمها في الشارع بمنأى عن تفكيرها في فيما سيكون عليه المستقبل، بعدما اعتقلت أجهزة الأمن مجدداً (أباها) فجرًا من سريره كما كان متوقعا، فعاد هَّم البحث عنه بين السجون، والمعتقلات، رغم بعده عن أي جماعات أو تنظيمات سياسية. حسبت (آلاء) بعد زواج (فادية) أنها على شفا الاقتراب من مواجهة مصيرها بجراءة، إلى أن جاءت الأحداث الأخيرة، فقلبت موازين الحسابات لديها، فهل ستذعن لحتمية زواجها من قريبها؟

تندفع هي وأمها، وسط زحام الركاب، وفوضى الشارع، صَوْب سيارة الأجرة الصغيرة (التُونّايَة)... خماسين الربيع تؤذي أتربتها وجه

(مبروكة)، فتغلق الشباك، ثم تتوجه لابنتها الجالسة بجوارها مقطبة الجبين:

– لازم أروح البيت ألمّ الغسيل، وأسحب القرشين من البوسطة، وأنزل بعدها لسوق الخيط، خَلّ بالك من البيت، لإني راجعة بالليل، واحتمال أزور (ستي زينب).

لم تجد (آلاء) شيئًا تقوله، متعللة بصداع يمزق رأسها، فلا فرصة لالتقاط الأنفاس، لا فسحة من الوقت، والهدوء، لإعادة دوران عجلات حياتها كما تشاء. تسوقها المجريات بسرعة حمقاء، مثلما تجري بهما السيارة الصغيرة في سباق محموم مع بقية سيارات الأجرة، بَيْد أنها اضطرت أن ترفع رأسها فقط، لتعترض –كعهدها– عندما سمعت أمها تسبق اسم (زينب) بلقب (ستي)، كرهت (آلاء) أن تسكت، وإن كان ما يشغلها الان أن تقنع نفسها بعدم البت في موضوع الزواج سلباً أوإيجاباً، لتتركه للمقادير كيفما تقضي، فقضية والدها وحريته، أهم من حريتها، وقضيتها الشخصية، لكن.. إلى متى؟

ـ56ـ

حانت إذاعة نتائج المسابقة الأدبية التي تأهب (إبراهيم) جالسًا على الأرض لمعرفة نتائجها، وقد تملكت حواسه، ووعيه شاشة التلفزيون، ومع مرور لحظة وراء الأخرى يدق قلبه دقًا متسارعاً، يحاول أن يداري خفْق التوتر عن أمه، وهي تضع له طبق (السندويتشات)، فيربت على يدها، لا سيما أن فرحة شفاء ساقيها لم تمض عليها أيام

كثيرة. تتابع (الأم) معه بدء إعلان النتائج، تعرف جيدًا تَشَوقه لأي نجاح، جلست بشيء من الصعوبة بجواره على الأرض، ترفع رأسها مثله نحو الشاشة الصغيرة، يقضم قطعة من(الساندويتش)، لا يحس بطعم، تنظر له، فيلحظ جمالًا حانيًا ينبعث من عينيها يريد أن يُبشره بحُسن الحَظ، فازدَردَ ريقَه، وهو ينتزع منها إجابة تريحه:

- مُمكن، يا ماما؟

جَالَ في خياله، وهو يهاتف (إيهاب)، فيخبره بحصوله على الجائزة، ويقول له بشموخ، واعتداد:

-"أبوك كان (صح) يا ولد..!!".

(يتمنى أن يراه ابنه ناجحًا، ويفتخر به، فهل سيكون؟!)

حاول أن يهزم وساوس الإحباط، ويقطع دابرها قبل أن تتغلبه، فتَذَكّر كلمات التقريظ في إبداعه القلمي من أدباء منصفين، لا تربطهم به أي مصالح، أعانته وقتها ليكمل طريقه مضحيًا، ومتحملًا لمز، وغمز جارح، من هنا وهناك، وأولهم طليقته، وأم ابنه، التي راهنت على فشله في مشروع حياته، وهو.. الكتابة.

تبدأ (مذيعة الحفل) في إعلان الأسماء الفائزة، فتهرع أذناه إلى دقة الانصات، تهف روحه إلى سماع اسمه وعنوان قصته، تحبس (الأم) أنفاسها، تتمتم في سرها الدعاء، وتنتهي (المذيعة) من ذكر أصحاب الجوائز المتقدمة، إلا جائزتين.. ثوان مُزَلزلة تمر عليه! حاول أن يخفف على نفسه إن استمر تجاهله، فهو الأمر المعتاد الذي تعايش مع سَفَالتهِ، وهي الحقيقة الظالمة، التي طالما قنع بها، رغم إيمانه بإبداعه..

راحت الجائزة قبل الأخيرة عليه، لكن بقيت الفرصة الوحيدة، انتظر الاسم الأخير الذي سيتم إعلانه الآن، تجدد أمله وتفاؤله فجأة، يرى شفاه (المذيعة) تملأ كل الشاشة من فرط تركيزه... رفعت (الأم) طبق السندويتشات لتعود به إلى المطبخ، تتحاشى الالتفات إليه، ثم أطفأت التليفزيون...

لم يفز بأي شيء.. لم يذكر اسمه مطلقا!!

مسحَ فمُه، وهو بمفرده في الحجرة على الأرض، جلس مليًا يحدق في الشاشة السوداء، تداخله برودة غريبة، منحته قدرًا من اللامبالاة. ثم نهض بتكاسل ليغسل يديه، وغادر الغرفة، وقد انكمش كتفاه... ظلت الغرفة خاوية، خاوية من أي حس، لا شيء فيها إلا.. هواء، كأنما رحل أهلُها بغتةً دون رجوع!

على مهل عاد بعدها يتأهب للنوم، وأتت أمه تتوكأ على عصا استعملتها مؤخرا، ثم استلقت بجواره على السرير في صمت، بعد أن أطفأت نور المصباح. ظلت عيونها مفتوحة في الظلام الغالب، وبدأت تتجه بنظراتها نحو كتف ابنها العريض، أحست به وهو يهتز تحت الغطاء، سمعت حشرجة تنسل من صدره، فمَدَّت أصابع يدها على رأسه، استسلم لها، وانساق جسده الثقيل، وهو يُخفي وجهَه، حاول أن يطمئنها بإيماءة دالة على عدم تفاقم حزنه، ثم عاد يستدير مرة أخرى معطيا لها ظهره، لكن يد أمه أمسكت به، تمنعه من الاختباء، وتهون عليه:

- ييبو.. أأه..وومم

كررت بصعوبة حروفها المبهمة، لعلها تعيده لمشارف الصبر، ورفعت رأسَه بحنان رباني، فانهمر بكاؤهُ.. يَرُج الغرفة.

-57-

تكالبت عليهما الأيام بأحداثها الروتينية، فمن الاستيقاظ، وما يليه، ثم انتظار موعد الطعام، فالتحدث فيما راح، أو الاكتفاء بالإشارات، مع تسول أحلام بسيطة مثل: خطاب نادر من (إيهاب)، ومكالمة كل حين من (فادية)، إلى أن يهبط الليل، فيكتب (إبراهيم)، أو يقرأ قليلاً، في حين تنشغل (أمه) ببعض الأعمال العادية على قدر صحتها، ثم لا يجد الاثنان شيئًا يفعلانه، سوى الانصياع للنوم المبكر. وهَلُم جرا.. بَيْدَ أن الليلة – تحديداً – لها سمات، تلوح بشيء غير متوقع.. وهذا ما كان:

يقطع (إبراهيم) بالسكين (رُمّانة)، فيقسمها إلى نصفين، ويقدم لأمه النصف على طبق زجاجي عليه ملعقة صغيرة، يستطعم الاثنان (حَب الرُمّان)، ثم تسحب (الأم) ورقة بيضاء عليها سطور من قصة (إبراهيم) الجديدة، تشير له، ليقرأها لها، وقد بدت في مزاج معتدل. فيبدأ في سرد المقدمة:

– كانت عندنا جارة.. ربي... وأي جارة!! وَدعتها سنوات زادت عن الخمسين. تعيش مع حَمَامِها الأبيض، وصورة زوجها المتَوَفّي. أذكر عندما كنت أزورها بعد المدرسة، فتقودني إلى شرفتها، تأخذ بكفيها

المدوّرتين بضع حبات تنثره للحَمَام في العُش، وأفرد إصبعي الصغير، لأمّر به على ملمس الريش فتغمرني وَداعة، أسألها أين ولماذا؟ فتَنحني نحو قامتي القصيرة، وكأنها تعيرني سر الهديل، فتهمس:

– يا صغيري، للحَمَام.. معنى!!

رَدَدْتُ قولها في قلبي، ولم أفهم..

تنفلت المخدة ببطء من تحت ذراع الأم في أثناء إصغائها إليه، وتبدي له الإعجاب، فشكرها، وهو يغالبه الشجن دون أن يعرف سببه، ثم أدار وجهه نحو شاشة (التليفزيون) التي تعرض توقعات (النشرة الجوية) عليها درجات الحرارة، فتوقف عند رقم (26)، فأنّعَش ذاكرته بأمر جَدْ مهم، مما جعله يعود لوَجْه أمه، قائلًا بلهجة المعتذر:

– الليلة عيد ميلادك يا زوزو، أنا آسف.. كل سنة وانت طيبة يا جميلة.

تكابد بقوة طبعها وتتماسك، حتى لا تقلب المناسبة السارة إلى أحزان، ثم تنطق بحروف تعبر عن سعادتها، أو هكذا أظهرت:

– كككل....يم..وو

يتأمل وجهها سارحًا، ثم يضع يده على يدها، ويمرجحها لأعلى وأسفل، مغنياً بعض الكلمات من أغاني عيد الميلاد، فترتسم على ثغرها بسمة، وتتمايل برأسها معه. طبق الرمان الشفاف بين يديه، يُطعمها مما تبقى منه، ثم سألها ملاطفًا عن هدية عيد ميلادها التي

تنتظرها، فخفرت من الخجل كفتاة صغيرة، فاسترجع السؤال مصمماً بينه وبين نفسه، أن ينزل في الغد، ليشتري لها ما تخجل من ذكره، لكنها حاولت أن تنسيه الأمر، تحمس منفعلاً، وعلا صوته:

- وَضَّحي يا ماما.. أنا سامعك.

لكنه انتبه إلى أن بَوْح أمه بالكلام صار مُحالًا منذ أمد، فطَيّب خاطرها، في حين أغضت الأم نظرها، ثم عَدلت وضع الملعقة الصغيرة على حافة الطبق بتسليم أسيف.

- واضح في عيونك أن عندك أمنية خاصة؟!

رفعت سبابتها، وأشارت على (التليفزيون).

- قَصدك.. (تليفزيون) جديد، أكبر مثلًا؟

نَفت (الأم) معترضة، ثم أشارت له مرة ثانية نحو الشاشة، فوَلّى (إبراهيم) لها ظهره، ناظرًا (للتلفزيون) الذي يعرض لقطات مؤثرة للطواف حول الكعبة، وبقية شعائر الحج في الأماكن المختلفة، يصحبها ابتهال ديني، فيسألها:

- الحج؟

يرتفع صوتها عاليًا بشغف جَلي:

- أه.

رأى خيبة أمل أمه، بعدما رمت نظرة بعيدة متحسرة، مما جعله يستجمع كلماته، ويدقق فيها، وهو يزيد من اقترابه منها:

– أقسم لك إني لا بد أعمل كل طريقة لتدبير فلوس السفر، وأُقَدم لقُرعة الحج السنة الجاية، يا رب الحظ يرضينا، ونكسب..!

ظَن أنه أرضاها بوعده بالمحاولة، لكنه وجدها تتعلق بالنظر، والإحساس نحو (الكعبة)، ومناظر الطواف.

حاول أن ينتقل إلى موضوع آخر، لكنها لم تتجاوب معه، فلم يجد بُدًا أن يستغرق معها حالمِا، بحضور هذا المشهد مع الملايين الذين يرددون التلبية في نداء جماعي موحد: "لبَّيكَ اللهُم لبَّيك...لبيك لا شَريك لكَ لبيكْ".

التفت لها، فوجد عينيها تَترقْرقان بالدموع، فطمأنها:

– صدقيني إن شاء الله (يشير للتليفزيون) نلف، ونطوف مع بعض هناك، نرمي الهم، ونشم طراوة الحرم، و نجري على الصفا، ونروي عطشنا من زَمْزم.. تفاءلي يا زوزو.

تمَلَّك الموقف مشاعر (إبراهيم)، أحس أنه يريد أن يقُص رحلة وجدانية بالغة الصدق، واستحوذته مفرداته التي قرأها منذ قليل في قصته، لكنه لم يكن يتحدث بوحي من شخصية القاص بقدر ما أراد أن يُطمئن أمه، ويمس أهداب خيالها، فأكمل تفصيلات رحلتهما المأمولة، وقد مزج في نَصْ كلامه المفرد، والمثني، في بوتقة المجموع:

– نقعد في مكة أسبوع، بعدها نسافر بين الجبال، نمر على طريق الهجرة للمدينة، وأول وصولنا نصلي في الروضة جنب النبي، ونصلي، ونسلم. نزوره، ونقول جنبه كل الدعوات، نحس إنه سامع قلوبنا..

(صلى الله عليه وسلم)، ننسى الدنيا بقرفها وهوانها، الواحد تعب يا أمي، من حقنا نروح عنده، ونفضل هناك، نرتاح أنا وانت، ويارب لا نرجع، ولا ننسى طول الوقت.. نسبّح.

تَتزين ذراتُ السكون حولهما.. مصباح السقف يميل من الطَرَب.. طَرَب الملائك وهي تترنم في الأجواء الخفية، يرنو الاثنان إلى هلال السماء المتسق، يعبران معًا معبرًا نحو المطلق أو ما يشابه. بدت حبات الرمان كبللور يتَدحرج، فيستكين المذاق في الحنايا، ويرتقي قلباهما إلى مدَارك ما لا يُدرك، رقة النفس فيهما قِطْمير، والسرور سرمد... ويلوح لهما في الطريق وميض بَسّام، يركبان مركب السفر مع قوافل متحابة، تغادر حدود المدينة إلى موطن القِبلة، ويتعرفان عند قبالة المركب على وجوه المسافرين: فهاهو الإمام/ أبو عبد الله الشاطبي يحاور الشيخ/ أبو القاسم القباري في الرقائق النبوية، ويتذكران اللقاء السنوي مع السلطان/ الظاهر بيبرس، وقتما كان يحل على الشيخ /القباري ضيفًا ببستانه الوسيع كل صيف، ولما استجاب السلطان لطلب الشيخ، وأمر بتحصين ثغر المدينة المحروس بعدة أسوار جديدة ومنيعة... تهللت أسارير (إبراهيم) وهو يجُول مع أمه، وعلى مقربة منهما يجلس الشيخ الإمام والناسك الأبر/ بشر بن الجوهَري، حيث يشعل فتيل السراج في ركنه المنزوي بالمركب، داخل كُوة داخلية تحوطها المقرنصات، وكأنه يتأهب للانطواء، والتعلم، في داره المنعزل أمام الشاطئ المعروف باسمه فيما بعد. وتمخُر مقدمة المركب بساط البحر قُدما، فيقترب (إبراهيم) من /شهاب الدين أبي العباس الأنصاري المرسي، فيقبل عليه ليراقبه، احب أن يوجه نظره للقباب، والمئذنة

الأندلسية لمسجده الشهير، التي تتناهى، وتطفو، على قوس الماء المرئي، لكنه خجل أن يخترق خلوة/ أبي العباس المرسي، وهو يكتب في صحائفه عن أوصاف النفوس.. ثم غدت معالم المدينة الحبيبة سرابًا يتوارَى عن الأبصار، فشعر الجميع بعَلْقَم الوداع، وهامت التنهدات، علا الأنين، وصرخت الأفئدة:

- إ س ك ن د ر ي ة !!

حَطّ زمن جديد رحالَه ضيفًا بين زمنين.. دخلت الرحلة في منعطف لا يعرفه إلا أهله، وبدأ التعارف بين بعضهم بعضًا بألفة القلوب المطمئنة، ثم طمع (إبراهيم) كما أخبر أمه، أن يحاول العثور على الصحابي/ أبي الدَّرْدَاء، وعدها أنه سيرجع دون تأخر، فطفق يسأل عنه التابعي الفقيه/ عبد الرحمن بن هرمز، الذي التف حوله الشباب، يحكي لهم عن أخبار منطقة (رأس التين) في زمنه، فسمع منه (إبراهيم) قسطًا، ثم ارتجى منه على استحياء، أن يدُلّه على مكان صاحب النبي، لكن التابعي السكندري لم يعرف.

لبث (إبراهيم) يحوم باحثًا في أنحاء السفينة، ينادي على اسم مُعلم مدينته حروف البيان الإلهي. دار في كل النواحي، صعد وهبط، واستدار ليعاود الكَرّة، غير أنه انحشر في جمع غفير، تهب أصواتهم بالوجوه النضرة:

" لَبَّيكَ اللهُمَّ لَبَّيكْ... لَبَّيكَ لا شَريك لك لَبَّيكْ.. إن الحمدَ والنعمةَ لَكَ، والملِكْ ".

يجد (إبراهيم) نفسَه مدفوعاً في جوار جمع آخر بأعلى طابق، فتدور حدقتا عينيه، ليفهم عن سر هذا الرجل المهيب، وهو يرفع كتابه عاليا، يحكي بصوت وقور عن محنته مع الوزير الفاطمي المستبد،والحاكم الغشوم/ الأفضل شاهنشاه، بعدما سافر إليه من الإسكندرية، كي ينصحه في بلاط قصره، وينهاه عن المناكر، التي كان يقترفها في حق العباد وأهل مصر، مما أدى إلى حبسه لمدة عام، سأل (إبراهيم) ذاهلًا أحد الواقفين عن هذا الرجل فأجابه:

- هو القُدوة الزاهد، وشيخ المالكية الذائع الذكر في الإسكندرية/ أبو بكر الطُرْطُوشي، وصاحب كتاب (سراجُ الملوك) في السياسة الشرعية، وضوابط الإسلام، لتدبير سياسة أمور الرعية والدول، ورسم هرم السلطة والرئاسة.

لم يسمع (إبراهيم) من قبل عن هذا الكتاب العربي الرائد، الذي عرف أن خبره ملأ المدينة، وكل البلاد المجاورة منذ 900 عام، وحاول أن يتذكر متى ورد في معارفه اسم هذا العَلّامة السكندري، الذي رأى تهافت محبي العلم والثقافة حوله، مع وجود من أخذ يناقشه عن علم، أو ينتقده في تأدب.

تناسىَ (إبراهيم) مؤقتًا البحث عن/ أبي الدَّرْداء، وظل هائمًا يفكر فيما رآه وسمعه، ثم جاس خلال الزحام، يقتفي أثر أمه، فلم يعثر عليها، نسي كل شيء. عاد يلف ويعاود البحث، ولم يطل رُعبه كثيرًا، بعدما وجدها في ركن قريب، تتسامر مع أخريات، فيناديها

من فرط انفعاله بأعلى صوته، يناديها قبل أن تروح منه، يناديها.. وهو ينطق بأحلى حقيقة وَعَى عليها:

- أمّيّ.. أمّيّ .

مشيا معًا، وانغمسا في التكبير والدعاء. تسير بهما السفينة ذَلُولا، لا يصدقان أن زخارف الحلم لهما تتَدلل، ينظران لبعضهما، يضمّها وتضمه، ويفر الاثنان معًا إلى أهل الموكب، لاستباق الرؤية، لقطف خيرات الحيوات الدانية، حتى تلاشت روابط الوعي لديهما، بكل ما سبق، ومضىَ...!!

****

-1-

انصَرمت سنوات مَدِيدة.. لم يعدْ حال المدينة كما كان، ولم يسافر (إيهاب) إليها من زمن، بعدما انعكف في (القاهرة) منشغلًا في عمله ليل نهار، ولا جديد فيما يخص (فادية) سوى تقدم العمر، والطَلاق.

- 2-

يتحدث (محمود) بانفعال، أمام باب (الفُرن) الخارجي، مع تاجر الدقيق المورد للمخابز:

- كل يوم سعر الطن يزيد، الأسعار طالعة لحد يخرب البيوت، ويقفل باب رزقنا؟!

يرد عليه (التاجر) من داخل سيارته الفاخرة:

- الدولار واليُورو في العالي، يعني السوق كله طبيعي يولع، انت فاهم يا حُودَة!

علت لهجة (محمود) الساخرة، وهو يرد ممسكًا برغيف (فينو) هزيل:

- المصيبة إني فاهم.. الدولار يطلع فالدقيق يزيد، والدولار ينزل يعني الدقيق برضه يزيد، في النهاية الحل إننا نقلل وزن الرغيف. شايف الرغيف الديجيتال الجديد (نيولُوك- New look)، الزبُون يحط جواه لَحْسة (جبنة)، وربنا يتولاه هو، وأولاده.

يبتسم (التاجر) غير مبال، وهو يعُدّ الفلوس التي تسلمها من (محمود) مقابل الدقيق، ثم ينهي الكلام في عدم اهتمام..

- كل المخابز ياحُودة شغالة على نفس الوزن، ومكسبها حلو. صَرّف أمورك على الوضع الجديد.

- لكن الضرائب يا سيدي كل هدفها تطبيق شعار عام 2011 الجديد قبل ما يبدأ، وهو.. ادفع بالتي هي أحسن، أو تخبط دماغك في أي داهية.

- البلد كلها بنفس النظام، والناس ساكتة، وخلاص.

ينهي (محمود) كلامه، وهو يفرغ غضبه، ملوحًا بالرغيف الهزيل، في لحظة مغادرة (التاجر) بسيارته:

- الناس وَلّعت في نفسها، وانتحرت يا عم الحاج، بعدما كان الزبون من مدة بسيطة يشتري الرغيف -بحق ربنا- بعشرة صاغ، أو خمسة، اضطر يشتري أربعة قد الحُصْرُم بجنيه، وأنا معذور، وهو معذور، وانت الكسبان، وغَني لي شوية شوية، يا عالم بالأيام الجاية!

نَسيَ الزمن أن يضع بصماته التقليدية على وجه (محمود) وهيئته، فهو كما هو. لم يتغير مع بلوغه أواخر الأربعينيات. نفس بشرة الوجه البيضاء من غير تجاعيد فاضحة، ولم تتسلل شعرة بيضاء إلى شعره الأسود. يتحرك طول اليوم خارج وداخل المخبز، بطوله الممشوق، لكن ما قد تغير بالفعل هوضخامة مسئوليته في تسيير أمور المخبز بمفرده، بعد تخلي أخيه عنه، صار هو العائل والعامل على نحو ما،

بعدما وجد أنه لا مَفر في أغلب الأيام من العمل بكلتا يديه، داخل غرفة العجين، لتوفير تكلفة العمالة. فالمخبز مصدر الإعاشة الوحيد له، ولأخواته البنات اللائي يتكفل برعايتهن، أما (التصوير الفوتوغرافي) فقد أهمله تمامًا، ولم تمس يداه (الكاميرا) منذ وقت لا يريد أن يتذكره، فصار أكثر انفعالًا وعصبية، خاصة في أثناء ساعات العمل، لكي يعوض قلة العائد، بعدما تغيرت نوعية الأفران المنتشرة حوله، إثر تحديثها بالماكينات الإيطالية الدوارة، التي لا يقدر على جلبها لمخبزه، فظل يعمل بطريقة (السولار) التقليدية لخبز العجين، رافضًا بقوة أن يفعل مثل الباقين في أكثر المخابز الفاخرة، بإضافة محسنات للعجين الشبيهة بالهرمونات الكيماوية، مما يضفي على الرغيف قوامًا، وشكلاً جذابا، أو بالأحرى (كذابًا) في عين الزبون...على المقابل فإن ما أثَّر في نفسه، هو الإذعان لضرورة بيع سيارته الصغيرة، التي طالما لَفّت معه في شوارع، وضواحي المدينة، وكانت عونًا له في الكشف عن زوايا نادرة لروح الأمكنة، كما شهدت أحداثًا محفورة، جمعته منذ نحو عَقْد ونصف، بصديقه الوحيد الغائب.. (إيهاب).

-3-

غرفة (فادية) كما هي: (ماكينة الخياطة المغطاة، فوقها التليفزيون، السجادة العتيقة برسومها النباتية المتحورة، الطاولة التي تتوسط الغرفة عليها فنجان قهوة، وعلبة دواء مفتوحة..) أكثر المحتويات لم يصبها التبديل، وإن اعتراها القِدَم. أما (فادية) فتجلس على حافة سريرها،

تستند بذراعها على المسند، وقد افترستها تقلبات الزمن، بدا تدهور جهازها العصبي من ارتعاشات كتفها اللاإرادية، وتفشت تجاعيد وجهها كالسرطان. أمامها يجلس (إيهاب) الذي شبك أصابع يديه، جالسا على بُعد فوق الكرسي القطيفة الباهت، يلقي نظراته عبر باب الشرفة المفتوح على جرس الكنيسة الهائل، وهو يدوي دَويًا دراماتيكيًا.

لا يظهر على ملامح وجهه تعبير، فامتلأت المسافة الفاصلة بينه، وبين عمته بكثير من التحفظ. وبعدما تلاشت آخر صيحات أصداء دَوي الجرس الكنسي، بدأت (فادية) الكلام بشيء من الارتباك:

- أخيرا.. فَكرت تزورني بعد سنين!!

ردّ بنفس وضع جلسته:

- انت في البال طول الوقت.. صحتك تمام؟

أجابته بعفوية ودون تردد:

- متبهدلة...!

تنحنح، وسألها:

- وصل لك إعلان جلسة القضية؟

- وَصل.. ولو إن تأجيلها هو العادي، لكن الحمد لله أن (رئيس مجلس الإدارة) النصاب راح في 60 داهية.

فك تعقيد أصابعه، وأنزل يديه على ركبتيه، زافرًا نفسًا مكتومًا:

– بَعد عن الشركة فعلًا، لأنه ترقى لمنصب وزير!!

يرفع رأسه بعد هنيهات، ظل فيها منكسًا نظره، ثم سألها:

– مستريحة هنا لوحدك؟

فانبرت تجيبه، وقد خشنت لهجتها:

– يعني.. أحسن من المعيشة مع واحد ظالم يقهرني، والاسم زوج... الطلاق أرحم مليون مرة من ربْطة حياة الواحدة، بالنكد وقلة القيمة. (سكتت قليلًا، وهي تغلق علبة الدواء، ثم رمقته وهي تسأله).. وأنت سعيد في القاهرة؟

مَطّ بُوزه، كما كان يفعل أبوه مفكرًا، ثم قال بصوت خال من الإحساس:

– لا مبسوط، ولا زعلان، لكن حُكم العادة.

– ساكن في 6 أكتوبر.. صح؟

– صَح.

أبدت له اندهاشها من تأقلمه على حياة الصحراء، فرد عليها بهدوء:

– 6 أكتوبر مدينة جديدة، ومتكاملة، فيها جامعات، وسينما، وأكبر (المولات).

لم تقتنع بما قال، وظلت على رأيها بأن (6 أكتوبر) مجرد صحراء جافة، ولو بنوا على رمالها كل مظاهر المدَنيَّة، ثم استفسرت منه عن حال زوجته التي لم ترها، فجعل يقلب تفكيره في رأيها، عن طبيعة مكان سكنه الذي يعيش فيه، ثم تنبه لسؤالها:

- مزاجها بعيد عن جو إسكندرية خصوصا في الصيف.

- ممكن تجيبها في سبتمبر، على رأي المثَل "يوليو، وأغسطس للمصيفين، وسبتمبر لنا".. نسيت؟

طفرت نبرة شوق فجأة في صوته قائلًا لها، وهو يتفحص الغرفة:

- أنسىَ؟!

فَك زر قميصه، وخلع (الجاكت) الرمادي الأنيق، وهو ينظر لحالها نظرة سريعة، اضطر بعدها أن يحوّل بصره عنها، بعدما آلمه منظر جسمها غير المتوازن، وارتعاشة كتفيها غير الطبيعية، كاد ألا يعرفها عندما دخل عليها منذ قليل. تمنى لحظتها لو يجري عائدًا إلى الشارع، ويركب القطار إلى (القاهرة)، ليهرب من صورتها الصادمة.

سألته:

- ماشي في شغلك؟

جَزّ على أسنانه، وهو يشكي لها:

- مطحون!!

عاد صوتها للعلو تنصحه، وبدأت تؤنبه كمعلمة المدرسة:

– شُغلك هو قيمتك، وطبيعي إنك تستحمل، وانت لسة شباب، لو كان عندي شغل يسليني، ويقويني، لكانت حالتي غير الحالة، لكن الزرع هو شغلي، وتسليتي.. تحب تتفرج عليه؟.

يفترش الزرع بأوراقه وفروعه الكثيفة جدار الشرفة، في حين يلف (إيهاب) رأسه مصغيًا إليها، إذ تحكي له بصوت مريح، وهي تشير بإصبعها نحو الزرع، أنها تحرص على توجيه بعضه لضوء الشمس بطريقة غير مباشرة كل يومين، وإلا أصابه الذبول، وأفصحت له عن ميلها للصبار الذي تملأ فروعه شرفتها طولا، وبعدها قطفت له زهرة لها اسم صعب لا تتذكره. ثم رفعت قامتها، وهي تقول له، كأنها تحدث نفسها، ساهمة النظر في غصن الريحان الرقيق:

– صدقت يا (عم كامل).. الزرع كأنه ابنك، محتاج حب وتربية.. الله يرحمك.

لفت نظر (إيهاب) وجود جارتها في الشرفة المقابلة، تضع يدها على خدها في سأم، ففطنت (فادية) لمغزى تساؤل نظراته، فأخبرته عن سفر زوجها منذ مدة إلى الخارج، ثم أردفت، وهي تنظر تجاهها:

– قاعدة لوحدها، أنا وهي في نفس الوضع، الناس كلها هَجّت من البلد.

ابتسم لها (إيهاب) لأول مرة، مذكرًا إياها بما كانت تفعله في حق (جارتها) من شتيمة وغيبة، حتى قضت عليها، وافترقت عن زوجها المسافر، فلوّحت له بيدها في الهواء، وهما على عتبة الشرفة:

– الله يجازيك يا إيهاب، أنا والله ما كان قصدي أضايقها.

أنهت كلامها بضحكة مفاجئة، فوقع (طقم الأسنان) خارج فمها، مما أظهر شكلها أمام (إيهاب) كعجوز بلغت من العمرِ عِتيًّا، رغم عدم تعديها أوائل الستين، دَارىَ (إيهاب) وجهه، لم يقوَ أن يديم النظر إليها، فاستدار داخلًا الغرفة.

لحقت به، وهي تثبت طقم الأسنان في فكيها، ثم قالت له بعد ما جلس على الكرسي مضطربًا:

– عمتك كبرت يا إيهاب، أنا عارفة إنك زعلت.

– غَيِّري الطقم أحسن عند دكتور محترم، ولو معذورة في فلوس...؟

قاطعته، وهي تخفي تَحرّجها:

– أنا عندي فلوسي تكفيني، وزيادة.. نعمة من عند ربنا، المهم أعمل لك شاي، ولا تشرب عصير؟

قام (إيهاب) وراءها قبل أن تترك الغرفة، وهو يبلغها بضرورة رحيله ليلحق ميعاد القطار. لم يعد يرغب في المكُوث، عادت له رغبته في الهرب. حاولت أن تستبقيه، لكنه أصر في حزم، فمشيا معاً في ممر الصالة، على جانب منه يتكوم جير الحيطان المتساقط. يتوقف فجأة أمام باب غرفة (أبيه) و(جدته) المغلق بالقفل، فأطل برأسه من الشراعة أعلى الباب، وضع يده على زجاجها، فتراءى له (أبوه)، و(جدته)، على السرير، يحييانه في صفاء.

خفضت (فادية) نظرها:

– صعب عليّ أفتح (الأوضة) إلا كل شهر، حتى في الموت روحه ما فارقت روحها، وأنا فضلت لوحدي وسط الكراكيب!!

لف (إيهاب) رأسه ببطء نحوها يحدق فيها، لا يغمض له رمش، سكتت هي الأخرى، تنتظر أن يرد أو يتكلم، بعدما طال تحديقه له بوجه شمعي، ثم تذكرت شيئًا هامًا، فطلبت منه أن ينتظرها حتى تحضر له ما يخصه من غرفتها. استدار (إيهاب) يتعرف على ما آلت إليه الشقة، مشى خطوات في الممر الطويل، التقطت عيناه (الكرة) الجلدية الصغيرة، فانحنى متباطئًا وأمسكها، وهو يتعجب بداخله من وجودها إلى هذا اليوم، ثم نفضَ الجير عن جلدها، الذي انبعج مع ضغط قبضته، رماها على الأرض، وهَمّ ليركلها بقدمه، لكنه تركها بهدوء فوق الجير المتكوم وراء باب الممر، ولبث ينظر لها.

جاءت (فادية) تحمل كراسة، قدمتها له، وهي تقول :

– لقيتها من مدة وسط كتبه في الصندوق، وكل مرة أنسىَ أقول لك.

هزَّ رأسه، وحَمل الكراسة، ثم اتجه نحو باب الشقة، ووقف لتحيتها، قائلًا بصوت واهن:

– محتاجه أي خدمة..؟

طعنة مباغتة في القلب كادت تهوي بها، من هَوْل الإحساس بالحاجة إليه، لم تدر بنفسها، وهي تنظر في بؤبؤ عينيه:

- شكرًا..

أحس أنها تكبح كلامًا كثيرًا يمور في صدرها المريض، فقال لها مجاملًا:

- أي طلب..؟

وضعت يدها على كتفه بأريحية:

- أطلب منك يا سيدي إنك تكلف خاطرك، وتزورني في رمضان، ونفطر أنا وانت... وبَسْ.

كانت تبغي أن تقول له أنها تدعو الله أن تظل في شقتها، بكرامتها، ولا تُطرد منها بأمر المحكمة، فلا تجد مأوى لمن في ظروفها، ورغبت أن تستجمع جسارتها، لتخبره عن قلقها، عندما تحلّ عليها بدايات الليل، فتنتظر قدوم شبح الخوف في موعده القاطع، لينهش من روحها كما يشاء، كادت تصرخ فيه متوسلة أن يتصل بها دائمًا، حتى يتأكد أنها لم تتحول إلى جُثة منفية، حاولت أن تبوح بكل ما بداخلها دفعة واحدة، لكنها تبصر وجهه الواجم الخالي من التعاطف العادي، فخافت أن تُطيل عليه، وتنهال بشكواها على سمعه، فلا تجد منه القبول، أو ترى على ملامحه الامتعاض والملل، فهمت أنه يريد أن يَفرَّ من شكلها البشع، بعد ما أدى مهمته السنوية، ثم وجدت نفسها تُصرح له بطلب آخر قديم جدًا، وأمنية كثيرًا ما وعدها بتحقيقها في لياليهما معًا، وجدت أنه خير طلب تداعبه به، قبل أن يختفي، لعله يبتسم من قلبه في وجهِها، وأسرعت تجيبه بعدما أوقفته كثيرًا، منتظرًا

بقية ردها عند باب المصعد، وهي لاتزال تربت بكفها عفويًا على ذراعه، وتضحك عيونها في وجهها الميت:

- لما تزورني المرة الجاية، ممكن- بعد إذنك- أروح (المعمورة)، وأفرح شوية، وبعدها...

اختنق صوتُها... ولم تُكملْ!

- 4-

البائع الضرير يعزف لحنًا على الناي فوق رصيف محل (البن البرازيلي)، يمس اللحن إحساس (إيهاب) رافعا نظراته، يتفرج على مباني (محطة الرمل)، التي نجا القليل منها من الهدم، أو الإهمال، تتوه عيناه كالحائر، تداخله نغمات الناي مما يجعله يلف، ويعود، ليقترب من البائع الضرير.. كاد يقول له:

- " اعزفها لي مرة ثانية ".

حارت نفسه في ظهوره بهذا السمت البارد أمام عمته، تضاربت تفسيراته عن تناقض ما يحس وما أظهر، يسير على الرصيف نحو ميدان محطة الرمل، يقطع طريقه شباب يعرضون عليه عروض إعلانات لمحلات، وشركات سياحية، فيعتذر عن الاستماع لهم بحركة سريعة من يده.. ينكفئ بصره، تغالبه تحاوراته. يلوم نفسه، وينفتح بداخله ملف الأحزان، الذي نجح غالبا في تجاهله طوال حياته التي

مضت في الغربة، ثم بالعمل والاستقرار في القاهرة، شُغل وراء شغل، وزواج نمَطي، يخلو يوما بعد يوم من لمسة تَوَدد.

منظفو الأحذية يدقون له بالفرشاة، وهو يسير وسطهم، ولا يلتفت لرنين العملات المعدنية على زجاج الموازين، التي يرن بها أصحابها لجذب الزبائن.. وَلجَ في أفكاره، ونقل كراسة أبيه إلى يده الأخرى، وهو يختلس نظرة سريعة نحو كشك الشرطة، يشغل مساحة كبيرة من الميدان.. لم ير هذا المنظر من قبل.. مَضىَ في طريقه نحو جامع (القائد إبراهيم)، فكر أن يكلّم صديقه (محمود) قبل أن يركبَ قطارَه، لكن لن يسعفه الوقت ليراه، حجزت له زوجته موعد العودة بنفسها دون أن يختار، لا تحب أن يبقي في مدينته طويلا، عاد يتردد هل يكلم صديقه أم يؤجل المكالمة لوقت آخر؟. لم يُهاتف (محمود) منذ سنوات، لماذا؟ لا يعرف..!!

رنّ (المحمول)، اضطر أن يرد على زوجته، تدخل عليه بصوت جامد:

– طَلبوك من الشغل، وقالوا لي إنك قافل (الموبايل)؟ لازم تقطع أجازتك، وترجع لهم الصبح، عندهم صيانة لكل الأجهزة، قبل الجَرْد.

لم يرد عليها سوى بكلمة ..(حاضر)، بعدما أملت عليه عنوان صيدلية معينة، لشراء جهاز لإزالة الدهون، لا يتوافر بالقاهرة.

دفعه الحنين لصعود الترام، اختار مكانًا بجوار الشباك، بدا له سحاب الخريف منذرًا بشتاء ثقيل، ركز ناظريه باهتمام على عربات الأمن المركزي المنتشرة عند جامع (إبراهيم)، وصفوف من الشباب، والبنات،

يرفعون لافتات عليها مطالب للإفراج عن المعتقلين السياسيين. تداعى إلى ذهنه صورة (آلاء)، وهو يتفرس في وجوه الفتيات المتظاهرات، في أعينهن إصرار وتحدٍ، وهو ما أدهشه، هل يا ترى سيتغير شيءٌ ما؟؟ ...لا يدري، لكنه خاف على مصير كل الواقفين.

يزدحم (الترام) بالركاب بعد كل محطة جديدة، فلا يضايقه الزحام، فقد شغله الانتعاش، وهو يشم هواء البحر المطل على مرمى البصر، ثم سلم نفسه لسلْسَال الحس الشجي، يخال له جلسته يصطاد عند صخرته المفضلة، يقابله سير الشراع الوئيد. لم يعد لصخرته وجود إلا في خياله. أغمض عينيه بارتياح مشوب بالقلق، لاقتراب موعد رجوعه. ماذا لو تأخر القطار عن ميعاده القاتل؟.. أو ماذا لو أخذ القطار الذي يليه؟.. تدفعه الرغبة ليواصل الاستغراق في روح مدينته.

محطة (الإبراهيمية) بدت مزدحمة جدًا بالمحلات، والناس. خطف نظرة من بين أجسام الركاب نحو شارع (لاجيتيه)، توقف الترام قليلاً، فتدافعت بقوة من جديد ظنونه، وتساؤلاته:

- "لا بد أن أعود قريبًا لعمتي، وأكون لطيفاً، لابد أن أمحي انطباع زيارتي السيئ، ولكن ماذا سأفعل لو جاء حكم المحكمة بالطرد، مع من ستعيش، وأين..؟".

زَمَّ شفتيه بعد ما أزعجه السؤال، لكنه قرر دون تفكير طويل، أنه سيقف معها، سيمنحها من داخله صدقَ المحبة.

-"أول زيارة لها سأفاجئها بدعوتي للذهاب للمعمورة، أحتاج للشعور بأني لم أزل إنسانًا طيبًا، ولو مجرد ساعات قليلة، وأيضاً لأُرضي روح أبي".

تذكر (أباه)، ففتح كراسة كتاباته بخط يده، كان يتحَاشَى النظر إليها متعمدًا، وما إن فتحها لم يعدْ يشعر بشيء حوله، وهو يعيش في مشاعر أبيه المبثُوثة ما بين السطور، يتمثل له صوته، وهو يقرأ له... فكر في حياة أبيه وشخصيته، لماذا لم يفلح أن يكون مثله؟ أبوه كان له موقف، كان لوجوده رنين مميز، وإن خَفُت، أو لم يشعر به الكثير، لكنه لم يُهادن، أو يفتعل حياة ليست له، عاش كما أراد، وضحك كثيرًا رغم ضرورة الدموع. أما هو فيكسب، ويسافر هنا، وهناك، ويحقق نجاحات ظاهرية، لكنه يعوزه دائمًا الإحساس بالرضا، كأنه شخص أجوف يسير مع القطيع، ولا يقدر حتى على مواجهة (زوجته)، في الوقت الذي تقدر الفتيات الصغيرات على مواجهة أنياب الشرطة! احتقر نفسه، عندما طرأت على باله هذه المقارنة.

قلّب الصفحة، وحدقَ في آخرها، أحس أن (أباه) يكتب له حصيلة تجربته قبل الرحيل!! قرأ بتمعن ذاهل النفس. اقترب وصول القطار، وهو يعبر الشارع إلى المحطة، ولا يزال يردد في نفسه كلمات أبيه التي لم يقرأها له، أو يسمعها منه من قبل.. أفزعه دَوي القطار، غام الجو، وفَتر الضوء، يبدو المسافرون على الرصيف كُتلة هلامية بلون الرماد.. قرر أن يجري إلى (فادية)، يأوي إلى ركنها، هكذا حمَّس نفسه المكبلة بغراء قيود معيشته التافهة، سيترك كل شيء، ويخبرها،

وهو يُربع ساقيه على سريره أمامها، وبينهما أكواب الشاي الساخن، وطعام العشاء اللذيذ:

- " أنا أكره عملي، سأبحث عن عمل يُسعدني، ويفيد الناس، ولو كان في (فُرن) صديقي، ولَن أتخلى عنك،..."

فكر في القرار، وهو يمسح بيديه على شعْر رأسه، الذي شَاب عند فُوْديه. اتصلت (زوجته) به، فلم يرد، وأغلق هاتفه. داهم القطار المحطة، ليبتلع بداخله كل المسافرين من على الرصيف، لهج (إيهاب) من أعماق الذات، يصرخ كالمتسجير:

-"أريد أن أعيش هُنا، أن أبقَى في مدينتي، أنا هُنا.. أنا".

بَيْدَ أنه لم يمض وقت قليل من الرفض، إلا وقد انصاع، واستقل القطار عائدا، يحس بالتضاؤل، وخَوَر العزيمة... لا يُعَزيه، ويشغلُ تفكيره طوال الطريق، سوى شعوره بصوت (أبيه)، يقرأ له عبارته:

" كلما اتسع القلب.. تضاءلت الدنيا ".

****

حسام نور الدين

متخرج من كلية الهندسة- قسم الهندسة الكيميائية- جامعة الاسكندرية.

بدأ في المجال السينمائي، وتعلم تقنيات المهنة من خلال عمله في غرفة (المونتاج)، في عدة أفلام روائية طويلة، مع المخرج/ محمد خان، وخيري بشارة.

شارك في مجال الإخراج السينمائي، في عدة أعمال أمريكية، وفرنسية ، هندية، مصرية. أهمها من انتاج (شركة/ ناشيونال جيوجرافيك) - بطولة عمر الشريف - واخراج / بروس نايمبر.

كتب عدة سيناريوهات روائية طويلة.

كتب، وترجم عن (الفرنسية، والإنجليزية) مقالات سينمائية عن تقنيات فن الاخراج، والمونتاج، وتجربته الشخصية في إخراج بعض أفلامه، في مجلات، وجرائد متخصصة مثل: (فنون، القاهرة).

له عدة قصص قصيرة منشورة في عدة مجلات، ومواقع أدبية.

ناقد سينمائي بجريدة الاتحاد - (أبوظبي).

****

<u>أهم الأفلام التي قام باخراجها، وكتابتها معاً:-</u>

- فيلم (تسجيلي) / هكذا كنت أحلم - (17) دقيقة – (2009)

- فيلم (تسجيلي) / خيط سحري - (24) دقيقة – (2010)

- فيلم (وثائقي / درامي) / مخطوطات نجع حمادي- (50) دقيقة - (2010)

- فيلم (وثائقي) / حواديت القصر- (48) دقيقة - (2013)

- فيلم (وثائقي / درامي) العلامة / محمود شاكر (ملامح من سيرته) – (50) دقيقة (2014)

****